التربية اللغوية للطفل

تأليف

سرجيو سبينى

ترجمة

فوزى عيسى و عبد الفتاح حسن

مراجعة وتقديم

الدكتورة كاميليا عبدالفتاح

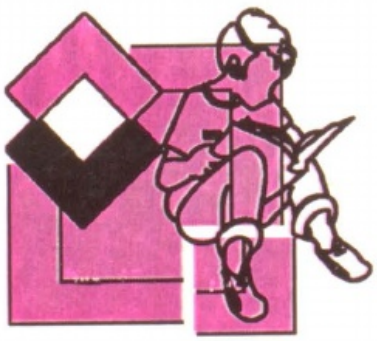

دار الفكر العربى

مكتبة نرجس PDF
www.narjes-library.blogspot.com

التربية اللغوية للطفل

تأليف
سرجيو سبينى

ترجمة
فوزه محمد عبد الحميد عيسى و عبد الفتاح حسن عبد الفتاح
كلية الألسن – جامعة عين شمس كلية الألسن – جامعة عين شمس

مراجعة علمية
الدكتورة كاميليا عبد الفتاح
عميدة كلية رياض الأطفال

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربى
٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥
WWW.darelfikrelarabi.COM

٣٧٢,٢١
س ب ت ر

سبيني ، سرجيو .
التربية اللغوية للطفل / تأليف سرجيو سبيني ؛ ترجمة فوزى محمد عب الحميد عيسى ، عبد الفتاح حسن عبد الفتاح ؛ مراجعة علمية كاميليا عبد الفتاح . – القاهرة : دار الفكر العربى ، ٢٠٠١م
١٥٩ ص ؛ ٢٤ سم .
تدمك : ٦ – ٤٦٤ . – ١٠ – ٩٧٧ .
١ – تعليم الأطفال . ٢ – اللغة – طرق التدريس .
٣ – رياض الأطفال . أ – فوزى محمد عبد الحميد عيسى ، مترجم . ب – عبد الفتاح حسن عبد الفتاح ، مترجم .
جـ – كاميليا عبد الفتاح ، مراجع . د – العنوان .

دار الفكر العربى للطباعة والنشر والتوزيع وشركاه
١ ش الدق – خلف رقم ١٨٤ ش بورسعيد – السيدة زينب ت : ٣٩٥٧٦١٤

تقديم

هذا الكتاب «التربية اللغوية للطفل» هو حلقة فى سلسلة الدراسات التى تهتم بالطفل مما دفعنا إلى اختياره وترجمته ليكون معينا للدراسين والباحثين والمشتغلين فى مجال الطفولة.

ويعالج المؤلف فى هذا الكتاب كل ماله علاقة بلغة الطفل بدءًا من الميلاد حتى الطفولة المتأخرة.

ويتناول بقلم الباحث المدقق العلاقة بين اللغة واللهجة، كما يعالج كل وسائل التعبير لكونها لغات قائمة يستخدمها الإنسان فى حياته العامة والخاصة، فهناك اللغة اللفظية أو المتحدّثة وهناك لغة الاشارات والحركات وتعبيرات الوجه كما أن هناك لغة الرسم... إلخ.

ويتطرق الكاتب إلى موضوعات عديدة منها وسائل التربية اللغوية داخل الأسرة وفى رياض الاطفال وإمكانات الطفل واستعداده اللغوى منذ طفولته المبكرة. هذا بالإضافة إلى مظاهر القصور اللغوى لدى الطفل وأسباب هذا القصور ووسائل تنميته لغويا ومعالجة هذا القصور.

وأهم ما فى هذا الكتاب أنه يرسم صورة واضحة وكاملة للتربية اللغوية فى رياض الأطفال بكل إيجابياتها وسلبياتها ومن جميع أبعادها.

ونحن إذ وقع اختيارنا على هذا الكتاب لترجمته نأمل أن يسد نقصا فى المكتبة العربية ويكون ذخراً لها وعونا للمهتمين بقطاع الطفولة.

الدكتورة كاميليا عبد الفتاح

مقدمة:

أكد علماء التربية المعاصرون أكثر من مرة على أهمية اللعب في حياة الطفل، كما أكدوا على أهمية اللغة غير اللفظية (لغة الرسم والإشارات)، وأهمية التعايش الاجتماعي والنمو الفكري.

أما اليوم فإن العديد من الخبراء - إلى جانب الوثائق الرسمية - متفقون على أهمية الكلمة بالنسبة للغات الأخرى غير المنطوقة، وعلى التأثير الجوهري للغة على النشاطات الأخرى الخاصة باللهو والتكوين وعلى العلاقات بين الأشخاص وتنمية التفكير عند الطفل.

ولتوضيح أولوية وتأثير لغة الكلام يمكننا الإشارة إلى الأضرار البالغة التي تنتج عن انعدام الحافز اللغوي وتأثير ذلك على النضج الشامل للطفل وعلى حياته الأسرية والاستفادة من المدرسة والتعايش الاجتماعي.

هذا ما يعرفه معظم مربيات الروضة والحضانة وما يدركه الكثير من أولياء الأمور، ولو بصورة غامضة أحيانا.

ولكي نؤكد هذا الوعي ونوضحه، ولكي نقدم لكل من يهتم بتربية الطفل خلاصة الأبحاث التي تمت في العديد من العلوم (علم النفس- علم اللغة- علم النفس اللغوي- مناهج التعليم- علم الاجتماع اللغوي- علم التربية- أدب الأطفال، ولكي نطرح الحلول الواقعية والعملية، من أجل كل هذا تم التفكير في هذا الكتاب وإخراجه.

وهذا الكتاب يعتبر وسيلة يمكن الاستفادة منها مباشرة بالنسبة لمن يعمل في مجال تربية الأطفال أو يريد الدخول فيه قريبا، ولأولياء الأمور والمعلمين أنفسهم الذين يواجهون المشكلة الصعبة في التربية اللغوية في المرحلة الأولى من المدرسة الابتدائية.

ولهذا السبب بالذات تجنبت إعطاء مساحة كبيرة لأبحاث المتخصصين بالرغم من قيمتها الثمينة. وتجنبت استخدام مصطلحات تخصصية؛ ولكنني عرضت الجوانب النظرية للتربية اللغوية عند الطفل كإجراءات منهجية، وفضلت اختيار أسلوب فصيح.

فى فصول الجزء الأول من الكتاب نجد أن المقارنة بين الكلمة واللغات الأخرى؛ ودراسة التأثير المتبادل بين الفكر واللغة؛ وتحليل النمو اللغوى عند الأطفال؛ وتوضيح الأضرار الناتجة عن انعدام الدافع والقدرة على الكلام.. كل هذا يوضح سواء مركزية الكلمة فى حياة الطفل أو المسئولية الأساسية التى تقع على عاتق الأسرة ومرحلة الحضانة والروضة.

وفى الجزء الثانى من الكتاب، نجد كيف يستفيد أولياء الأمور والمربيات من الأحداث اليومية ومن الألعاب والنشاطات التكوينية ومن الأشياء العادية والرسومات ومن القصص وموضوعات القراءة – فى تشجيع الطفل على سماع الكلمة وفهمها بصورة أفضل؛ وذلك لكى يستخدمها بصورة إيجابية فى المونولوج والحوار والمحادثة.

وآمل أن أقدم من خلال هذا الكتاب خدمة مفيدة للأشخاص الذين يقومون حاليا بتربية الأطفال، وعموما لمن يستعد للواجب التربوى الصعب.

سرجيو سبينى

الفصل الأول

دور الكلمة في تطور الإنسان

يؤكد الموجهون التربويون في روضات الأطفال الحكومية على أن «التربية اللغوية لها مكانة بارزة لأن لغة الكلام تسود وتساند جميع نشاطات الطفل الأخرى».

وباعتبار الكلمة تحتل مكانة محورية في حياة الطفل، وفي عملية النضج تم التفكير في إخراج كتاب يختص بموضوع التربيه اللغوية للطفل.

لغة الكلام ذات أهمية قصوى

حاول الفلاسفة على مر العصور توضيح ما يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات، فوصفوه مرة بعد أخرى بأنه «كائن عقلاني» و«حيوان سياسي» و«حقيقة مفكرة» و«عنصر حر». أما في العصور الحديثة فإن العديد من الباحثين في شتى نواحي المعرفة من علم النفس إلى علم التربية ومن علم الاجتماع إلى علم اللغة، قد أجمعوا على أن القدرة اللغوية هي الصفة الأسمى التي تميز الإنسان.

وفي هذا الصدد يجدر بنا الاشارة إلى قول إ. كاسيريه E.cassirer: «بدلاً من تعريف الإنسان بأنه "حيوان عاقل" يجب أن نعرفه بأنه «حيوان رمزي» ففي هذا التعريف يتضح ما يميزه فعلاً وما يفرق بينه وبين الأنواع الأخرى، ومن هنا نستطيع فهم الطريق الخاص الذي سلكه الإنسان: أي الطريق نحو الحضارة.. ومن الثابت أن التفكير الرمزي والسلوك الرمزي هما أبرز المعالم التي تميز حياة الإنسان، وأن كل تقدم في الثقافة يركز على هذين العنصرين.»[1]

وكما هو معلوم، هناك أنواع عديدة من الرموز- من إشارات المرور إلى علامات المرور، ومن الرسومات إلى الرموز الرياضية والكيميائية-؛ ولكن الكلمات تمثل لغة الرمز الأولى.

فعن طريق الكلمة يستطيع الإنسان أن يكشف تماماً عن حقيقته لنفسه وللآخرين، ويستطيع أن يندمج بصورة فعالة في الحياة الاجتماعية وتبادل الخبرات والأفكار والآراء، كما يستطيع برمجة ومراقبة نشاطه اليومي وإضفاء النظام والوعي على تراثه العقلي

---

(1)E.Cassirer, Saggio Sull'uomo,Ed.Armando, Roma1972,Pagg.81-82.

والفكرى؛ كما يسترجع الماضى بوضوح، ويتوقع المستقبل بفراسة، ويحتفظ فى الذاكرة بتقاليد الشعوب المختلفة، ويعقد مقارنة خصبة بين الثقافات المختلفة.

إن استخدام الكلمة هو جزء لايتجزأ من الحياة الإنسانية شأنها شأن الغذاء والتنفس والمشى والتفكير حتى أنه من غير المنطقى تخيل أن عصر ما قبل التاريخ كان خاليا من لغة الكلام. كما أن حدود هذا الاستخدام تشبه إلى حد ما حدود الإنسان ذاته، كما أن عيوب ونقص التربية تؤدى إلى إعاقة خطيرة للنضج الشامل.

لهذا السبب يؤكد ج فرانشسكاتو G. Francescato عالم اللغة الشهير أن اللغة «تقوم بدور فاصل فى العلاقة التى يقيمها الإنسان بين نفسه وبين الحقيقة. وبالتالى فإن تعلم اللغة الأم.. لا يعتبر اكتسابا بسيطا لوسيلة خارجية، ولكنه خلق واكتساب لقدرة داخلية، يساعد اتساعها وتكوينها الخاص الصبى على تحديد واكتساب التكوين الكامل للعالم .. ومن هذه الاعتبارات مباشرة نستنتج أهمية اكتساب اللغة عند الطفل وهى أهمية ستظهر شواهدها بطرق كثيرة أثناء الحياة بأسرها».

التقدم عن طريق الكلمة

من الواضح أن تأكيد أولوية الكلمة فى التربية يأتى من جانب علماء اللغة المعاصرين. فبقدر ما يحللون لغة الكلام ووظيفتها فى حياة الفرد والمجتمع، بقدر ما يكتشفون ثراءها التكوينى.

ومما لاشك فى أهميته أن يتم تغذية الطفل جيداً وحبه بإخلاص، وأن يتم توفير المساحات الملائمة لتحركاته واستطلاع الأدوات المناسبة للعبه فى تلقائية تامة؛ ولكنه من الضرورى التوضيح والتذكير بأن العلاقة مع الأشخاص ومع الأشياء تتم عن طريق الكلمة.

فالأسرة تغذى الصغير وتلهيه وتداعبه أو تريه اللعب والأثاث المنزلى والواقع البيئى باستخدام لغة الكلام على نطاق واسع. كما أنه يدرك الأحداث ويتعامل مع الأشياء ليس فى صمت القبور ولكن بين مجموعة من الأشخاص يشجعونه ويوجهونه فى نشاطه المتواصل من الفهم والمناورة حتى – وأحيانا بالذات – عن طريق الكلمة.

وبالتالى فإن اللغة تقدم العالم للطفل فى صورة منظمة ومنسقة وفى الوقت نفسه تكون بمثابة أداة لبلورة نكائه واندماجه الاجتماعى.

ويتبع ذلك أهمية «إبراز حقيقة اعتبار اللغة كوسيلة «خلاقة» فى حد ذاتها لقدرتها بصيغها الإنتاجية والسياقة والتكوينة المعبرة والمجازية على «تهييء» الإنسان لملاحظة الواقع فى ألفاظ شخصية، وبلورة الصورة، ولكنها فى الوقت نفسه كفيلة بإمداده بالوسائل والطرق لتجديد ذاته وتجديد المجتمع الذى يعيش فيه».

وبعدد محدود من الأصوات البسيطة والكلمات والقواعد الصرفية والتكوينات اللغوية يستطيع الطفل مع مرور الوقت أن يفهم ويصوغ عدداً غير محدود من العبارات. وكما أشار بوضوح ج. ب ريختر G.P. Richter منذ حوالى قرنين من الزمان فإن عملية الاستماع والكلام تشكل للطفل أحلى لعبة حيث إنه عن طريق بعض العناصر القليلة «والمرنة جداً» يستطيع أن يصوغ أكثر التكوينات تنوعاً من الألفاظ والمعانى. فلغة الطفل ليست ببساطة تقليداً لأشكال موجودة مسبقا ولكنها اختيار حر وتكوين ذاتى للأصوات والكلمات والصيغ اللغوية، وأحيانا قد تتعدى الأشكال والصيغ الخاصة بالكبار.

إن لغة الكلام يمكن تشبيهها باللعب ليس فقط لكونها تسمح بأقصى درجة من الإبداع ولكن أيضا لأنها تشكل وسيلة لا مثيل لها في التعبير. فالواقع أنه عن طريق الكلمة يظهر الطفل احتياجاته وحالة جسده ويفرغ توتراته الانفعالية والعاطفية ويخرج تجاربه الحالية ويسترجع تجاربه الماضية ويعبر عن شكوكه الأولى وعن اقتناعاته السانجة، إنه يكشف عن حقيقته للمحيطين به، ومن ثم يتجه إلى الإدراك الذاتى عن طريق لغة مبتكرة سواء من ناحية الشكل أو من ناحية المضمون ونتيجة لتفردها هذا تكون معبرة إلى أقصى درجة.

وكما هو معلوم على مدى هذا القرن فإن نمو الذكاء يتم على قدم المساواة مع النضج اللغوى، وبتحديد أكثر فإن الكلمة هى عامل مؤثر جداً فى التربية العقلية. فلغة الكلام تحفز وتبلور القدرة على الملاحظة والتحليل والمقارنة والتصنيف والاستنتاج وتمثيل الماضى والتنبؤ بالمستقبل. واللغة أيضا هى الوسيلة الأولى التى يتم عن طريقها نقل الثروة الثقافية إلى الأجيال الجديدة التى بدورها تنميها بمساهماتها الخاصة.

والكلمة-كما يقول بريتون J. Britton – هى وسيلة منظمة لتمثيل الخبرة ولهذا فهى تساعد فى تنظيم طرق التمثيل الأخرى .. فالطفل .. يكتسب القدرة على التنظيم العقلى لما تم تنظيمه من قبل عن طريق اللغة التى يستخدمها . كما أنه يظهر مدى قدراته فى التنظيم عن طريق الفكر بنطق هذه الخبرات، ثم بعد ذلك بالتأمل فيما نطقه»

وأخيرا فإن الكلمة تساعد على عملية المعايشة في المجتمع: فالطفل يولد نتيجة العلاقة الخاصة بين والديه، وعادة ما يقضى الأعوام الأولى من حياته بين مجموعة مترابطة الشمل، وهى الأسرة وفى وقت مبكر يستطيع التعامل بصيغ ووسائل متعددة : مثل الابتسامة والبكاء والحركة وتصبح الحياة الاجتماعية طبيعية بالنسبة له.

وإذا كانت جميع اللغات تسمح للصغير بالدخول فى علاقة أكثر قوة وإدراكا وتكوينا مع الآخرين، فإن ذلك ينطبق في المقام الأول على الكلمة. فهى تعبر-أحيانا- تدعم السرور والقدرة على التعايش مع الآخرين، وتسهل الانتقال من النشاط الفردى الخاص بالطفولة المبكرة إلى النشاط الاجتماعى الخاص بالمراحل التالية (حوار - لعب جماعى- محادثات - أعمال جماعية) وتسمح بكثرة التبادل الثقافى الذى لايتأتى عن طريق لغه أخرى.

وهنا يتضح التكامل بين الكلمة والفكر والحياة الاجتماعية، فالنضج العقلى للطفل يعتمد أولا على قدرته على استخدام الوسيلة الاجتماعية الأولى للتفكير وهى الكلمة. وكما يقول فيجوتسكى L.S. Vygatsky : «الاتصال الحقيقى يتطلب أولاً معنى - أى تعميم - ثانيا علاقات .. فالأشكال الراقية من العلاقات الإنسانية تكون ممكنة فقط لأن التفكير الإنسانى يعكس حقائق مفهومة.»

خطورة التخلف اللغوى

اهتمت الأمهات عادة بمشاكل التغذية والحالة الصحية للأولاد الصغار، وحديثا أدرك الناس أهمية المساحات والخامات المخصصة للعب الطفل ولكن الوعى بالأهمية الأساسية للكلمة فى السنوات الأولى من عمر الطفل مازال دون المستوى، كما يلاحظ للأسف أنه فى كثير من الأسر ورياض الأطفال يقضى الطفل ساعات طويلة من النهار صامتاً «مثبتاً» أمام التيفزيون أو منهمكا فى ألعاب فردية أو فى الرسم الكتابى.

فالالتزامات الكثيرة وعدم الإعداد النفسى التربوى لكلا الوالدين والتقليل السريع لعدد الأبناء ، وميل الأسرة - وهذا يتضح بصورة قوية فى المدينة - إلى الانغلاق على نفسها ، وارتفاع عدد الأولاد فى أقسام رياض الأطفال ومحاولة المعلمات تمييز جوانب أخرى أكثر إيحاء من النشاط التربوى تؤدى إلى أن يصبح العديد من الأطفال «متخلفين لغوياً»

إن مرحلة الطفولة تؤثر فى العمر بأكمله ليس فقط فيما يتعلق بالصحة البدنية أو المجال العاطفى أو النشاط الذهنى والحركى، ولكنها تؤثر أيضا فى النشاط اللغوى. وفى هذا المجال يتم النضج بكثافة معينة وتأثير واضح فى الفترة مابين ٢ و ٧ سنوات.

بينما محاولة التعويض المتأخر فى هذا الصدد تقابلها العديد من الصعوبات وتكون ثمارها قليلة ، يؤكد دومينيكو بارنزى Domemico Parisi «إن امتلاك قدرات لغوية غير كاملة النمو هو بمثابة عجز حقيقى عن الاشتراك فى جميع أوجه الحياة الاجتماعية وهو فى الوقت نفسه أمر خطير؛ لأنه يؤدى بالتالى إلى تخلف تربوى، أى أنه يخلق صعوبات بالغة فى الفهم والتحصيل الدراسى. فالجزء الأكبر من التعليم المدرسى يصل عن طريق اللغة حيث إن القدرة على التعبير عن الذات وفهم الآخرين (أو المدرس مثلا) عندما يتحدثون ومعرفة الكتابة والقراءة هى قدرات أساسية للاستفادة من التعليم الذى تقدمه المدرسة».

فى الكثير من العائلات وفى بعض رياض الأطفال تستخدم الكلمة فى المقام الأول لإصدار الأوامر والتحذيرات أو للتعبير عن الإحباط أو الرغبات (تماماً كما يحدث بالنسبة للغة الإشارات)، بينما لايتم استخدامها فى شرح الأمور والتعليق عليها أو فى وصف الأشياء وتوضيح فائدتها، أو لاسترجاع التجارب وتبادل المعلومات، وبالتالى يدخل الطفل الروضة أو المدرسة الابتدائية وهو لا يملك سوى "حصيلة محدودة من الكلمات" الأمر الذى يؤدى إلى صعوبات مختلفة: سواء فى التعايش الاجتماعى أو فى استيعاب المعلومات الأساسية أو فى اكتساب القدرة الآلية على دراسة المواد المختلفة وفى عملية اكتساب القواعد النحوية والصرفية.

إن الفشل الدراسى، الذى كان يظهر فى وقت من الأوقات فى صورة رسوب متكرر والذى يتم إخفاؤه اليوم عن طريق النجاح التلقائى، هو إلى حد كبير راجع إلى عدم النضج اللغوى. ولهذا السبب أيضا فكرنا فى إصدار هذا الكتاب لنحلل فيه لغة الكلمة ومراحل نضجها والدور الذى يقع على عاتق الأسرة وخاصة وسائل ومضمون التربية اللغوية فى الروضة. إن عدداً غير قليل من أولياء الأمور والمدرسين لايهتمون بتوفير بيئة غنية بالحوافز اللغوية حول الطفل؛ لأنهم يعتقدون خطأ أن النضج اللغوى يتم فقط عن طريق قوى داخلية أو عن طريق عملية حتمية لا إرادية. وعلى العكس من ذلك يعتقد البعض أنه من الممكن، بل من الواجب تشجيع الطفل على تعلم اللغة القومية التى يتحدثها الكبار، وذلك فى وقت قصير

وأحيانا لغة أجنبية أيضا توهما منهم بأن النمو اللغوى يعتمد أساساً على التأثيرات البيئية وبالتالى يمكن إسراع هذا النمو حسب رغبتنا.

وقد اتضح أن الإنسان كائن «رمزى» تؤثر الكلمة فى حجمه وحدوده. والآن بما أن المولود هو شخص بالفعل حتى فى المراحل الأولى من الطفولة يؤكد عدد غير قليل من الكتاب مثل ديفيد نيل David Mc Neill أن هناك "جهازاً فطرياً لاكتساب اللغة» يسمى D.A.L بواسطته يحقق الأطفال فى سنوات قليلة عملية تعلم اللغة الأم بصورة مذهلة.

وكل إنسان يولد يكون مزودا بـ «كفاءة لغوية» ويمتلك «قواعد نحوية كونية» فعالة. وبالتالى منذ الطفولة، وعند سماع حديث المحيطين به لا يكون فى موقف سلبى بحت، كما أنه لا يقلد تقليدا أعمى الصيغ اللغوية ولكنه «يصوغ افتراضات» على نفس الطريقة التى يطبق بها الكبار قواعد النحو العامة «على القواعد الخاصة» باللغة المستخدمة فى بيئتهم. كما يستطيع الطفل أيضا فى وقت قصير نسبيا الانتقال من عدد محدود من «الجمل الجوهرية» إلى عدد متزايد وغير محدود من الجمل الممكنة، لأنه عن طريق التجربة يكتشف «التغيرات» الخاصة باللغة التى يتعلمها ويستخدمها بدقة وثقة متزايدة.

ومع ذلك فالفهم والإنتاج اللغوى عند الطفل يعتمد على الالتزام والحنان والمهارة التى يحفزه بها الكبار على الاستماع. وكما يقول فرانشسكاتو G.Francescato «يتم وضع الطفل فى موقف يمكنه من تكوين «المعجم» اللغوى- وبصورة أكثر دقة- من تكوين «معجمه» الخاص أو مجموعة من النظم التى نصف معرفتها بأنها «كفاءة»، وذلك لأنه من الامتلاك الشخصى لهذه النظم يستمد المتحدث القدرة على استخدامها بصورة أصلية وذات معنى فى الوقت نفسه وذلك فى المجال اللغوى الذى تناسبه هذه النظم».

والقدرة على الاستماع والتحدث تتطلب فى الوقت ذاته تطوراً مناسبا للقدرات الفسيولوجية والنفسية (مثل التحكم فى التنفس، وتمييز الأصوات، ونضج الجهاز الصوتى) ومع ذلك فهى قدرة «نوعية»، تتميز عن جوانب النمو الأخرى وتؤدى إلى نمو مبكر وانتظام السجع فى الجمل المتتالية.

وحتى إذا سلمنا أن التعبيرات اللفظية الأولى تكون راجعة إلى انفعالات ورغبات، فإن اكتساب الكلمة يتمثل فعلاً فى القدرة على فصل «موقف حقيقى» أو «نقطة تفصيلية مميزة» وعزل «وحدة كلية» محددة عن مجموعة من الكلمات أو الجمل المسموعة. كما يتمثل فى إنشاء

علاقة بين هذه «النقطة التفصيلية» و«الوحدة الصوتية الكلمة»، وهو ما يعنى اكتساب «معنى» لفظ أو مجموعة من الألفاظ.

فعلى سبيل المثال، وكما يقول رينيه إسبتز Rene Spitz ، إن «لا» هى الكلمة الأولى التى يستخدمها الطفل بمعناها المعروف الذى يستخدمها به الكبار. ففى هذه الحالة يميز الطفل بوضوح تصرف معين فى سلوك الكبار وهو الرفض ويقرن به كلمة «لا».

ويتم النضج اللغوى حسب مراحل متعاقبة تتميز عن بعضها البعض ولكنها ليست منفصلة. وفى كل مرحلة من هذه المراحل يتمتع «الجهاز اللغوى» للطفل بالانسجام والتكامل ولكنه مع ذلك يكون فى حالة تغير مستمر ليتلاءم مع النموذج الاجتماعى الناضج. مع ذلك فإن طريقة الكلام الخاصة بكل مرحلة من مراحل النمو وبكل طفل يجب أن يُنظر إليها نظرة احترام وتقدير، بدلاً من الحكم عليها بأنها «خاطئة»، ولكنه يجب فى الوقت نفسه تشجيع الانتقال عبر المراحل المختلفة، وذلك من خلال تدخل فعال من الكبار.

ولا يتفق علماء النفس اللغويون على فصل وتمييز المراحل المختلفة للنمو اللغوى. ولكى نؤجل الدراسة التحليلية لهذه المراحل إلى الأبواب القادمة، نكتفى هنا بالإشارة إلى رأى فيجو تسكى Vygotsky فهى رأيه أن «الوظيفة الأولى للغة سواء عند الأطفال أو عند الكبار، تتمثل فى الاتصال والعلاقة الاجتماعية. وبالتالى فإن لغة الطفل المبكرة تكون اجتماعية بشكل أساسى. فهى أولاً شاملة ومتعددة الوظائف وعند سن معينة يتم تقسيم لغة الطفل الاجتماعية بدقة إلى لغة ذاتية ولغة اجتماعية. وتظهر اللغة الذاتية عندما ينقل الطفل تصرفات اجتماعية وجماعية إلى نطاق الوظائف النفسية الداخلية، وعندما ترغمه الظروف على التوقف والتفكير فإنه غالبا ما يفكر بصوت مرتفع. وعندما تنفصل اللغة الذاتية عن اللغة الاجتماعية العامة فإن ذلك يؤدى بمرور الوقت إلى اللغة الذاتية الداخلية»

الفصل الثانى
لغة الكلام

إن أى منهج للتربية اللغوية لكى يكون طبيعياً مؤثراً، لا يتطلب فقط الدراية التامة بالطفل وبمراحل نموه النفسى المختلفة، ولكنه يتطلب أيضا تحليلاً للغة اللفظية. فى هذا التحليل تتداخل علوم مختلفة بصورة شاملة ومن زوايا مختلفة مثل: علم اللغة وعلم التربية وعلم النفس اللغوى وعلم النفس وعلم اللغة الاجتماعى وهكذا. وكما هو طبيعى فإن نتائج الأبحاث لا تكون إجماعيا الأمر الذى يؤدى إلى بعض الشك والحيرة لدى من يقومون بالتربية اللغوية. ولكى نتجنب الأخطاء المنهجية فى هذا المجال الحيوى من النشاط التكوينى، سنكتفى هنا بعرض النتائج التي يتفق عليها معظم الباحثين والتى تهم التربية اللغوية بالإضافه إلى توضيح بعض النقاط التى وردت فى الفصل السابق.

ماهى الكلمة؟

سبق أن ذكرنا أن اللغة اللفظية تميز الشخص إلى حد كبير. فإذا جاز لنا أن نطلق عليه صفات مثل «حيوان عاقل» أو «حيوان سياسى» أو «حقيقة مفكرة» أو «كائن ضاحك»، فإنه من الأكثر عدلاً أن نصفه بأنه «حقيقة متكلمة». فعن طريق الكلمة يحقق الإنسان ترابط تفكيره وانسجام ذاته، وبالكلمة يكشف عالمه الداخلى لنفسه وللآخرين، بالكلمة «والضمنية» يبرمج أفعاله وبالكلمة يوضح ويحدد التزامه تجاه قرنائه وتجاه الأشياء.

وكما يوضح لوروا جورهام A.leroi- Gourham أن الإنسان منذ ظهوره على اليابسة يتمتع بقدرات رمزيه: «وعلى خلاف ما هو مفهوم، ليس الإنسان عبارة عن قرد يتطور حتى يشكل التتويج الاعظم لبناء علم الإحاثة[1]. فالنزعة الرمزية تتمثل فى اعتبار جزء معين دلالة على وحدة كلية. فمثلاً تعتبر العين «مرآة الروح»، بل هى رمز للشخصية بأكلمها؛ والمفاتيح التى كانت تغلق بها المدن فى وقت من الأوقات كانت ترمز إلى القدرة والسلطة المفروضة على هذه المدن.

وهكذا تكون اللغة اللفظية هى الصورة العليا والأكثر ارتقاء للنزعة الرمزية، ومثلما يحل الرمز «محل» مضمون ومعنى محدد، فإن العلاقات اللفظية تمثل الأشياء بصورة ضوئية أو كتابية، كما تمثل أيضا الأحداث الخارجية، والحالات العاطفية والأفكار والإبداع الخيالى الذى تختص به.

---

(١) هو علم يبحث فى المتحجرات الحيوانية والنباتية القديمة.

ولكى نفهم أفضل الوظائف غير العادية للكلمة يكون من الأنسب أن نتذكر فقرة من «رحلات جو ليفر» «Viaggi di Gullver» التى يتم وصف البطل فيها عند مقابلته للرجال الذين- لعدم قدرتهم على استخدام الكلمات - يستخدمون من الجوال بصعوبة وبطء الأشياء التى يريدون تقديمها وتحليلها ومقارنتها.

ففى اللغة لا يمكن فصل الأصوات (أو ما يقابلها من ألفاظ) عن الأفكار أو فصل العلاقات المفهومة عن مفهومها، حتى ولو كان من الواجب تميزها من أجل تحليل أدق للكلمة. فهى عبارة عن الارتباط الحى للعلاقة الصوتية والكتابية بالمعنى، وهى الوسيلة الأولى التى عن طريقها تظهر الحالة الداخلية وتصبح الحقيقة المحيطة شيئا داخليا، إنها الوسيلة التى عن طريقها تتفتح الفردية على الاتصال وتعرض المجتمع بتراثه وقيمه على الأشخاص أنفسهم.

وكما يؤكد سوسير F.De Saussure «فإن اللغة فى جملتها متعددة الصيغ وغير قياسية على العديد من المستويات سواء البدنية أو الفسيولوجية أو النفسية، كما أنها تعتمد على القدرة الفردية والاجتماعية؛ ولا يمكن تصنيفها تحت أى فئة من الأمور البشرية حيث لايمكن تفسير وحدتها».

واللغة- كما هو مفهوم- تتمثل فى قدرتها على فهم وصياغة كلمات وجمل لها مدلول معين. وبعبارة أخرى، من يستخدم المعجم اللغوى يفهم المضمون العقلانى والعاطفى لسلسلة معينة من الأصوات التي ينطقها الآخرون، أو أنه يستطيع «ترجمة» أفكاره وأحاسيسه إلى سلسلة صوتية معينة حسب القواعد الضرورية لصياغة وتفسير المعانى وذلك «لصياغتها» و«تحليلها».

واللغة اللفظية، منذ ظهورها فى التاريخ الإنسانى وفى حياة الفرد، تتكون من ثلاثة عناصر أساسيه: العنصر الصوتى والعنصر اللفظى والعنصر الدلالى؛ ومع ذلك توجد هذه العناصر بأشكال ومعايير مختلفة حسب درجة النمو والتأثيرات البيئية ومستويات الذكاء الشخصية. فمن يسمع أو يتكلم يمتلك القدرة الصوتية (فيتعرف على الأصوات المحددة لإحدى اللغات ويصوغها) ويمتلك القدرة اللفظية (فيفهم معانى الكلمات المنفصلة أو الموضوعة فى تسلسل) ويمتلك القدرة الدلالية (فهو يطبق، بصورة أكثر أو أقل دراية، القواعد التى تجعل من الكلمات جملاً مفيدة).

وكثيراً ما أكد اللغويون على أن اللغة اللفظية ليست عبارة عن (كتالوج) من الكلمات ولكنها بمثابة «نظام» أى أنها عبارة عن كل متكامل من القواعد النحوية والعلاقات، كل واحدة منها لها معنى محدد وقدر صوتى محدد (مثلاً كلمة "خبز") ولكنها فى الوقت نفسه مرتبطة- حسب المعيار العقلانى والصوتى- بعلاقات أخرى (مثل سلة الخبز ومخبز وخبّاز).

واللغات المختلفة تقدم لنا تشابهات لها مغزى فى العلاقات الأساسية بين المبتدأ والخبر وبين الفعل والفاعل، حيث إنها تمثل ضرورات منطقية مشتركة بين جميع الاشخاص ومختلف الشعوب، أما الألفاظ فهى نسبية حيث إنها ثمرة «عادات» رسخت على مر العصور فى المجتمعات اللغوية المختلفة.

والطفل عند ملاحظة بيئته وسماع اللغة اللفظية الخاصة بها يتعلم تمييز وفهم وصياغة عدد متزايد من التسلسل الصوتى «التقليدى»؛ كما يتعلم بصورة لا إرادية اتباع القواعد التى يتم تنظيم واستخدام هذه الكلمات على أساسها.

واللغة، كما يوضح فرانشسكاتو G.Francescats «ليست هى العمليات الصوتية- التى لا تمثل سوى المظهر الخارجى- بقدر ما هى استخدام هذه العمليات حسب قواعد محددة فى تقاليد الجماعة اللغوية، بحيث تكون «تركيبات» تتطور شيئاً فشيئاً. وبالتالى فإن المطلوب من الطفل ليس فقط معرفة وتلقيد الاصوات المترجمة من الكبار، ولكن التمكن من القواعد بحيث يستطيع صياغة «التركيبات» الخاصة به من لغته الأم وذلك عندما يريد. وبعبارة أخرى لاكتساب ما يسمى «الكفاءة» اللغوية لمتحدثى اللغه الأم.

شمولية وفردية اللغة

نظراً لدور اللغة الأساسى فى حياة الفرد، لذلك لا يمكننا تجاهل بعض الأبعاد الجوهرية فى الشخص نفسه. فكل منا ينتمى إلى الجنس البشرى، ولكنه مع ذلك أحد أفراد قومية تاريخية محددة يعتمد عليها إلى حد كبير، ولكنه فى الوقت نفسه من حقه ومن واجبه أن يتميز فيها ليؤكد ويدافع عن شخصيته المستقلة المتميزة.

كما أن جميع الافراد يولدون باستعداد مسبق للتعلم اللغوى، ولكنهم يتعلمون أولاً وقبل كل شئ استخدام لغتهم الأم؛ كل حسب بيئته اللغوية، ومع ذلك يعبر كل فرد عن نفسه بصورة متميزة وخلاقة إلى حد كبير.

ولهذا يجب علينا هنا الإشارة إلى سوسير F.De Saussure . وذلك عندما يميز تماماً بين «اللغة» و«الكلمة». فـ «اللغة» تمثل الجانب الاجتماعي الموضوعي للغة اللفظية، بينما «الكلمة» هي بمثابة الجانب الفردي وهي الحدث اللفظي في حد ذاته.

و«اللغة» هي إطار من التركيبات والعلاقات، فهي «نظام» تستخدمه مجموعة معينه من الناس: هي بالتحديد موضوع دراسة علم اللغة الذي يصف بصورة علمية (وبالتالي بوعي تام) القواعد «اللاواعية» التي تحكم اللغة اللفظية وتشبه «كفاءة» جماعة معينة.

و«الكلمة» هي التحقيق الواقعي للغة في الأفراد، وهي استخدامهم للنظام اللفظي المتبع من المجتمع الذي ينتمون إليه؛ كما أنها الوسيلة لاكتشافه وصياغته من خلال «الكفاءة» الشخصية التي تكتمل وتتأكد شيئاً فشيئاً: كما أن «الكلمة» هي موضوع البحث الخاص بعلم النفس اللغوي وعلم التربية.

ومن يهتم بالتربية اللغوية لابد أن يتساءل كيف أن «اللغة» تؤثر على «الكلمة» وكيف ينتقل الطفل من «الكلمة» أي من محاولاته الأولى الناقصة والسانجة إلى «اللغة» كنظام لغوي يستخدمه الكبار المحيطون به.

والشخص يملك منذ طفولته المبكرة «كفاءة» لغوية تصبح تدريجياً قدرة على التطبيق اللغوي فقط عن طريق الأمثلة والحوافز التي تقدمها له البيئة العائلية والاجتماعية والمدرسية المحيطة به. ويبدو الصغير، أمام هذه المغريات، وكأنه «سلبي» نظراً لأنه يفهمها ويستقبلها؛ ولكن في الحقيقة يكون «إيجابيا» لأن جهازه الفطري «للفهم اللغوي» يتيح له اختيار وتنسيق العناصر اللغوية المختلفة في بيئته، وتكوين قاموسه اللغوي الذي يتناسب مع بيئته. وعلى أساس الخبرات الواقعية العديدة، يكتسب الطفل أنظمة لغوية متزايدة التعقيد ومناسبة للنظام الفكري وهو ما يطلق عليه سوسير F.De Saussure «اللغة».

وفي هذا الصدد يشير ديفيد نيل David Neneill إلى تجربة لطفل أمريكي يبلغ من العمر سنتين اسمه آدم كان يستخدم حسب «قواعده» عدداً كبيراً من الكلمات والجمل «التلغرافية» ("اسمع جرار"؛ "آدم فعل برج"؟ "انظري سيارة، أمي"؛) ففي ثمان ساعات من التسجيل نطق الصغير حوالي ٤٠٠ جملة مستخدما باستمرار تركيبات نحوية مقبولة ولم يكن من بينها جملة واحدة غير مقبولة.

ويقول نيل Neill : إن هذه التجربة أكدتها تجارب كثيرة مع أطفال آخرين تم ملاحظتهم، من بينهم طفلة يابانية وطفل روسى.

إن خصوصية اللغة لا تنشأ فقط لكون الشخص نشطاً (وليس متلقيا سلبيا كالشريط المغناطيسى) ولكون طريقته فى «التفسير» و«الصياغة» تعتمد على مستوى الأعمار والخبرات السابقة؛ فالخصوصيه اللغويه تنتج أيضاً عن الاستخدام المراد للكلمة وعن نوع الأشخاص الذين يتم الحوار معهم، وعن الظروف المحيطة. فاللغة تغير «مقامها» حسب الشخص الذى توجه إليه إذا كان قريباً أو غريباً أو صديقاً، وإذا كان من مرتبة أعلى أو أدنى؛ أو حسب العواطف وظروف الحياة السائدة- سواء كانت سعيدة أم درامية.

ومن هذا المنطلق يميز بيليو فرونزاروليPelio Fronzaroli بين أربعة أنواع من اللغة حتى وإن تكاملت فيما بينها، وهذه الأنواع هى: اللغة الأدبية ولغة الاستخدام واللغة التعبيرية واللغة الفنية ويقول: «بهذا التصنيف تحوز لغة الأدب أهمية خاصة تكتسبها من كونها المصدر الرئيسى للدراسة. إنها تتطلب احتراما ذكياً لتقاليدها التى يجب الحفاظ عليها وتحديدها»

وخلافا لأنواع اللغة الأخرى، فإن اللغة الأدبية تتميز بكونها أكثر خصوصية من اللغة الفنية وأكثر ارتقاء من لغة الاستخدام، وفى الوقت نفسه تعتبر أقل ثراء من الناحية الحيوية... وفى المقابل فإن لغة الاستخدام تتميز بعموميتها وابتذالها. وحسب التعريف الصحيح للفظ فإنها تشكل كلمة «شئ» فى التركيبات المختلفة مع فعل «عمل». ومن الناحية النفسية يكون مبررها هو الحاجة إلى الراحة والارتخاء.... أما اللغه التعبيرية فتتطلب دائرة مغلقة ومحيطا عائليا تحتفظ بداخله الصيغ التعبيرية بجميع قدراتها على الإغراء.

وعلى طرف النقيض نجد اللغة الفنية تميل إلى تحطيم حدود المجتمع القومى وإزالة كل الظلال العاطفية، وإلى التبلور فى أنظمة سهلة الفهم حتى تبلغ ذروتها فى المعادلات الكيميائيةوالرياضية.

وظائف الكلمة

تؤدى لغة الكلام وظائف متعددة فى نمو الإنسان وفى حياته الناضجة من حيث إنه يعبر بها عن نفسه ويندمج فيها بكل كيانه.

وكما يؤكد كسيريه cassirer فإن الشخص يكون وسط شبكة مزدوجة التأثيرات التى تصل إليها وتنطلق منها فى نفس الوقت وينتج عن ذلك مجال مزدوج من الاستيعاب والتعبير. والانسان ليس فقط فى وسط طرفى هذه العلاقة ولكنه عامل تغيير حيث إنه من خلال نظام من «العلاقات» و «العمليات» يحول تأثير البيئة إلى تأثير على البيئة.

وبالكلمة يعبر الشخص عن احتياجاته ويخرج انفعالاته وعواطفه الداخلية كما يعبر عن رغباته ويعرض تجاربه وظروفه.

وعن طريق لغة الكلام تصبح الحقائق «غير المرئية» التى نسميها الضمير أو العقل الباطن مفهومة، ليس هذا فقط ولكن بطريقة أو بأخرى تصبح معروفة أيضا البؤرة اللاشعورية، هذا ما نستنتجه من جلسات التحليل النفسى كما يؤكد لاكان J.lacan قائلاً: «إن التحليل النفسى ليس له سوى وسيلة واحدة ألا وهى كلمة المريض»

ونظراً لوظيفتها التعبيرية، تعتبر الكلمة وسيلة تشخيصية فى المقام الأول حيث إن الشخص يكشف عن نفسه سواء من خلال مضمون أحاديثه أو عن طريق أسلوبه ونبرة صوته وصمته عن الموضوعات التى تتم مناقشتها وعن طريق وقفاته وهفواته وتكراره لنفسه وأحيانا عن طريق تلعثمه.

بالإضافة إلى هذا فإن اللغة التلقائية للإنسان تتيح له التنفيس عن انفعالاته العاطفية، فهى صمام أمان وعلاج فعال للمرض النفسى، وليس من قبيل المصادفة- كما ذكرنا- أن يصف ريخير Gion Paolo Richter الكلمة التلقائية بانها أجمل لعبة للطفل..

إن الكثير من الكتّاب المعاصرين مثل جاكبسون jacolron يصرون على ابراز الأهمية التى تتميز بها لغة الكلام فى مجال الاتصال. فهى تتيح توجيه وتعديل سلوك أقراننا، وتساعد على الاستعلام مقارنه وإثراء التجارب الشخصية مع تجارب الآخرين، وعلى تنظيم الأفعال الجماعية (فى الأسرة أو فى الفصل أو القسم المدرسى) وبين مجموعة من الاصدقاء والاقارب، كما تتيح أيضا التعليق على التطورات وتقييم النتائج.

وكما هو معروف تعتبر الكلمة عاملاً اجتماعيا مؤثراً، وبالمقابل تعتبر الحياة الجماعية وسيلة أساسية فى النضج اللغوى. فعن طريق الاستماع والكلام يجتاز الطفل شيئا فشيئا

حالة الانطواء بأشكالها المختلفة (العاطفية والفكرية واللغوية) وبسهولة أكبر وفى وقت أقصر ينتقل الطفل من اللعب الفردى إلى اللعب الجماعى، ومن مرحلة المنولوج إلى مرحلة الحوار والمحادثة.

وكما سنرى بالتحليل فى أحد الفصول القادمة فإن لغة الكلام تدعم وتقوى التفكير فى حين تستمد من هذا التفكير قوتها واكتمالها، فالكلمة؛ كما هو معروف مفيدة لوصف الأشخاص والأشياء والمواقف المحيطة؛ كما تساعد على استرجاع حقائق بعيدة فى الزمان والمكان، وعلى عرض التنبؤات بالأحداث المستقبلية وتؤدى إلى توضيح المشاكل النظرية والواقعية لإيجاد الحلول لها ولتحقيق واقعية القرارت المتخذة. والكلمة هى الوسيلة لإرسال واستقبال حصيلة التفكير؛ وهى الوسيلة التى لا تعوض لـ «مناقشة الحديث» أى للإدراك التام للعناصر والتركيبات، لحدوث الكلمة وقيمتها وحدودها ووظائفها، كما تؤكد تماماً العلوم التى تهتم – من زوايا مختلفة – بلغة الكلام.

إذاً التربية اللغوية تلتقى على نطاق واسع مع التكوين العقلى. ولهذا يؤكد لويجى استفانينى Luigi Stefanini أن «تعليم الطفل التحدث جيداً ما هو إلاّ تعليمه التفكير جيداً. ولأن التفكير فى حد ذاته ما هو إلاّ تعبير وكلمة فإنه لا يمكن تعليم الطفل أن يفكر أولاً، لكى يقوم بعد ذلك بمطابقة كلماته مع أفكاره؛ ولكن التفكير ينمو مع اللغة بصورة متوازنة فى الحياة، ولهذا فإن اللغة تعطى التفكير انسجاماً ووضوحاً ولمعانا بقدر ما تأخذ منه هذه الأشياء.

هذه التأكيدات الصادرة عن عالم من علماء التربية تجد صدًى لها عند جويدو بتر Guido patter حين يقول: «لاشك أن اكتساب لغة الكلام له أثر كبير فى نمو النشاط التمثيلى، ففهم لغة الكلام عند الكبار يعنى فهم الكلمات التى تدل على أجزاء أو ملامح مفهومة للواقع، فالكلمات لها القدرة على إثارة الصورة الذهنية لحقيقة معينة عندما تكون هذه الحقيقة غير حاضرة فى الذهن، وفى مرحلة ثانية تؤدى الكلمة إلى تحليل هذه الحقيقة وأوجه الشبه بينها وبين الأشياء التى يتضمنها نفس اللفظ العام؛ وتبرز الكلمة مظاهر الاختلاف حتى وإن لم تكن واضحة للوهلة الأولى بين أشياء تبدو متشابهة ولكنها تأتى من ألفاظ مختلفة.

الفصل الثالث

اللغة(*) والكلمة

إن الدور الذى تلعبه الكلمة سواء فى مرحلة النمو أو فى الحياة اليومية لكل إنسان، ليس دافعاً لأن نفسى أهمية دور اللغة غير اللفظية سواء عند وضع المناهج التربوية أو فى استخدام الكبار أنفسهم.

إن لفظ «لغة»، فى معناه العام، يعنى أى وسيلة أو طريقة يتم التعبير بها عن الألم الداخلى، أو الدخول بها فى اتصال مع الآخرين، وتنظيم الحياة الاجتماعية أو وصف الحقيقة. فمثلاً عن طريق البكاء والضحك يتم التعبير عن الألم والفرح، وعن طريق سلام باليد ثم التعبير عن اتفاق تم الوصول إليه وعن طريق القبضة المضمومة نعبر عن نية الانتقام وعن طريق إشارات معينة من رجال المرور يتم تنظيم عملية مرور السيارات ومن خلال خريطة جغرافية يتم تمثيل جزء من الكرة الأرضية.

أما فى معناها الضيق، فإن كلمة «لغة» تعنى الكلمة حيث إنها اللغة الأولى على الإطلاق، فكلمة، «أورج» مثلاً تعنى الآلة الموسيقية المتكاملة ولفظ «توراة» يدل على ذلك الكتاب المعروف، وهذه الأهمية البالغة للكلمة لايجب أن تثنينا عن توضيح الأبعاد البنائية، وبالتالى إبراز ضرورة دمجها بصورة متكاملة مع أنواع اللغة الأخرى.

أبعاد الكلمة

من الضرورى أولاً أن نتذكر الوحدة النفسية، والجسدية للإنسان فالنفس البشرية ليست «خلف» الجسد، بل إنها تتخلله فى كل أجزائه، والجسد ليس أداة بسيطة للروح ولكنه - بكامل أعضائه يعطيها طابعه ويقدمها بصورة حية إلى العالم ويتيح لها الاتصال بالبيئة الاجتماعية والطبيعية، ولهذا السبب فإن التحليل النفسى يعتبر الجسم بكل أبعاده (إيماءة الوجه، الإشارات، التنزه، نغمة الصوت، الكتابة والرسم التلقائى) كمؤشر واضح على الشخصية و «كعلاقة» واضحة يمكن من خلالها إلقاء نظرة على سر الشخصية الإنسانية.

فالحدس والقبول والثقافة النفسية التربوية كل هذا ليس كافيا للتعرف تماماً على الأفراد وإقامة علاقات بناءة معهم، وذلك إذا لم يتم تقييم الجسم «كمجموعة من اللغات» و«كملتقى تأثير» هام بين الأفراد .

(*) المقصود باللغة هنا هو لغة القطاعات المختلفة وليس اللغة المنحدثة.

ويقول أوريليو فاليراني Aurelio Valeriani : «إن ابتعاد الجسم عن الوعى لن يؤدى إلى أى نوع من الاتصال البشرى حيث أن العلاقة بين وعى «أنا» و«أنت» سوف يعوقها الحاجز الجسدى لكلا الطرفين لأنه يعتبر حقيقة واقعة بين أنا والآخرين ولهذا سيجعل عملية التربية مستحيلة» .

والخطأ الذى يرتكبه من يفترض أو يقبل «احتكار» لغة الكلام يبدو جليا أيضا من تحليل الأبعاد الجوهرية للكلمة، فهى ترتبط أساساً بدائرة الفكر بالتحديد، من ناحية أن الألفاظ لها على الأكثر معنى عام (فكلمة «ماما» مثلا يدل عموما على كل السيدات اللائى أنجبن) وفى الوقت نفسه فإن الشئ الذى يميز الأفراد بصورة دقيقة يظل «فوق الوصف» أى أنه لايمكن التعبير عنه.

وإذا كان المجال «المضىء» للوعى هو إلى حدٍّ ما لايمكن ترجمته إلى كلمات، فإن ذلك يجب التأكيد عليه بصورة أكبر بالنسبة للعقل الباطن واللاشعور، وهذه المجالات التى يدور حولها خلاف الآن، تظهر أفضل من خلال اللغات غير اللفظية : معالم الوجه، إشارة تعنى نفاد الصبر أو الخوف، طريقة السير، التعبير الحر للرسم الكتابى.

وتقدم الكلمة حدوداً لايمكن إنكارها حتى فيما يتعلق بالاتصال، فالحديث أو الاستماع دون رغبة يؤدى إلى تشويه مضمون الرسالة المنطوقة لأن التعبير يكون غامضا وغير محدد وغالبا ما يتم الخلط بين معانى الكلمات، ويرجع هذا إلى أن المرسل والمتلقى، إذا جاز التعبير، لايكونان على نفس الوجه، كما هو معروف فإنه فى بعض الأحيان يكون الصمت بمثابة حديث ... وفى أحيان أخرى يتم للأسف استخدام بعض التعبيرات الغامضة، وقد يتم تقديم بعض التأكيدات أو بعض التساؤلات مع التفكير أو الرغبة فى عكس مايقال تماماً («الرابطة المزدوجة»!) أو يكون الشخص كاذبا دون حياء مما يجعل الكلمة قناعاً بدلاً من كونها وسيلة بين الأفراد والمجتمعات.

أما حدود الاتصال اللفظى فهى أكثر خطورة وخاصة عندما تتعلق بالعلاقة بين الصغار والكبار أو العلاقة بين الأطفال بعضهم والبعض : فالكثير من أولياء الأمور والمدرسين يتحدثون إلى الطفل بسرعة مستخدمين جملاً معقدة وألفاظاً غير مفهومة وعلى عكس ذلك يتحدث الأطفال بصورة غير محددة ومتلكئة وغير مكتملة، فاسمين الطريق أمام ما يسمى بـ«حديث معلق» أى الإشارة إلى الأشياء بألفاظ مثل «هنا» أو«هناك» بدلاً من أسماء الأشياء التى يجهلها الأطفال.

ويبلغ عدم الفهم ذروته في حديث الأطفال مع بعضهم البعض. فالفردية، أي عدم القدرة على «ارتداء ملابس الآخرين» يؤدي بهم إلى الاعتقاد بأنهم فهموا كل ما يسمعونه، وعدم الاكتراث بالتحدث بصورة محددة ومنظمة وكاملة.

وماقد يظهر، نتيجة الملاحظة السطحية، على أنه حوار أو محادثة، ماهو في الحقيقة إلا حوارات متوازية ومتعاقبة وجماعية.

المقارنة بين الكلمة واللغات غير اللفظية

إن أسبقية اللغة اللفظية في التعبير والاتصال وفي النمو العقلي كان لها في الماضي عدد غير قليل من المتحمسين المتعصبين، ويكفي أن نشير هنا إلى من كانوا يختارون لأبنائهم دون تردد «مدرسة الصامة» التي كانت تولي اهتماماً خاصاً للغة؛ أو إلى من كانوا يبرّحون ضربا كل من كان يستخدم الإشارة لتوضيح لفظة متهمينه بارتكاب جرم فاحش.

«وهذا الجرم هو : استخدام لغة الإشارات!»

أما اليوم فما يحدث هو العكس تماما، حيث إن العجلة وفرط استخدام الصور المرئية والأصلية المنوطة بالأشكال الفنية والعلمية.. كل هذا أدى إلى عدم الثقة وفقر الحصيلة اللغوية والجهل بالنحو والصرف الذي يبدو متناسبا بصورة طردية مع التضخم في عدد الشهادات العليا والمتوسطة. كما أن عدم تقدير التربية اللغوية والتعبير البلاغي تعد أخطاء خطيرة؛ والمقارنة بين الكلمة واللغات غير اللفظية، قد يؤدي إلى تجنب هذا وذاك، أما إذا تم توضيح حدود وأبعاد كل منها، فإن ذلك سيساعد على حدوث التكامل والتأثير المتبادل بينها.

إن الكلمة الملفوظة هي أغنى اللغات، حيث إنها، عن طريق تركيب عدد قليل من العلامات المثمرة (صوتية أو كتابية) وذلك حسب قواعد محددة، يكون لها القدرة على التعبير عن مختلف الحالات النفسية وعلى وصف الذرة والسحاب وعلى إيصال الإبداعات الجزئية والراقية للخيال والعقل، كما أن لها القدرة على أن تحل إلى حد كبير محل اللغات الأخرى وتترجم مضمونها إلى معاني مفهومة.

ومع هذا فاللغة الملفوظة تظهر وتتضح في وقت متأخر نسبياً؛ وذلك لأنها تتطلب مستوى معينا من نمو الجهاز العصبي والنمو العقلي، وبالتالي يسبقها ويحل محلها في الطفولة لغات أخرى : مثل العلاقة الجسدية، الصراخ، البكاء، تعبير الوجه، الإشارات، الألعاب، والبنتومايم.

لقد سبق أن قلنا أن الكلمة هى الأكثر ارتباطاً بالإطار الذهنى : من مفاهيم وذكريات ومقارنات وأحكام وافتراضات وتوقعات.

أما العواطف والانفعالات - على العكس من ذلك - فيتم التعبير عنها بوضوح وفاعلية أكثر عن طريق لغات أخرى مثل الابتسامة أو تجاعيد الجبهة أو احمرار الوجه فجاه أو رعشة اليدين أو الإيقاع الموسيقى أو اختيار وتنسيق الألوان.

وحيث إن الكلمة تنقسم تاريخيا إلى لهجات ولغات قومية، فإنه يتم استخدامها بدقة فى إطار الزمان والمكان؛ وذلك على عكس اللغات الأخرى غير المتحدثة التى تسود مجالات تاريخية وجغرافية اكثر اتساعاً (مثل الإشارات والموسيقى والفنون التصويرية) . ومع ذلك تحوز الكلمة دقة التفكير وغزارة التحليل وكمًا هائلا من المضامين والمعانى التى تعوزها اللغات الأخرى.

وتتكون اللغة من علاقات تقليدية تماماً ماعدا بعض الكلمات التى تحاكى معانيها مثل (زقزقة - مواء - خرير - نهيق) حيث إن هناك ارتباطا وثيقا بين صوتيات الكلمة ومعناها، أما فى اللغات الأخرى فهناك علاقة طبيعية بين المضمون النفسى والبناء الخارجى، وهذا ما يجعل «الشكل الداخلى» يعطى بناء «للمادة» (وخير مثال على ذلك الرسم والنحت والموسيقى)، إذاً اللغات غير اللفظية تكون متفردة فى التعبير الذى يصبح أسلوباً مميزاً فى الفنانين وعمومية غير محدودة فى الفهم (وهذا مايوضح القول بأن الفن لايعرف بالحدود).

ولايتحتم بالضرورة دراسة «نظرية العلاقات» لمعرفة جوانب النقص فى كل لغة وتجاوزها تلقائيا باستخدام «رموز» أخرى، فحتى الطفل والكبير غير المثقف يكملان الكلمة بالإشارة والايماءة عند التعليق على رسم أو صورة بالكلمات؛ فى المقابل يوضح الفنى مشروعاً معيناً بوعى أكثر عن طريق الرسومات البيانة أو الماكيت أو الشرح التوضيحى مثلما يقوم الموسيقى بشرح أصول السيمفونية وقيمها الجمالية قبل أن يسمع القارئ إياها أو كما يقوم الناشر بتوضيح المناظر التى تصور جبال الدولوميتى Dolomiti عن طريق بعض الكلمات المعبرة.

ويقدم لنا ديزنى W. Disney مثالاً معبراً عن تكامل اللغات. فقد استغل حدسه الفنى والإمكانات التى تتيحها صناعة السينما في عمل وثائق رائعة مثل «الصحراء التى تعيش»، «وادى حيوان الكامستورو»، «الأسد الأفريقى» لكى يجمع ويصف «الجمال والحقيقة» فى الطبيعة وفى الزهرة المتفتحة والحيوان الذى يربى صغارة.. فى السحر والشفق.

ومع ذلك أدرك جميع الإبعاد ودعا بعض كبار الكتاب المعاصرين للتعليق على هذه الوثائق بكلمة «لمساعدة المشاهد الشارد والذى هو فى عجلة من أمره على إدراك والتقاط كنوز المعرفة والجمال الذى يملأ المخلوقات فى «الصحراء التى تعيش» مثلاً ثم التعليق عليها من فرانسوا مورياك François Mauriac وألبرت كيمس Albert camus ولويس بروفيلد luis Brom field وأندريه موروا Andre Maurois وجوليان هيكلى Julion Hukley ويمكننا القول بأن الإنسان يكتشف القيمة الحقيقية للكلمة عن طريق «حضارة الصور».

بعض اللغات غير اللفظية

قد يكون من المناسب هنا الإشارة إلى وظيفة بعض اللغات غير اللفظية، فإيماءة الوجه تعبر بطلاقة وبوضوح عن الحالة العاطفية، وتسجل تجارب الحياة والانفعالات المتكررة (فتجاعيد الجبهة وثنايا الفم المرة هى بمثابة وثائق خالدة عن السنين التى تمضى والمعاناة الماضية ..)

كما أن التمشية تكشف عن الشخصية، فطريقة المشى (بزهو أو برقة – بانتفاخ أو بحذر) يمكن أن تكشف عن النوع مثلما تكشف الحيوية أو الخنوع والانطلاق أو التعب عن عمر الإنسان. وإذا ما لوحظت بانتباه، فإن طريقة المشى يمكن أن تكشف عن مهنة الفرد (فهل يمكن الخلط بين الجندى والفلاح ؟!) كما تكشف عن الحالة الصحيحة العامة وبعض الجوانب النفسية .

وبينما لايمكن التحكم فى إيماءة الوجه أو طريقة المشى عن طريق الذكاء والرغبة، فإن لغة الإشارات هى نتاج التعلم والتحسن التدريجى وهى خاصة بالإنسان، والواقع أن القرود تؤدى حركات دون وعى كما أن تقليد القرود هى لعبة بحتة.

فحركات الحيوانات بقدر ماهى فطرية، هى منذ الطفولة تتميزبالكمال النسبى؛ أما لغة الإشارات فتتطلب تدريبا طويلاً وتربية متخصصة. وهذه التربية تتمثل أساساً فى الأخذ فى الاعتبار معنى كل إشارة واستعمالها الاستعمال الدقيق والقدرة على استخدامها فى الاتصال الاجتماعى. فالعلاقة بين الأفراد غالبا ما تكون صعبة نتيجة التمركز حول الذات عند الأطفال والأنانية عند الكبار «ولكن أيضا نتيجة عدم الخبرة وعدم القدرة، وهذه هى الحالة الشائعة التى تسبب الكثير من سوء الفهم بين الأفراد، فالعلاقة بين الزوجين، بين

الآباء والأبناء، بين المدرسين والطلاب لاتستطيع التعبير عن الحب والاحترام المتبادل إما لانعدام تصرف إشارى قادر على مصاحبة وتعضيد الأحاسيس الحقيقية، وإما نتيجة تعبيرات تلقائية غير محكومة من الغضب أو من الليونة وهو ما يؤثر على استمرار العلاقة».

وتجدر الإشارة سريعا إلى لغة الرسم الكتابى، فهو أولاً يأخذ شكل التلطيخ الذى لايجب أن يوصف بأنه «تلطيخ مرعب»، ولكن يجب قبوله وتقديره كتجربة سينمائية راقصة أو دائرية من خلالها يصل الطفل إلى فهم التشابه بين الخطوط التلقائية والأشياء المعروفة وعن طريقها يتم تشجيعه على ترجمة التجربة الشخصية والعلاقات المستخدمة إلى كلمات.

وتبرز هنا أهمية الإشارة إلى التشابه الذى يؤكده فيجوتسكى l.s. Vygotsky بين نضج الكلمة ونضج لغة الرسم الكتابى. «لقد لاحظنا أن اللغة الفردية فى الأساس تستخدم لتوضيح النتيجة النهائية أو نقطة تحول مصيرية فى أى نشاط، ثم بعد ذلك يتحرك نحو الوسط وأخيراً إلى أول النشاط مع القيام بوظيفة قيادية وتنظيمية وإيصال أفعال الطفل إلى مستوى من التصرفات المعقولة، ومايحدث هنا يشبه النتيجة المعروفة للتقدم في ربط الأسماء بالصور، فالطفل الصغير يرسم أولاً ثم يقرر بعد ذلك ماذا رسم؛ وعندما يكبر قليلاً يعطى اسماً لرسمه عندما يتم نصفه وأخيرا يقرر أولاً الشئ الذى سيقوم برسمه».

وختاماً يمكن أن نلاحظ أن الطفل يحب استخدام اللغات المركبة مثل اللعب والتمثيل، فهو يعبر عن نفسه فى اللهو بالإشارة والإيماءة والكلمة، وهذا يشكل إشباعاً للطفل من ناحيتين : إظهار نفسه بصورة تلقائية والاستفادة الفورية والمتكاملة من الوسائل التعبيرية المختلفة ونفس الشئ يتم بالنسبة للتمثيل، ففيه يقوم الطفل بإعادة صياغة شرائح من الحياة ويحول أفكاره إلى أحداث ويخرج أحاسيسه فى لغات كثيرة (وغالباً بالاشتراك مع أقران آخرين) وهو بهذا يحرر نفسه من التوترات والخجل ومركزية الذات.

حصيلة محدودة أم حصيلة ثرية؟

لقد أوضح عالم الاجتماع الإنجليزى بازيل برنستين Basil Bernstein كيف أنه عادة فى البيئة المكبوتة تحت ما يسمى العادات الثقافية والاجتماعية يكتسب الطفل قاموساً «ضيقا» (كلمات فقيرة وغير محددة المعانى، ووضع كلمات بدلاً من جمل وعدم القدرة على استخدام العبارات والجمل الثانوية) بينما فى العائلات التى تتمتع بمستوى ثقافى واجتماعى مرتفع يكتسب الأطفال بمرور الوقت قاموساً لغوياً «دقيقاً».

وملاحظة برنستين Bernstein يمكن تطبيقها أيضا على لغات أخرى حيث يوجد أطفال نادراً مايستخدمون اللعب التلقائى والتعبير الحر بالرسم الكتابى والإشارة والتمثيل والرقص والموسيقى.

فأسباب هذا النقص عديدة وتختلف فى خطورتها : منها نقص المساحات الداخلية والخارجية، ومثالية الكبار (والخوف من أن يترك الطفل المكان قذراً أو غير منظم) وتعسف الآباء (الرغبة فى أن يقتصر الطفل على نقل الرسومات وعدم الإزعاج) وسوء استخدام التلفزيون (ولذلك يسمى «أفيون» الأطفال و «مربى أطفال» رخيص الثمن ...)

والآن على الأسرة وروضة الأطفال أن يعلما أنه من بين حقوق الطفل أن يستفيد فى أسرع وقت وبقدر متزايد من اللغات المختلفة، حتى يكون التعبير والاتصال بالنسبة له – بعد فترة – نتيجة وسبباً للنضج الشامل، وهذا يتحقق إذا حصل كل طفل على إمكانية استخدام اللغات التى يرغبها باستقلال تام، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تشجعه أيضاً على استخدام وسائل تعبيرية غير مألوفة له.

وقد قيل أن الطفل الذى يعرف لعبة واحدة هو فقير يتحرك إلى أن يصبح أكثر ثراءً، ومن الصحيح القول أن الطفل الذى يستخدم لغة واحدة أو مجموعة قليلة من اللغات هو «فاشل» وقابل للتدهور فى المستوى.

إذًا من الضرورى إعطاء الأطفال القدرة على استخدام «حصيلة لغوية دقيقة» وعديدة بدلاً من تركهم للإحباط النفسى الناتج عن «فقر حصيلتهم اللغوية».

الفصل الرابع

الكلمة والتفكير

أشرنا فى الفصول السابقة إلى التفاعل بين اللغة المنطوقة والتفكير، وأرى أنه من الأفضل تحليل هذه العلاقة بطريقة أكثر وضوحاً.

فى قديم الزمان أدرك الإغريق والرومان العلاقة الحميمة التى تربط اللغة بالنشاط العقلى حتى أنهم كانوا يستخدمون مصطلحات مثل «لوجوس» (logos) و «فيربوم» (verbum) للدلالة على التفكير والكلمة . فالإنسان يقسم مافى ذهنه من موضوعات بشكل طبيعى، ويعبر عنها باستخدام الكلمات حتى و إن كان لايتحدث مع أحد (المناجاة الذاتية – اللغة الداخلية) ، وبالمثل فإن الكلمة لاتعطى معنى إذا كانت لاتحمل فكرة أو على الأقل إن لم تكن أداة للبحث وتعميق المفاهيم.

ويذكر ل س. فايجوتسكى "L.S. Vygotsky" فى هذا الشأن جزءا من قصيدة قديمة تقول (لقد نسيت الكلمة التى كنت أريد أن أقولها، ولذا توارت الفكرة المجردة من الجسد، فى عالم الضلال) . فهذا يبين لنا أن العلاقة الوطيدة بين اللغة والتفكير كانت ثابتة فى كل العصور وعند كل الشعوب.

فى أثناء النشاط الذهنى تتم بلاتوقف عملية مزدوجة : إدخال الواقع، وذلك من خلال الملاحظة والتفكير وإخراج المحتويات الذاتية من خلال اللغات، وتأتى فى المقام الأول اللغة اللفظية (المنطوقة) فالكلمة تساعد على نقل الأفكار والمشاعر للآخرين بنفس القدر الذى تساهم به فى نقل هذا العالم إلى الفرد كما يعيش ويعبر عنه هو وغيره. ولإيضاح ذلك نقول أن اللغة بها «مضمون» لفكرة تحتاج للنمو والتنسيق من خلال النشاط العقلى، وبها «شكل» يحتاج للإثراء من حيث المفردات، والاتفاق فى التراكيب النحوية والصرفية.

علينا أن نخلق للطفل بيئة تربوية كاملة يستطيع فيها أن يلعب ويبنى ويكتشف ويفكر، بيئة يستمع فيها الطفل إلى أحاديث تساعد على تطوره النفسى ومايعقبه من أثر على أنشطة اللعب، والاكتشاف والتفكير.

ويعلق «ألفريد بروينر Alfred Brauner بقوله: إن اللغة بالنسبة للإنسان المتحضر وسيلة حيوية. إن نقص التربية اللغوية، بالنسبة للنشاط الذهنى لايقل فى خطورته عن نقص الغذاء بالنسبة للطفل فى مراحل النمو الجسمانى. فاللغة هى القاعدة الأساسية للتفكير. وإن

أى دولة حديثة تحرص على القوة والثروة فهى فى حاجة إلى شعب يعرف كيف يستخدم هذه اللغة الرائعة التى ورثها عن الأجيال الماضية».

علاقة تفاعل:

إن الكلمة ليست فقط إشارة تدل على الفكرة التى يعتمد عليها فى التعبير والاتصال بالآخرين، ولكنها أيضاً صانعة للفكرة. فالفكرة إذن تخلق اللغة بينما تتكون هى من خلال اللغة. وكان عالم النفس «سانت دى سانتس» "sante de sanctis" عند تطبيقه لـ «قانون الدورة» فى مجال الحياة الإنسانية، يؤكد على أن التفكير يخلق الكلمة، وهى بدورها خالقة للتفكير . وهذا التأكد يستحق الإيضاح.

إن اللغة اللفظية من «صنع» الإنسان، وهى بالتحديد مجموعة من الإشارات المتعارف عليها والتى يكونها عقله لكى يترجم الواقع الذى يعيش إلى رموز، فالإنسان يلاحظ الأشياء والمواقف من حوله، ويحللها ويفرق بينها ويضع فى اعتباره ما بينها من تشابه واختلاف وبعد ذلك يصبح قادراً على تقسيمها ذهنياً وتصورها بالاسم أو الفعل أو الصفة أو الظرف.

فالإنسان لايفكر فى الأشياء والأحداث بصورة مجزأة وإنما يجمعها فى علاقتها الزمانية والمكانية، وفى ترابط الأسباب والتأثيرات وفى تلاحمها وتعارضها. ويترجم هذه العلاقات إلى ألفاظ شفهية مثل «فوق» - داخل - قبل - بعد - لأن - بالتالى - لذلك - بالرغم من - وهكذا ...

وليس أمراً عسيراً إعطاء أمثلة معبرة من العلوم الإنسانية والطبيعية، لكى نثبت أن التفكير يخلق الكلمة التى تحدده بصورة أفضل، وتكونه وتعبر عنه وتنقله للآخرين.

فالمصطلحات الفلسفية مثل «ميتافزيقا» «الجوهر والمادة» «الجدلية» المادية التاريخية، والأسماء : ثديى، لافقارى، مزهر، تليفون، ووصف الدائرة بأنها شكل هندسى لمجموعة نقاط تتساوى فى بعدها عن نقطة رئيسية تسمى «المركز»، كلها تعد أمثلة كافية لذلك.

فاللغة انعكاس لطرق التفكير، وهى مرآة الحضارة، ولذا فإن المعرفة العميقة بلغة ما تدفع وترغم على التفكير بطريقة بدلاً من أخرى. فالكلمة، بأسلوب آخر، هى تصور العقل للواقع الخارجى والداخلى، فهى كما يقول «هيدجر» "Heidegger" «منزل الكائن». واللغة، من جانب آخر، هى الوسيلة السامية التى يكتسب بها التفكير معرفة أكثر وضوحاً وأكثر

اتساعاً من مداركه كما في عملية الاستبطان الذاتي والمحادثة وكتابة اليوميات، والأبحاث والاطلاع على كتب الفلاسفة والمؤرخين وعلماء الدين والنفس والتربويين، وعلماء الاجتماع واللغة.

وإذا كان ما قيل لاجدال فيه فإن الكلمة بالمثل تخلق التفكير. فعلم النحو الذي يعد مجموعة القوانين التي تحكم اللغة اللفظية، هو ثمرة التفكير، ولكن في نفس الوقت يؤثر بصورة عميقة على طريقة التعلم لمن يستخدمه بصورة اعتيادية. فاستخدام الكلمات والتعبيرات محدد بالطبع في النشاط الذهني.

وإذا كانت مشاعرنا وتصوراتنا المتعلقة بالعالم الخارجي تمثل لنا أول إشارة للواقع والأشياء المحسوسة، فإن الكلمات تمثل الإشارة الثانية، أي الإشارة للمحسوسات. فالكلمات تمثل التجرد من الواقع ثم يطرأ عليها التعميم : وهذا ما يشكل طريقة تفكيرنا الإنساني المتفوق ... فإذا كان الذكاء الإنساني قد استطاع أن يتقدم، وأن يتطور في كل طفل، وإذا كانت لدينا الثقافة والقدرة على التفكير المجرد وعلى الكتابة وإجراء العمليات الحسابية وعلى بناء العلوم، وإذا كنا نستطيع الحكم على تصرفاتنا، وإذا كان لكل منا مثل أعلى واضح واتجاه أخلاقي ظاهر (وليس شعورنا غامضاً)، وإذا كنا نفكر بالفعل، وإذا كنا بشراً بالفعل وليسنا قردة متفوقة، فإننا ندين بكل هذا للغة اللفظية.

فالطفل يستمع دائماً بعناية لأحاديث الكبار ويحرص بشدة على تقليدهم لأن هذا يمثل بالنسبة له نوعاً من اللهو المسلي من حيث الإحساس والحركة إلى جانب أنه يدرك أن من خلال الكلمة تصبح تجربته أكثر وضوحاً وانتظاماً. فهو يستطيع أن يصنف الأشياء والأمور ويفكر في علاقتها بالمكان والزمان وبذلك تكتسب حياته اليومية معاني أكثر دقة.

إن التعطش للكلمات والإعجاب بها سمة يتميز بها الأطفال الذين يعيشون في بيئات تسمح لهم بالتحرك بحرية دون فرض رقابة عليهم، وجدير هنا أن نذكر مع سوزان لانجر "susanne langer" (في كتابها «فلسفة من مدخل جديد» روما ١٩٧٢) حالة الكاتبة الصماء البكماء الشهيرة « هيلين كيلر » "Helen keller" التي كانت فاقدة للإبصار والسمع في طفولتها وكانت تعبر عن رغباتها من خلال لغة الأصابع وفي سيرتها الذاتية «قصة حياتي» تعيد هيلين ذكر اكتشافها للقيمة الكبيرة للكلمة.

«لقد أحضرت لي المعلمة القبعة وفهمت من ذلك أنني في طريقي إلى الخروج نحو ضوء الشمس الدافئ. وهذا الاعتقاد، إذا كان شعوراً بلا كلام يمكن تسميته تفكيراً، وقد

جعلنى أقفز وأدق الأرض بقدمى لفرط سعادتى .. ولقد سلكنا طريقنا نحو البئر وجذبتنا رائحة نبات العسل النكية التى كانت تملأ المكان، وكان هناك شخص يقوم بضخ الماء فوضعت معلمتى يدى تحت الماء، وما أن انصب الماء البارد على يدى حتى كتبت المعلمة على اليد الأخرى (ماء) فعلت ذلك فى البداية ببطء ثم أسرعت، وقد بقيت ساكنة. وكان تركيزى كله على حركة أصابعها، وعلى الفور شعرت بشعور غامض كما لو كنت قد أغفلت شيئا .. وبدأ لغز اللغة ينجلى أمامى.. وقد أدركت أن كلمة (ماء) كانت تعنى ذلك الشئ العجيب البارد الذى كان ينساب على يدى، وقد أيقظت هذه الكلمة الحية روحى وأعطتها النور والأمل والسرور وجعلتها حرة ! وقد كانت هناك عوائق أخرى ولكن مع مرور الوقت تخلصت منها جميعاً، وقد تركت البئر وأنا شغوفة بالتعلم. كل شئ كان له اسم وكان كل اسم يعطى فكرة جديدة. وعندما رجعت إلى منزلى كان كل شئ المسه كأن الحياة تدب فيه، هذا لأننى كنت أرى الأشياء ببصرى الجديد والغريب الذى عاد إلى ».

إذا دعت المعلمة الأطفال إلى لعبة بسيطة وطلبت منهم التجمع كلٌ فى جنسه وبعد ذلك نادت على جميع الأطفال الشقر فإنها بذلك تدعو الجميع لأن كلمة «جميع» تشمل الذكور والإناث معاً، ولأن اللون يشمل الجنسين ويتداخل بينهم.

عندما يستطيع الطفل الفهم واستخدام الألفاظ بدقة مثل «كائن»، «حى»، «حيوان» «فقارى»، ثديى بقرى، عجل، وذلك على فترات، فعندما يقول «هذا عجل» فهو يفكر فى الواقع بصورة محددة ومنتظمة مستفيداً من مفاهيم تتدرج من الاقتداء الشاسع والفهم المحدود (كائن) إلى امتداد محدود وفهم واسع (هذا عجل).

ويعلق «فيجوتسكى» "Vygotsky" بقوله «إن الوظائف النفسية الهامة هى عمليات غير مباشرة والإشارات هى الوسيلة الرئيسية التى يجب إنتاجها للسيطرة عليها وتوجيهها، فعند تكوين المفاهيم تكون الإشارة هنا هى «الكلمة» التى تقوم فى الأول بدور وسيلة لتكوين هذا المفهوم، وبالتالى تصبح رمزاً له، فالفكرة لايعبر عنها بصورة يسيرة فى الكلمة «ولكنها تظهر من خلال الكلمة» فمن الممكن أن نتحدث عن وجودها أو عدمه من الكلمة. إن تدفق الفكرة يمر بمراحل، من خلال حركة داخلية، تشير إلى الانتقال من الفكرة إلى الكلمة والعكس».

«كتب أحد علماء النفس يقول : «إن الطفل يرى، والفتى يتوقع، والرجل يدرك، والعجوز يعيد الرؤية» وهذا التأكيد وإن كان افتراضياً إلا أنه يشمل جزء من الحقيقة.

فالطفل يعيش منغلقاً داخل عالم الحاضر المحدود، وكل تركيزه على اللحظة الحالية :«يرى» ! ومع هذا فإن كلمة الآخرين، والكلمة التي يتعلمها باتفاق تساعده على رؤية الماضي القريب ثم البعيد، وعلى توقع المستقبل القريب ثم البعيد ويدرك بعد ذلك مايشبع رغباته ويساعده على تنظيم حياته اليومية.

فالكلمة إذن تساهم في تحويل الطفل من مجرد مشاهد منتبه ومدرك للبيئة من حوله، إلى شخصية لها دورها ومسئوليتها عن وجودها، فعندما يتعرض الصغار (والكبار أيضاً) لبعض العوائق أو المشكلات الصعبة فهم يهمهمون بصورة فطرية أو يتحدثون بصوت مسموع : ليس للتحدث مع الآخرين، ولكن لكي يوضحوا الموقف المعقد لأنفسهم وتخمين طريق الخلاص باختيار الحل الأمثل والتحكم في عواقبه.

وأحياناً تكون الثرثرة التافهة والأحاديث الشكلية بمثابة بديل عن القيام بالعمل ذاته ولاهية عن مواجهة المشكلات، ولكن غالباً ما تكون الكلمة هي الوسيلة التي لايمكن الاستغناء عنها للتخلص بصورة واقعية من المشاكل اليومية التي لايمكن تجنبها، وإذا كان الفيلسوف القديم ديموكريتيوس "Democrito" يؤكد أن «الكلمة هي ظل الفعل» فإننا نستطيع أن نؤكد ببعض الأدلة القاطعة أن الفعل هو ظل الكلمة» . و إذا درسنا المشكلة من الجانب التعليمي يصبح من اليسير أن نفهم أنه من الخطأ أن نضع مشكلة بين «مدرسة الفعل» و«مدرسة القول» وأنه يجب أن نخلق مدرسة يتزاوج فيها الفعل والفكرة والكلمة.

تفاعل وليس تطابقا :-

إذا كان التفكير واللغة يتفاعلان معاً بشدة منذ الطفولة، فهذا لايعني أنهما يتطابقان. وأعمال الذكاء ومحتوياته لاتعبر أبداً بصورة كاملة عن ذاتها من خلال الكلمة، حتى وإن كانت قدرة الفرد اللغوية ونضجه يصلان إلى مستويات عالية. ويلاحظ الكاتب «دستوفسكي» "Dostojevskij" أنه في حالات كثيرة « لايدخل التفكير في الكلمات» فهناك، حقيقة، نقص فسيولوجي في الكلمة يجعلها لاتتساوى مع التفكير، ويؤكد على ذلك عالم اللغة «جاكمو ديفوتو» "Giacomo devoto" فعالم التفكير وعالم الكلمة يلتقيان عندما يستمع المرء ويتحدث ويقرأ ويكتب بانتباه شديد ودراية كاملة ونضج كبير، ومع هذا فإن هناك أنشطة ذهنية تبعد عن اللغة كما أن هناك للأسف ، حالات يثرثر فيها المرء فيتحدث بلا تفكير كالببغاء.

إذن فهناك «تفكير شخصي» و«تفكير غير شخصي» وكذلك كلمات فارغة أو خالية من المعنى».

فالصم واليكم يستخدمون الذكاء بصورة جيدة سواء لأنهم أشخاص أو لأنهم يبدلون الكلمة باللغة الحركية مع قراءة حركة الشفاه عند الآخرين واستخدام إشارات خاصة بهم، وهم بذلك يضربون مثالاً للتفكير غير الشفهي، ومع كل هذا فإن اليوم ومن خلال التكنولوجيا الحديثة تجرى محاولات لتعليم الصم الكلام بأقصى سرعة ممكنة ليس فقط لتيسير العلاقات الاجتماعية وإنما لأهمية الكلام في تطور الذكاء. فالطفولة الأولى تؤكد على أن التفكير والكلمة لايتقابلان. فهناك في الواقع مرحلة يسبق فيها النضج الذهني النضج اللغوي كما ثبت من ألعاب الطفل الصغير جداً والتي تعتمد على ذكاء الطفل الحسي والحركي (كمحاولة الطفل إدخال جسم ضخم من خلال قضبان القفص) وكذلك هناك أيضاً مرحلة للتطور اللغوي تسبق القدرة على التفكير كما يتضح في إعجاب الطفل بالاستماع إلى كلمات أفراد الأسرة قبل أن يعي معناها وسروره بإحداثه لأصوات بسيطة ومقاطع تخلو من المعنى، كذلك حب الطفل للحكايات والكلمات المرتبة، وهي سمة الطفولة الثانية، تأكيد آخر على عدم التطابق بين التفكير والكلمة.

وهذا الأمر يستمر مع الإنسان طيلة حياته كما يبدو، من ناحية أخرى، فهناك دائماً تفاوت محدد بين معجم الألفاظ السالبة «ومعجم الألفاظ الموجبة» فمهما كان السن ومستوى الذكاء والثقافة عند الأفراد، فإن عدد الكلمات والجمل التي يفهمونها بسهولة، عندما يستمع الفرد أو يقرأ، يكون أكبر من الألفاظ والتعبيرات التي يستخدمونها بصفة مستمرة وباقتداء عندما يتحدثون أو يكتبون. ويذكر «ج د هايس» "j .D. Haese" في كتابه (التطور النفسي من الطفولة إلى المراهقة) بعض الإحصائيات التي من خلالها يؤكد أن المعجم الموجب عند الفرد يتراوح ما بين ٢٠٠٠و ٤٠٠٠ كلمة في مقابل ١٢٠٠٠ في المعجم السالب بينما يصل إجمالي المفردات لكل لغة أدبية إلى ١٠٠ر٠٠٠ لفظ.

ويتضح أيضاً عدم التطابق بين الكلمة والتفكير في التفاوت بين اللغة الداخلية واللغة الخارجية. فاللغة، كما نعرف، عبارة عن مُركب لايمكن فصل عناصره عن بعضها البعض سواء كانت صوتية أو كتابية أو دالة على المعنى، فاللغة الداخلية إذن، في كونها لاتترجم إلى أفعال جسمانية، ليست لغة، ولكنها تتميز بسيادة التفكير فيها على الكلمة، وهي تملك سمة ووظيفة لايمكن أن يشاركها فيها أحد غيرها وهي أنها «لغة لأنفسنا» وأنها «تبخر اللغة في التفكير».

ويكرس فيجوتسكى لهذه النقطة جزءاً كبيراً من كتابه الذى ذكرناه أكثر من مرة ونستطيع أن نستخلص منه التعبيرات المؤثرة. فاللغة الداخلية تتكون من كلمات يفكر فيها الفرد ولكنه لاينطقها، ولها تركيب خاص بها، وهو بمثابة «مسودة ذهنية»، وهى تستخدم الأفعال بدون فاعلين وتتناول موضوعات معروفة للفرد، وهى تعد تفكيرا مُركزا بصورة كبيرة، وهى لغة خاصة. أما اللغة الخارجية، فعلى عكس ذلك، هى لغة ملموسة وموضوعية وتقوم على النطق، فهى لغة للآخرين»، وهى ليست مقتضبة، ولها معان محددة ومقسمة من حيث التركيب اللغوى ولذا فهى مفهومة من الآخرين.

الكلمة والتفكير فى مرحلة الطفولة :-

إن ماقلناه حتى الآن يجد ما يقابله فى سمات النشاط العقلى والتعبير اللغوى عند الطفل وسوف نذكر بعضها بصورة موجزة. فالنرجسية الذهنية تجعله يتعرف على الواقع من وجهة نظره فقط، ولايساوره أدنى شك فى أن هذه الأشياء يمكن النظر إليها من جوانب أخرى مختلفة معه، وبالمثل يفهم ويستخدم كلمات وعبارات بطريقته هو ولايهتم إذا كان قد فهم حديث الآخرين بدقة أو استطاع هو أن يُفهم غيره بوضوح.

والطفل يستوعب الأشياء والمواقف بصورة كلية ويبذل جهداً كبيراً فى تحليلها. ويلاحظ أولاً التشابه بينها ثم يلاحظ بعد ذلك الاختلاف وعندما يتحدث يستخدم الكلمات للدلالة على جمل ثم يضع كلمات فى موضعها الصحيح مثل (ماما – بابا) وفى النهاية وفى وقت متأخر نسبياً يستخدم العبارات الكاملة بعناصرها الأساسية، ويعلق «فيجوتسكى» بقوله إن التفكير عند الأطفال يظهر فى البداية بصورة غير محددة ومشابهة لغيرها، ولذا فعليه أن يعثر على تعبيره اللفظى فى كلمة واحدة ... وما أن يتحدد هذا التفكير حتى يصبح الطفل أقل ميلاً لاستخدام مفردات متفرقة للتعبير عن ذاته، ولكنه ينجح فى تكوين جمل مركبة .. وعلى العكس فإن الطفل عند مروره من مرحلة المفردات المتفرقة إلى العبارات المركبة، فإن تفكيره يتحول من الكلية غير المحددة إلى كلية مقسمة إلى أجزاء متفرقة».

ونظرا لعدم قدرة الطفل على التحليل والتلخيص فإنه يغفل تفاصيل الأمور أو يتوقف عند واحدة منها، وقد يفقد العلاقة بين الأحداث المختلفة ويلجأ إلى استخدام ألفاظ عامة، ويتحدث بصورة غير محددة ومتجزئة، ويلتقط الخيط المنطقى الذى يربط بين أحداث الرواية بصعوبة بالغة.

ويؤكد «ج. برونر» "j.Bruner" أن الطفل في شهوره الأولى يفكر بطريقة مرتبطة بالحدث (مرحلة التنفيذ)، وبعد ذلك يفكر بصورة مستقلة عن الحدث بمعاونة خياله فقط (مرحلة التطابق)؛ ويجد ذكاؤه في الكلمة وسيلة فعالة التطوير والتصرف، وحيث إن «مرحلة اللغة أو الرمز» أكثر تحرراً من القيود المكانية والزمانية فهي تعمل فيما وراء المعطيات الحاضرة والتي يدركها الطفل حسياً.

اللغة والتفكير في تربية الطفل :-

يؤكد «جان بياجيه» "jean piaget" أنه بدون اللغة اللفظية التي تصبغ التفكير بالصبغة الاجتماعية يصبح من المستحيل تصبح ذكاء الطفل بصورة كاملة. فالكلمة المسموعة أو المنطوقة تحفز وتثير الاهتمام وتوقظ المرء وتغري بالفضول وتساعد على تبادل المعلومات وتقابل وجهات النظر ومعرفة التجارب القريبة لكل منا، إن اللعب والعمل مع زميل أو مع مجموعات صغيرة أي وجود الطفل في موقف يساعده على التحدث مع الكبار أو مع أترابه يسهل عليه تعلم اللغة ويشبع رغباته وهو في نفس الوقت يعد طريقا مضمونا لتطوير التفكير واللغة عنده.

من شاهد فيلم «شجرة القباقب» قد يتذكر المشاهد التي كان الجد يقوم فيها بزرع الطماطم التي تباع كبشائر، في ركن سري ومشمس من المزرعة في حضور حفيدته. فالأسئلة الساذجة الصغيرة وإجابات الجد الحكيمة والمحددة لاتمثل فقط نموذجا للعلاقة بين الأجيال ولكنها أيضاً مثال يوضح كيف تفيد الكلمة المواكبة للحدث في الملاحظة التحليلية وفي التفكير المتعمق وفي الازدهار السريع للذكاء.

«الحديث الداخلي» غامض وصمتي وغير متقن «واللغة الخارجية توضحه وتظهره وتتقنه» ولذلك كان قدماء الرومان يحبون تكرار هذه العبارة «من يُعلم يتعلم مرتين» وبالمثل فإن التلميذ الذي يتحاور ويتحدث يتعلم بسهولة كبيرة ويمكننا هنا أن نكتب عبارة عالم اللغة الفرنسي «جورج جالشيت" Gearges Galichet" إذا ما تبنينا اللغة المنطوقة عند الطفل وتبنينا إدراكه من خلال اللغة التي يستخدمها فإننا بذلك نخطو خطوات أكبر من إعطائه نماذج للمحادثة المثالية مع الآخرين :

فنحن بهذه الطريقة نعمل على بناء تفكيره وتساعد على تكوين ملامح شخصيته وإثرائها.

الفصل الخامس

التطور اللغوى فى مرحلة

الطفولة الأولى

أشرنا فى نهاية الجزء الأخير من الفصل الأول إلى العوامل والمراحل الرئيسية للنضج اللغوى. والآن يجدر بنا أن نناقش هذه النقاط بشكل أكثر تحليلاً.

إن علم النفس الذى يهتم بمراحل النمو وخاصة علم النفس اللغوى استطاع، من خلال أبحاث منتظمة ومناقشات حية، أن يجمع ويكون مادة علمية ثرية من النتائج تساعدنا اليوم على فهم وتقييم لغة الطفل بسماتها الخاصة، وتساعدنا أيضاً على دفعها نحو النضج بصورة مميزة وفى الوقت المناسب، كذلك تساعدنا هذه النتائج على معرفة حالات الخلل الطارئة وحالات التأخير الخطيرة، كما تساعدنا على معالجة الحالات الخاصة فى هذا المجال ووضع منهج سليم لها.

وبالرغم من أن هذا الكتاب معد خصيصاً للتربية اللغوية لتلميذ الحضانة والروضة، إلا أنه من الأجدى مناقشة نمو اللغة عند الطفل فى مرحلة الطفولة الأولى وهذا لأسباب عديدة: فمراحل النمو المختلفة ليست منفصلة تماماً عن بعضها البعض ولكن فى كل واحدة منها نلاحظ وجود سمات لفترة سابقة أو فترة قادمة؛ فكثير من تلاميذ الحضانة والروضة غير ناضجين لغوياً، وذلك لأسباب بيئية (بُعد أو لامبالاة الوالدين، عدم وجود إخوة، ندرة استخدام الكلام) فهذا الكتاب إنن قد يفيد الوالدين اللذين لهما أبناء صغار جداً، وكذلك معلمات الروضة وقد ارتضينا أن يكون الحديث عن النضج اللغوى للثلاث سنوات الأولى قاصراً على الأمور الجوهرية نظراً للمحتوى التربوى والتعليمى لهذا الكتاب، وهو مطابق للنتائج المؤكدة التى لاخلاف عليها للابحاث التى أجريت على مستوى دولى فى العشر سنوات الأخيرة.

الإلتقاء بعالم الأصوات :-

إن لفظ "طفولة" يشير من ناحية الدلالة إلى حالة من لايعرف التكلم، ولذلك قد يبدو غريباً للوهلة الأولى أن نؤكد أن التطور اللغوى يبدأ من الميلاد، ولكن هذا التأكيد صحيح تماماً.

إذا كانت الكلمة مرتبطة بالتفكير (إشارة تحمل معنى) فإنه لايمكن الجزم بأن الطفل يستخدم اللغة المنطوقة إلا عندما يفلح فى إطلاق مجموعة من الأصوات المختصرة : مثلاً عندما يسمع أو ينطق، وهو يبلغ من العمر عاماً، كلمات مثل ماما أو مثل حذاء، فهو يدرك أن الأمر يتعلق بالمرأة التيا نجبته أو بحذائه.

ومع ذلك فإن الشهور التى تسبق هذه المرحلة، ونعنى بها مرحلة ما قبل النطق، تعد هامة جداً لتعلم اللغة، فكما أن الألعاب والحركات التى يقوم بها الطفل فى شهوره الأولى عن غير وعى أو إدراك مع الآخرين تعد ضرورية حتى يتسنى له القدرة على المشى واستخدام يديه، فإن التقاءه بعالم الضوضاء والأصوات المسموعة أو التى يصدرها يعد لاغنى عنه لاستخدام الطفل للكلمة فيما بعد.

فالطفل المولود حديثاً يصدر بصورة لاشعورية أصواتا مختلفة (الصراخ – البكاء المتواصل)، كذلك تتغير ملامح وجهه ليعبر عن آلام جسدية أو توترات انفعالية أو حالات عاطفية، فالصراخ وسيلة الاتصال الصوتية الأولى وهى غير محددة فى صورة ألفاظ، وتوجه إلى جماعة غير محددة لاشباع رغبة عند الطفل.

والمرحلة الثانية هى مرحلة النداء أو الإشارة عندما يتجه الطفل إلى شخصية محددة للحصول على مساعدة اعتماداً على تجاربه الإيجابية السابقة.

عندما يبكى الطفل تسرع الأم إليه، إذن هذا يعنى أن يبدأ الطفل فى البكاء إذا أراد أمه بجواره «ويشعر الطفل فى وقت مبكر بالأثر الذى يمكن أن يحدثه كل نوع من الأصوات التى يصدرها، ومن الواضح أن هذه المرحلة تعد مرحلة محاولة التكلم ولكن ليس لها علاقة باللغة الحقيقية الفعلية : فهذه الأصوات التى يصدرها الطفل ليست إشارات للغة منطوقة ولكنها أصوات يمكن مقارنتها بأصوات الحيوانات عندما تتصل بعضها ببعض».

إن الأصوات المتنوعة التى يصدرها الطفل ما هى إلا لعبة حركية محبوبة بالنسبة له حيث إنها توجد أيضاً عند الرضع الصم، ومن الواضح أن هذه اللعبة تساعد بصورة كبيرة جداً على نمو الجهازين الصوتى والتنفسى؛ ويتحمس أداء هذه اللعبة بالتدريج عند الأطفال الذين يسمعون والذين يتمتعون بالاستماع وبتعديل الأصوات التى يصدرونها بينما تختفى هذه اللعبة عند الأطفال الصم بعد قليل.

في البداية تكون التمتمة عشوائيا يغلب عليه الطابع العضلي، وبعد ذلك تصبح لعبة حسية يستمتع فيها الصغير بإصدار واستماع أصوات متنوعة بما فيها الأصوات التي لاتنتمي إلى اللغة الشفهية في بيئته، فالطفل في هذه المرحلة يعد معلماً لايكف عن التحدث لنفسه.

وقد دفع هذا بعض الباحثين إلى التأكيد بأن الإنسان في شهوره الأولى يصدر بصورة فطرية كل الأصوات التي يمكن أن نجدها في كل لغات العالم إذا ما استبعدنا بعد ذلك تلك الأصوات التي تنتمي للغته الأم، وهذا التأكيد صحيح في جزء منه، فالأطفال المولودون بنمو كامل أو غير كامل لا يعرفون في البداية كيفية نطق الحروف مثل «ح» في كلمة «محمود» وكذلك «ط» في كلمة «مصطفى»، بينما لانجد تأكيداً عملياً يثبت الرأى القائل بأن كل طفل في الشهور الأولى من حياته يصدر بطريقة تلقائية أى صوت من اللغات المنطوقة في كل أرجاء العالم.

إن تفريد الطفل يقدم بلاشك تنوعاً وثراء كبيراً، فهو من جانب يؤكد أن كل طفل مولود حديثاً لديه الأستعداد للتعلم اللغوى، ومن جانب آخر يبرهن على أن كل طفل ، مهما كانت الجنسية التي ينتمي إليها، يكون قادراً على تعلم لغةالبيئة التي يعيش فيها، وبعد عدة شهور يتوقف الطفل عن إصدار هذه الأصوات العديدة المتنوعة إذ أنه يصبح منتبهاً للغة المنطوقة التي يتحدثها من حوله ومع مرور الوقت يتعلم الطفل تدريجيا استخدام الأصوات التي يصدرها الآخرون ويتعلم الطفل التمييز بين هذه الأصوات ليس فقط من حيث الإلقاء ولكن أيضاً من حيث الفروق الصوتية التي توجد بينها.

وكما هو معروف فإن ما يفقده الطفل من حيث كمية الأصوات التي يصدرها، يجد عوضاً عنها في كيفيتها وتبدو للطفل واضحة ومتميزة بعض الأصوات التي يصدرها البالغون.

وعندما ينجح الطفل في التمييز بين هذه الأصوات يحاول إبدال النطق العفوى الذى يصدره في التمتمة المتواصلة بنطق الأصوات التي يرغبها، وهذا يفسر لنا حالات الارتباك والصمت التي تعتريه والتي يخرج منها بعد ذلك قادراً على تجميع أصوات بلا أخطاء وإلقائها بصورة محددة تجعل من يسمعه يفهم مايريده، ومن المحتمل أنه في مرحلة التطور اللغوى هذه يظهر التباين بين الأطفال الذين يتمتعون بحاسة السمع والأطفال الصم البكم.

إن احتكاك الطفل بعالم الأصوات التى يصدرها الآخرون يبدأ من الميلاد فصوت الأم يعطى المولود الهدوء والاطمئنان عندما يعبر عن الحب والحنان، بينما يعانى الطفل ويغضب إذا ما كان صوت الأم جافاً وحاداً.

وبمرور الوقت ومع تجاوز مرحلة الاستماع بالنمو العصبى والعضلى ينتبه الطفل للكلمة ليس فقط كوسيلة للاتصال بين الأفراد، وإنما لما لها من موسيقية (التنغيم - الإيقاع - الصوت - الفروق).

ويتعلم الطفل أن يتجه برأسه نحو مصدر الأصوات والضوضاء، كذلك يتعلم التمييز بين أصوات أفراد أسرته وطريقة إلقائها ويجتهد فى تقليد أصوات الآخرين (ظاهرة الترديد) ويستمتع بشدة إذا قلد الآخرون أصواته التى يصدرها هو.

وكما نرى فإن فى مرحلة ما قبل التكلم يتفاعل معاً إصدار الأصوات واستقبالها وكذلك تتفاعل المظاهر الإيجابية والسلبية لعملية التعلم بصورة كبيرة.

وتذكر دينا فى هذا الشأن تصرف تامر وهو طفل يبلغ من العمر عاماً عندما دخل الأب الغرفة، صاح تامر «با - با - با - » بسرور كبير، وعندما أراد الطفل أن يلهو بمصباح المائدة قالت له أمه «تؤلك» وهى كلمة كان يعرف الطفل أنها تعنى الخطر، عندئذ بدأ يلعب مع أمه لعبته المفضلة : فكان يطلق صوتاً وكانت الأم تردده بصورة مبالغ فيها متظاهرة بأن هذا الصوت يدهشها ويخيفها : وفى كل مرة كان تامر يضحك بشدة ويصدر صوتاً جديداً كى تردده أمه بنفس الطريقة .... كان الطفل يستمتع بذلك جداً وكان ضحكه مؤثراً حتى أن الجميع كانوا يشاركونه ذلك».

وطبقا لرأى «ر. جاكبسون"R. Jakobson" فإنه كقاعدة عامة يتعلم الطفل نطق الحرف المتحرك المفتوح "a" والحروف الساكنة التى تنطق بالشفاه "p" و"b" وبعد ذلك ينطق الحرف المتحرك المغلق "i" والحرف الساكن الأنفى "m" ولذا يحب الطفل ترديد المقاطع"ba" و "ma" و "pi" ثم ينطق بعد ذلك المفردات التى لها معنى عند أفراد الأسرة مثل "pipi" و "mama" و"pa pa" وبعد ذلك تأتى فى وقت متأخر نسبيا المقاطع"pe" و "pu" و "ta" والكلمات (- tata - pupu - pepe) .

ووفقا لرأى هذا العالم فإن هذا الأمر قد لوحظ فى كل لغات العالم وهو يحدث طبقاً لقانون «التباين الكبير» والذى على أساسه تبدأ الحروف المتحركة بحرف متحرك مفتوح "a" والحروف الساكنة بحرف ساكن مغلق"b"-"p" وبالتالى ينجح الطفل فى نطق كلمتى"papa" و "baba" ونلاحظ بعد ذلك التباين بين نطق الحرفين الساكنين الأنفى"m" وحرف "t" الذى ينطق عن طريق الأسنان، وكذلك التباين بين الحروف المتحركة مثل نطق الحرف المتحرك المغلق "i" والحرف المتحرك نصف المغلق "e" وفى البداية ينطق الطفل حروفا ومقاطع و«كلمات» كلعبة حسية – حركية وهذا الأمر يطور جهازه الصوتى والتنفسى ويطور لديه القدرة على التمييز السمعى، ونتيجة لذلك يدرك الطفل أن إصداره لبعض الأصوات يثير رد فعل عند الكبار ويرضى احتياجاته، وبالمثل يتعلم الطفل أن يلتفت بصورة خاصة ومرضية نحو الأصوات التى يصدرها من حوله، ويصدر الصغير أصواته كنداء أو إشارات بسيطة، ويدرك الطفل بعد ذلك أن هناك علاقة بين سلسلة من الأصوات وأحداث معينة (وجود أو عدم وجود شخص أو شئ، إرضاء أو عدم إرضاء احتياجاته، العلاقات السلبية أو الإيجابية بين الأفراد)

فقد ظهر "الحيوان الرمزى" بوضوح بداخله كما يقول كاسيليه Cassiler

مرحلة ماقبل اللغة :-

كما ذكرنا سابقاً أن الطفل الذى يتراوح عمره من ٧ إلى ٩ أشهر يقول كلمات «بابا»، «ماما»، «تاتا»، وهذه الحالة تدفع الأسرة إلى لاعتقاد بأن الطفل يعرف الكلام وأنه بذلك قد نضج فى وقت مبكر. على العكس فإصدار هذه الأصوات ماهو إلا كلمات يصدرها أمثاله وليست ميزة خاصة به.

وهناك بالفعل لغة شفهية عندما يقر الإنسان علاقة بين «موقف» مثل (الأرز، الناضج على المائدة) و«صوت» مثل (الغذاء معد) فمن يطلق الجملة القصيرة يقوم بعملية «تقنين» لها ومن يستقبلها يفسر هذه الرسالة الشفهية.

وبالنسبة للطفل المقبل على عالم الكلمة العجيب يكون «الموقف» و«الصوت» فى البداية مبهمين تماماً وغير واضحين، ومع الوقت تنمو لديه القدرة على تمييز بعض الأمور مع تكرار التجربة وتكرار سلسلة من الأصوات المحددة فى الحوار الصوتى الواسع، كما تنمو لديه أيضاً القدرة على الربط بينها عقلياً، فالملاحظات اليومية البسيطة، وكذلك الأبحاث العديدة

التى أجريت تؤكد لنا أن الطفل فى البداية يتعلم فهم معنى حديث الآخرين ثم ينجح بعد ذلك فى وإلقاء كلمات وجمل ذات معنى.

بهذا يكون الطفل قد دخل فى مرحلة «ماقبل اللغة» وهى تبدأ كما يؤكد ج.فرانشسكاتو"G. Francescato" – عند نطق الطفل وتعلمه للوحدات الصوتية التى تحمل معنىً محدداً أى أن العملية التعليمية – من هذه اللحظة – توضح بصورة أكبر الوحدات الصوتية التى يُحصلها الطفل، وكذلك تمثل مزيدا من الدقة بالنسبة للمعنى المتعلق بها. وبهذه الطريقة يشكل الطفل أول نظام لغوى بسيط له يتسم فى البداية بأنه نظام سلبى – حيث يفهم ولكنه لايستعمل مايفهمه – مكون من مجموعات صوتية متباينة الأطوال ... هذا النظام الابتدائى يكون القاعدة الأولى التى ينطلق الطفل منها نحو قدرتين أخريين تساعدانه على تطوير لغته : الأولى هى الانتقال من الجانب السلبى إلى الجانب الإيجابى، والثانية هى بناء نظم لغوية أكثر تعقيدا».

إن الإلقاء ووضع علامات النطق والتوافق ييسر عملية الفهم حتى أن علماء اللغة يتحدثون عن أثر «التون» فى ذلك، فالطفل فى عمر ١٠ – ١٢ شهراً يصبح قادراً على فهم ونطق الكلمات بصورة واضحة على أساس الأصوات الفردية (الفونيمات)، فهو على هذا الأساسى لايخلط بين كلمة"بابا" و كلمة «ماما» لأنه يفرق بينها من خلال الأصوات الساكنة «ب» و «م»، وبالمثل يميز بين كلمة «بابا» و «بوبى»، فالحروف التى كان الطفل، فى الأشهر الأولى، يطلقها أو يسمعها كلعبة أو كعلاقة على النطق تصبح بمرور الوقت فونيمات، أى وحدات صوتية صغيرة، عند دخولها فى كلمات تيسر فهم المعنى مثل : بوجى – طمطم، فالطفل عندئذ يكون قادراً على استخدام هذه الوحدات الصوتية (الفونيمات) باقتدار واطمئنان، ولكن هذا لايعنى أن ينطق، بصورة مفردة –الأصوات البسيطة التى تكون لغة الكبار فى بيئته، فهو يصدر سلسلة من الأصوات قد تكون أحياناً مشوهة بسبب عدم النضج النسبى لجهازه الصوتى فينطق مثلاً «لاديو» بدلاً من «راديو» ، وينطق بصورة نادرة حروفا متحركة وساكنة منفصلة عن بعضها البعض، فالوحدات الصوتية (الفونيمات) التى لا يستوعبها الطفل جيداً يتعلمها فى وقت لاحق، بينما يجذب انتباهه الأجزاء الرنانة من الكلمات مثل «سا» فى كلمة «ساعة» و «تا» فى كلمة «شوكولاتة».

وفى مرحلة ماقبل اللغة، كما هو طبيعى، يصدر الطفل أيضاً أصواتا كان يصدرها فى الأشهر السابقة، فالضحك والبكاء والتمتمة أحياناً يستخدمها الطفل كإشارات تحل محل «الكلمات» ثم تصبح بعد ذلك لغات خاصة، وإشارات للتعجب تكمل اللغة اللفظية. فالعلاقة بين سلسلة الأصوات التى يصدرها الطفل وخبرته ليست دائماً محكمة ومتلاصقة حتى أن بعض الباحثين يلاحظون فى هذه المرحلة الانتقالية وجود بعض الفونيمات فيصنفونها فى الوسط بين الإشارات الصوتية والإشارات اللغوية الفعلية.

استخدام الكلمات :-

يتفق أغلب الباحثين على أنه فى الشهر الثانى عشر تقريباً يبدأ الطفل فى استخدام الكلمة لأول مرة بصورة صحيحة، ويكرر الطفل الكلمة لتحاشى الالتباس وهو يصل إلى هذا المستوى اللغوى عندما يكون هناك ارتباط وثيق بين الموقف وسلسلة الأصوات وعندما تكون هذه العلاقة خاصة ومتلاصقة وعندما يتخذ لغة الكبار كنموذج له.

ومن المعروف أن الطفل فى عمر عام يضيف إلى الكلمات معانى نوعية، رغم قدرته على التمييز بشكل طيب بين الأشخاص والأشياء والمواقف التى تعد ذات معنى بالنسبة له. وبالتالى ليس هناك ما يثير الدهشة إذا نادى طفل يتراوح عمره ما بين ١٢ - ١٤ شهراً والده بـ «ماما» أو إذا استخدم الأسماء لتحل محل الأفعال.

فى مرحلة الطفولة الأولى تكون المفردات السلبية أكثر ثراء من الإيجابية إذ أن الطفل يدرك؛ معنى الألفاظ التى لايستطيع أن ينطقها، وبوجه عام، فإن خبرته تصبح أكبر بقدر استيعابه واستخدامه للكلمة، وكما كتب البعض فإن الأطفال لهم أذن كبيرة».

إن اكتشاف الطفل لأسماء الأشخاص والأشياء والأفعال يمثل بالنسبة له سعادة بالغة ويساهم فى سرعة تقدمه العقلى وهذا ما يفسر عبارة «تعطشه للأسماء» ويفسر كذلك السؤال الملح الذى يوجهه للكبار «ماهذا؟».

وتؤكد لنا الإحصائيات التى توصل إليها بعض الباحثين هذا الأمر وفقاً لإحصائية س.و. سترن "c.w.stern" فإن الطفل البالغ ١٨ شهراً يعرف ١٠٠ كلمة، والبالغ عامين يعرف ٣٠٠ - ٤٠٠ كلمة، والبالغ ٣ أعوام يعرف حوالى ١٠٠٠ كلمة، ووفقاً لإحصائية «أ.ديسكويدرس "A . Descoeudres" فإن الطفل البالغ ٢١ شهراً يعرف ١٧٤ لفظاً، والبالغ ٣٢ شهراً يعرف ٦٣٩ والبالغ ٤٦ شهراً يعرف ١٣٩٤ لفظاً.

فالكلمة توحد تجارب الطفل العديدة (مثل كلمة «كرسي» على سبيل المثال)، وتساعد الكلمة كذلك على التصنيف والتمييز. فكما أن حب الطفل للكلمة الموسيقية يدفعه إلى تقليد الأصوات التي يصدرها الآخرون في طفولته الأولى، فإنه يهتم أيضاً في المرحلة التالية عليها بالكلمة التي تحمل معنى، وهذا يدفعه إلى تكرار الكلمات المستخدمة في بيئته، وأيضاً التي لايفهم معناها، وكذلك إلى استخدام الكلمات، التي تعلمها على غرار الكلمات السابقة، فبير جورج، على سبيل المثال، طفل يبلغ من العمر عامين، صاح"caallo" عندما رأى أرنبا (coniglio) لأول مرة في حياته ربما لأنه يتذكر الأذن الطويلة للحصان"cavallo" الذي كان يراه دائماً في مزرعة خاله.

ويكتشف الصغار في وقت متأخر نسبياً أن الكلمات الكلمات "إشارات ثابتة" فيعتقدون أنها سمة أساسية للأشياء، وربما أيضاً لهذا السبب يستخدمون بارتياح كلمات صوتية، وهي التي يدل نطقها على معناها، لتحديد الأشياء مثل (بخ - بخ، بع بع، مَوْ - مَوْ، نَوْ-نَوْ) ويفرح الأطفال عندما يشرح الكبار بصورة مماثلة بعض الحركات("بوم" للإشارة إلى سقوط شئ "تاك - تاك" للإشارة إلى قرع طبلة).

وبالنسبة للسؤال عما إذا كان من الممكن إحلال اسم شئ محل آخر كأن نقول مثلاً على "البقرة" "حبْر" وأن نقول على "الحبر" "بقرة"، يجيب الأطفال على هذا السؤال بأنه غير ممكن لأن الخبر نكتب به بينما البقرة تعطينا اللبن.

إن انتقال الاسم من شئ لآخر يعني انتقال سمات هذا الشئ التي لاتنسلخ عنه ووفقاً لعقلية الأطفال فإن الأشياء تحمل سماتها من أسمائها ...

هذه الظاهرة يمكن أن نقابلها أيضاً عند أشخاص ذوي معرفة لغوية بدائية، ويشير "همبولدت "Humboldt" إلى واقعة حدثت حين يحكي لنا عن شخص ساذج أو حوار مع بعض علماء الفلك وجه إليهم هذا السؤال " أنا أستطيع أن أفهم أنه من خلال هذه الآلات المتنوعة نجح الإنسان في تحديد المسافة بين الأرض والنجوم البعيدة وفي معرفة مواقعها وحركتها. ولكن أود أن أفهم كيف عرف العلماء أسماء هذه النجوم ! "لقد كان يظن أن هذه الأسماء قد جاءت من النجوم نفسها ".

إن الاسم يعنى فى البداية بالنسبة للطفل شخص أو شيئا خاصا به (أمه - غرفته-دراجته)، بعد ذلك يعنى بعض الأشخاص أو الأشياء، وأخيراً يستخدم الاسم للدلالة على كل الأمهات، وكل الغرف وكل الدراجات، وفى هذا الشأن يشير جان بياجيه "Piaget" إلى تجربة شخصية شيقة وذات معنى: لوتشانا، البنة التى كانت تبلغ من العمر ٢٩ شهراً، كانت تشاهد صورة لأختها الأكبر جاكومينا، التى كانت قد أخذت هذه الصورة قبل ذلك بعدة أعوام، فى البداية لم تعرف لوتشانا الصورة ثم صاحت !" إنها كومينا عندما كانت لوتشانا".

لوتشانا" إذن لفظ مزدوج : يحدد شخصية واحدة وفى نفس الوقت الأطفال الصغار جميعاً. وهذا هو المعادل الشفوى لما يعرف بـ "المفهوم التحتى" والذى لاترى منه تعميما أو تحديدا.

إن مدى تطور التعليم اللغوى يمكن متابعته أيضاً من استخدام الطفل لنوعية معينة من الكلمات ففى البداية يلجأ الطفل إلى كلمات ذات معنى كبير: أسماء، صفات، أفعال، وفى وقت متأخر يستخدم الكلمات التى لها وظيفة نحوية: أدوات تعريف، حروف جر، وبالمثل يختار من جملة كاملة الأجزاء ذات المعنى بالنسبة له (مثل لفظ "الحساء" فى الجملة : "أمى تضع الحساء على النار لتسخينه").

وهذه النقطة الأخيرة كانت ولاتزال موضع بحث ومناقشات، ويرى بعض الباحثين أن هذه الكلمات المفردة تعد ذات معنى إجمالى أى أنها تقوم بوظيفة جملة كاملة يختفى تحتها باقى عناصر الجملة. ويرى الباحثون المحدثون أن "الكلمة المفردة" لاتعادل جملة كاملة، ولكنها لفظ "يحمل فكرة، كافية لاتصال الطفل الشفوى حيث إن الطفل يكمل مضمون هذه الكلمة بالإشارة والحركة والإلقاء.

"فالكلمات المرتبة" ("ماما حذاء" - ماما أخذت حذائى"- بابا ذهب - بابا خرج من المنزل ليذهب إلى العمل") يمكن أن تعد جملاً لأن الطفل يفكر بوضوح فى العلاقة المنطقية بين الفاعل والمفعول وبين الفاعل والفعل، ولأن الطفل يحترم أيضاً التأنيث والتذكير مثل (ماما جميلة - بابا شرير).

يمكن التأكد إذن بأنه عند هذا المستوى من النضوج اللغوى ينمى الطفل بصورة فعلية مفرداته اللغوية ويحقق بطريقته هذه نظاما صرفيا ونحويا.

ويبدو واضحاً أن الطفل يصل إلى ألفاظ وتراكيب نحوية تطابق فى جزء منها لغة الكبار، فالأخطاء التى نراها فى لغة الأطفال تثبت أنها ثمرة مجهود فرديوليست تقليدا أعمى. وقد وضع طفل عادى يبلغ من العمر ٣ سنوات فى بيئة مشجعة، وقد حقق الطفل إنجازات شفوية رائعة.

ويبرز "ج . فرانشسكاتو"G. Francescato هذا الحدث فيقول : " إن كل واحد منا قادر على تحقيق معجزة مماثلة .. لتعلم لغة أجنبية. ويتميز البالغ فى هذه الحالة بخبرته والنضج الذى اكتسبه مع مرور الوقت، بينما تتأثر تلقائيته بلغته الأم كما يتأثر بتشابه طرق التعلم أو اختلافها، وهذا يؤثر على مدى تفوقه، أما الطفل فقد يفتقد النضج ولكن لديه الإصرار على الاستمرار فى التدريب كما أنه غير متأثر بلغة أخرى إلى جانب الحافز الذى يدفعه إلى تعلم اللغة والذى يجعل تعلم هذه اللغة يحظى بالأولوية أمام أى نشاط آخر له.

الفصل السادس

النمو اللغوى فى مرحلة الطفولة الثانية

إذا أجرينا عملية تقييم للغة الشفهية لطفل فى الثالثة من عمره بمعايير القياس التى نستخدمها لتقييم لغة البالغ قد تكون النتيجة سلبية لأول وهلة. فالطفل يفتقر إلى المفردات اللغوية، علاوة على أنها محددة وثابتة.. فالطفل يسرف فى استخدام ألفاظ مثل : "شئ"، "حيوان"، "يعمل"، "يقول"، وينجح الطفل فى فهم الكلمات والجمل بقدر أكبر من تمكنه من استخدامها، ولكن غالبا ما يفهمها بشكل خاطئ دون أن يساوره أدنى شك، ففى كثير من الأحيان يكون مستوى الطفل لايزال عند مستوى الكلمات المرتبة.

ونتيجة لعدم النضج اللغوى هذا، فإن المعلمات والوالدين قليلاً ما يوجهون للطفل الكلام أو يستمعون له، كما أنهم يفضلون اللغة الحركية والإشارية، وهم بهذه الطريقة يدفعونه وبلاقصد - إلى الإقلال من استخدام الكلمة فى علاقاته مع الكبار أو مع أترابه، ومن الضرورى تقييم وتقدير «النظام اللغوى» لهذه السن بصورة كبيرة إذا ما أردنا بالفعل تسهيل عملية النضج الكامل.

إن الطفل الذى يتراوح عمره بين ٣ و ٤ سنوات تصبح لديه القدرة الإيجابية على التحدث بالرغم من العيوب الصوتية والنحوية، إلا أنه يظهر قدرته على تملكه للغته الأم، فهو يعرف استخدامها لتحقيق أهدافه الضرورية فى حدود احتياجاته وقدرته ... فالطفل لايتصرف بصورة عشوائية، ولكنه منذ البداية وهو يبحث عن قاعدة تتحول مع مرور الوقت إلى قاعدة أكثر دقة وأكثر تلاؤما لقواعد النحو التى يستخدمها الكبار.

وعندما يبلغ الطفل ٦ سنوات يمكننا أن نقول أنه قد أتم تدريبه اللغوى الأساسى.

الإشتياق إلى الكلمات :-

إن الرغبة فى السيطرة ذهنياً على المواقف والأشياء المتعلقة بحياته، والمشاركة بصورة إيجابية فى الحياة الأسرية والمدرسية بما فى ذلك ووفقاً لإحصائية. «أ ديسكودريس» "A. Descoudres" إذا كان الطفل البالغ من العمر ٤٦ شهراً يعرف ١٣٩٤ كلمة، فهو فى الخامسة من عمره يعرف ١٩٥٤ وفى السابعة يعرف ٢٩٠٣ كلمة، ووفقاً

لإحصائية «س، و، سترن» "C. W . Stern" فإن مفردات الطفل البالغ ٣ سنوات تتراوح من ١٠٠٠ إلى ١١٠٠، وتصل فى الرابعة من عمره إلى ١٦٠٠، وفى الخامسة إلى ٢٢٠٠، وفى السادسة تتراوح ما بين ٢٥٠٠، ٣٠٠٠، ويقدم لنا «م نيس» "M. Nice" هذه الإحصائية: ٣ سنوات ١٢٨٨ كلمة، ٤سنوات ١٩٨٤، ٥سنوات ٢٢٢٥: ٦سنوات ٣١٠٣ كلمة.

ويلاحظ أ ت جرسيلد "A. T . Jersild" أن الطفل عندما يتعلم الكلام لايكف عن توجيه الأسئلة، ويسأل الطفل بصفة خاصة لإرضاء فضوله، ولكن هناك أسباب أخرى كثيرة مثل رغبته فى الاحتكاك بالمجتمع، أو جذب انتباه الآخرين، أو الإحساس بالأمان أو الرغبة فى التسلية أو مساعدة الغير له. كما يلجأ الأطفال إلى الأسئلة الملحة كما لو كانوا يريدون إظهار قدرتهم أو كوسيلة للتعبير عن انفعالاتهم، وقد تكون الأسئلة العديدة التى يوجهها الأطفال ما هى إلا رغبة فى الثرثرة دون الرغبة فى الحصول على إجابة فمن الوسائل التى يستخدمها الطفل للتدريب على الكلام هى توجيه الأسئلة».

وتحكى «ماريا مونتسورى "Maria Montessori" فى كتابها «عقل الطفل» (ص١٧٤) أنه فى كوديكنال Kodaikanal كان بعض الفتيان يختلفون على اسم جزء من زهرة وقد ساعدهم طفل يبلغ من العمر ٣ سنوات وأخبرهم باسمها فى سهولة ثم عاد إلى اللعب.

إن الأسباب الانفعالية الفعلية تؤدى إلى نمو المفردات ليس فقط من حيث الكم ولكن من حيث الكيف أيضاً، وكما يؤكد جان بياجيه Jean piaget فإنه فى البداية تقوم الألفاظ بدور «رموز» أكثر من كونها «إشارات» حيث إنها تفتقد المعنى الثابت والمحدد وبالتالى فإن دلالتها الاجتماعية تصبح ضعيفة. ومع مرور الوقت تكتسب الكلمات معنى ثابتاً وعاماً يطابق الأشياء والأفعال (أى تصبح الكلمات هى المعادل الشفهى للمفاهيم) وتفيد بصورة ملائمة فى الاتصال بالآخرين «من عمر الرابعة إلى السابعة تتطور المفاهيم التحتية Infra-concetti حيث تكتسب سمة عامة، وتستقر هذه المفاهيم من خلال الفهم المتقدم لدرجات الأشياء.

إن العلاقة بين تطور بناء المفاهيم واكتسابه لغة الكلام تبدو دائماً علاقة تكيف متبادلة... إن ما يرغم الطفل على وصف المفاهيم بصورة أفضل هو استخدامه للألفاظ المنطوقة والتى يصبح معناها أكثر دقة نتيجة لتجنبه الإخفاق. ونتيجة للتصحيح، الذى تخضع له لغته الشفهية وبالتالى تفكيره، من قبل الآخرين » وبالنسبة للنمو الكمى والكيفى

للألفاظ فإنه يستمر نتيجة لتقدم السن وازدياد الخبرة إذا قام الطفل في وقت واحد بدورين في حياته الحافلة بـ (اللعب – التحرك – البناء – الملاحظة – التفكير) ومن حيث اللغة (بالاستماع والتحدث) فإن تصوراته الذهنية سوف تتحدد بدقة وتصبح مفرداته أكثر ثراء وملاءمة. فالطفل الذي يعيش في المدينة أو الريف والذي ينغمس في هذا "الدور المزدوج" يتعلم كيف يحدد بوضوح أسماء وسائل النقل (تاكسي – لوري– ترام – أتوبيس – قطار) أو أسماء الحيوانات (دجاجة – ديك – بطة – ديك رومي – حصان – بغل – حمار).

إن الشعار الذي يقول «كلما ذات الكلمات ذات الأفكار» يمكن قبوله بشرط أن يتم بصورة صحيحة، فلو أن أحدا ، عندما يتصرف الطفل ويكتشف ويلمس أموراً ويحللها، يحول تجربته إلى ألفاظ شفهية ويقوده إلى القيام بمثل ذلك فإن الكلمة عندئذ سوف تساعده على الصعود من مستوى الفهم الجزئي إلى مستوى التصورات، ومن مستوى "الرموز" إلى مستوى الإرشادات.

ويشير عالم النفس الروسي أ.ر. لوريا "A. R lurija" إلى حالة توأمين عمرهما ٥سنوات وكانا غير ناضجين في أي مظهر من المظاهر سواء من حيث الظروف الاجتماعية أو من حيث كونهما توأمين، وكان الطفلان يقضيان وقتهما في ألعاب بدائية وعملة يحركان وينقلان القطع التي تقدم لهما دون القيام بتركيبها، وكانا يجريان مع أترابهما، ولكنهما لم يعرفا كيف يشاركان في ألعاب المجموعات التي يكون فيها تقسيم للأدوار، ولم يعرفا الرسم أو تكوين نماذج وبعد ١٠ أشهر من التشجيع نجح لوريا في الوصول بهما إلى درجة النضج اللغوي العادي – هو عمل له مغزى كبير جداً – وقد تحول مستوى الطفلين بنفس السرعة من ٣ إلى ٦ سنوات.

بينما تستخدم اللغة اللفظية في السنوات الأولى من الحياة، بصورة مرتبطة بالأشياء والأحداث الواقعية، ففي مرحلة الطفولة الثانية تحل الكلمات (أسماء – صفات – أفعال – ظروف) محل الأشياء والأحداث، وتساعد على تذكر الماضي القريب أو البعيد وعلى التنبؤ بالمستقبل بعيداً كان أو قريباً، وتحث الذكاء التصوري بقوة وتوسع الأفق العقلي للطفل.

إن رد « ج . بياجيه» "J. Piaget" على النقد الموجه له من "فيجوتسكي" "Vygotsky" يساعدنا على فهم ما يحدث في عقل الطفل الذي يستخدم الأسماء «وردة» و«زهرة»، فهو يوضح لنا في جانب من جوانبه تفاعل الكلمة والتفكير في مرحلة الطفولة.

فالطفل فى البداية وفقاً لرأى العالم الروسى يضع اللفظين ثم يطلق هذا التعميم «كل الورود زهور» ويكتشف أن العكس غير صحيح. عندئذ يدرك أن الورود تندرج تحت الزهور. وفقاً لرأى العالم السويسرى ، كما يجب أن يكون تفكير الطفل قادراً على إجراء عملية عكسية حتى يستطيع أن يقوم الطفل بتصور شامل للأمور ، وحتى إن كان يؤكد أن كل الورود زهور وليست كل الزهور ورود، فالطفل فى البداية لايقدر على الوصول إلى القول بأن الزهور أكثر من الورود ، ولكى يصل الطفل إلى شمولية التفكير عليه أن يقوم بهذه العملية:

A (ورود) + A' (زهور مختلفة عن الورود) =B (زهور) ومفهوم أن A = B - A'

إذن A<B فهذه العملية العكسية ضرورية لشمولية التفكير".

وإذا كان من المؤكد أن المفردات التى يستخدمها الطفل تصبح مع مرور الوقت أكثر تلاؤما، فقد لوحظ أن الطفل «يخترع» مفردات وتعبيرات بشكل غريب أو يستخدم الكلمات العادية بمعنى خاص، كما لو كان مدفوعاً بحماس إبداعى لايمكن السيطرة عليه، بير جورج على سبيل المثال، كان يشاهد الجبال التى تزين مدينة، وربما تذكر الأحجار الأسفنجية لمغارة صناعية يعرفها جيداً، فصاح قائلاً «انظر جبال المغارة» . ويحدثنا عالم النفس اللغوى "A. Gregoire" جرجوار عن حالة الابن الذى خلع ملابسه ليذهب إلى فراشه فلاحظ أن إحدى قدميه عارية من الجوارب، ولأن صور الإنسان الأول عالقة بذهنه، قال «لدى قدم بدائية وأخرى متحضرة»

وكما نرى فالطفل يحب اللعب بالألفاظ ويجد متعة فى الاستماع أو اختراع كل ما هو غريب، ولذلك تروقه كثيراً القصص الغريبة والسجع والكلمات الرنانة وأغانى النوم. فى مرحلة الطفولة الأولى تكون التمتمه فى البداية لعبة حركية ثم تتحول بعد ذلك إلى لعبة حس حركية، أما الآن فالمادة الصوتية التى يمتلكها الطفل تعد أكثر ثراء وصلاحية، فالخيال والذكاء يزدهران وبالتالى فإن الاختراع الشفهى ينطلق فى أشكال عديدة.

إذا كان الطفل يسعد بالكلمة الموسيقية فى مرحلة الطفولة الأولى كما فى المرحلة الثانية، فإن الواقعية الشفهية أى الاقتناع الطبيعى بأن الكلمات سمة أساسية للأشياء والأشخاص يبدأ فى الظهور بعد سن الثالثة، ونبرهن على ذلك بمثال غريب، كلارا، التى كانت تعيش مع أسرتها حيث كانت تتحدث اللهجة العامية، سمعت ذات يوم من معلمة الحضانة أن هناك فاكهه يجب أن تسمى "Mela" (تفاح) وليست "Pomm" ، وهو نفس

الفاكهة ولكن باللهجة العامية، وعندما عادت كلارا إلى المنزل أخذت واحدة من التفاح وألقتها على الأرض بشدة قائلة لها : أنت "pomm" ولست "Mela" .

الإختراع اللغوى والنحو :-

إن الأصوات التى يصدرها الطفل تنتج عن الاختراع الشخصى من جانبه، ومن الجانب الآخر تتلاءم تدريجياً مع لغة الكبار، فالطفل وهو فى مراحله الأولى يصدر كل أنواع الأصوات كنوع من اللعب، ومع مرور الوقت يقتصر على نطق مايستخدم فى بيئته، وفى الأشهر التالية يستخدم سلسلة من الأصوات - معاً - "إشارات" "كلمات"، ويعطى للألفاظ الشفهية معنى نوعياً ولكن بعد ذلك يتعلم كيف يستخدمها باقتدار، وبالمثل فى مروره إلى مرحلة الطفولة الثانية تنمو لديه القدرة فى اتباع قواعد النحو كتوافق الاسم والصفة وتكوين الجمع والمؤنث وتصريف الأفعال ويتعلم الطفل كيف يستخدم بصورة جيدة القواعد الصرفية من خلال خبرته حتى أنه ينجح على سبيل المثال فى تكوين جمع الأسماء المنكرة والمؤنثة وفى النهاية يكون الجمع الشاذ لبعض الأسماء المنكرة والمؤنثة.

ونظراً لأنه يستفيد من التشابه، فقد يصطدم بالحالات الاستثنائية، ولذلك يخطئ فى نطق بعض الكلمات قياساً على أخرى، فيمر الطفل بمرحلة تصحيح الكلمات الخاطئة، وذلك عند مواجهته للنموذج اللغوى الذى يتحدث به الكبار والذى من خلاله يلتزم بنطق الحالات الاستثنائية نطقاً سليماً. ويرى "ج" فرانشسكاتو " G.Francescato" أن الطفل عند قترابه من مستوى القواعد، ينخرط فى معرفة الأمور الصرفية والنحوية المتعلقة بلغته الأم وذلك من خلال عمليتين : تعلم واستخدام "وحدات الكلام فى الحديث" (أى الكلمة أو مجموعة الكلمات التى تعلمها وينكرها كما لو كانت وحدة واحدة)، واستخدام المقربات من خلال التشابه. فالتراكيب اللغوية التى يتعلمها يمكن أن تتعدد عن طريق إبدال عنصر بآخر، كما تستقر لدى الطفل بفضل عمليات المراجعة العادية، متابعة وتصحيح الكبار، وكذلك التجارب والتمرينات التى يقوم بها الطفل نفسه .... ويصحح الطفل الحالات الخاطئة واحدة تلو الأخرى، كتراكيب خاصة، ولايمكن نطقها قياساً على التشابه مع أخرى. (أيضا فى هذه الحالة قد نسمع تراكيب ينطقها الطفل قياساً على التشابه، ولكن يرفضها على التوازن لأنه لايجد لها معنى عند الكبار) ".

ولكى نفسر هذا الأمر يمكن الاستفادة من رأى بياجيه "Piaget". يرى هذا العالم

أن الذكاء هو الجانب الأكثر رقيا ومرونة لتكيف الإنسان مع البيئة، وهذا التكيف يظهر – منذ المراحل الأولى – كتوازن غير مستقر لعمليتين : «الاستيعاب» و«الاستقرار».

وطبقاً للاستيعاب فكل جديد يوضع فى قوالب عقلية موجودة مسبقاً فى الطفل وبعد استقراره فإن المعلومات الجديدة تُعدل فى هذه القوالب وبالتالى يتجنب الطفل الخطأ الذى كان يكرره ويلتزم بالصحيح الذى يسمعه من الكبار.

«فى تطور اللغة اللفظية تتغير بصورة سريعة عمليات الاستيعاب والاستقراء فالاستخدام الخاطئ لأى لفظ قد يعد استيعابا « لاسم أشياء (أفعال .. سمات أو مواقف بصفة عامة) لا يناسبها الاسم. كما أن تجربة الفشل فى التفاهم مع الآخرين والتى تعقب هذا الاستخدام الخاطئ للفظ من الألفاظ تثير فيه الرغبة فى الاستقرار» أى ضبط معنى اللفظ. وهذا التفاعل بين العمليتين هو الذى يساعد على ملاءمة لغته الشخصية للغة المجتمع وبالتالى إلى التلاؤم مع الواقع الذى يصفه».

وكما سنرى فى الفصول القادمة، فإن من الضرورى تيسير وتوجيه «التكيف» اللفظى عند الطفل بدقة وثبات مع تجنب المثالية التى يتحدث بها الكبار، وفى نفس الوقت تجنب التحلل الذى يرتكبه الكسلة والسطحيون، فإذا كان الطفل لديه إمكانية اللعب، البناء، الاكتشاف، ويعيش فى بيئة مشجعة لغوياً، فإنه ينجح فى فهم واستخدام ظرف المكان : فوق – تحت – أمام – خلف – داخل – خارج . وينجح الطفل ببطء وصعوبة كبيرة – كما هو معروف – فى فهم ظرف الزمان (الآن – قبل – بعد – أمس – غداً) وفى استخدام الألفاظ الشفهية المماثلة لها باقتدار، فالأشياء الدالة على علاقة مكانية (الدمية فوق المائدة – البسكوت فى الحقيبة) غالباً ما تكون مدركة حسياً وفى نفس الوقت حاضرة لدى الطفل وبالتالى تكفى جملة واحدة لتوضيح هذه العلاقة. أما الماضى والمستقبل وإن كانا قريبين (هذا الصباح – هذا المساء) لايمكن التفكير فيهما إلا بالذكاء التصورى أى القدرة على التذكر أو التوقع بوضوح وترتيب زمنى : وهذا يفسر لنا بعض الأخطاء المضحكة التى يرتكبها الصغار مثل «بالأمس سأذهب عند جدتى»، «غداً رأيت عصفوراً»، مثل هذه الأخطاء يتخلص منها الصغار مع مرور الوقت إذا ماقام الكبار بتصحيحها بصورة اعتيادية مع توضيح الاختلافات الزمنية.

ومن المظاهر التى تدل على النضج اللغوى فى مرحلة الطفولة الثانية هو إتمام الطفل للجمل الطويلة التى ينطقها وإجازة الربط بينها . فإذا كانت القدرة الفردية والبيئة طبيعيين

أو أعلى من المعدل الطبيعي، فإن الجمل تصبح مناسبة دائماً ومشابهة للغة الكبار: مثل وجود الفاعل والفعل والمفعول به، استخدام أدوات التعريف وحروف الجر واستخدام الصفات والظرف.

والفرق الذى يوجد بين هذه اللغة ولغة الكبار (الأدبية) يكمن فى علاقة الجمل بعضها ببعض عند الطفل، فهى فى لغة الطفل مرتبة ومعطوفة بأدوات الربط «و»، «بعد ذلك» بينما لانجد علاقة التابعية بين الجمل التي تعبر عنها هذه الروابط «بالرغم من»، «كى»، أو ضمائر الوصل مثل «التي فيها»، وهكذا .. فحديث الطفل عادة ما يكون عبارة عن جمل معطوفة أى مرتبة وقد تحتوى على ضمائر الوصل ولكن «التركيب محدد»،والجمل الآتية تعطى لنا مثالاً على ذلك أنا عندى كلب ضخم يعض الناس» أو«عندى الكلب الضخم الذى يعض الناس» فالطفل لايقدر على استخدام التراكيب المعقدة مثل «نظراً لأن كلبى يعض الناس فقد بعته»، فالتراكيب المعقدة قليلة الاستخدام من الكبار عند التحدث عنه عند الكتاب أو عند إلقاء حديث دون توقع أو على غير علم حيث إنهم يذهبون ضد الاتجاة الطبيعى عند ختام الجملة، وهذا النوع من التركيب النحوى لايستخدمه الأطفال لأنه من ناحية يحتاج لقدرة كبيرة على «التخزين المؤقت» كما أنه يتطلب نشاطاً ذهنياً كبيراً يستطيع أن يمحو ذهنياً نتائج حدث سابق (كلبى كان يعض) ليكون أخرى (بعت كلبى).

مركزية الذات اللفظية :-

إذا كانت الكلمة تعبر عن الفرد بصورة كلية وترتبط بوجه خاص بالتفكير، فإن اللغة الشفهية تحمل سمات عامة لنفسية الطفل . فالمظاهر الثلاثة للأنانية (العاطفى – النكائى – اللغوى) ترتبط وتتفاعل بعضها ببعض.

فى بداية مرحلة الطفولة الثانية، يدعى الطفل عادة أنه يملك والديه والأشياء، وأن المساحات كلها تحت إمرته بصفة خاصة، علاوة على أنه يجهل احتياجات وحقوق الآخرين (مركزية الذات اللفظية) ، ويعتقد بسذاجة أن الواقع يُفهم من الآخرين كما يفهمه هو، حيث إنه لايعرف الدخول فى أمور الآخرين، كما أنه لايقدر على إبعاد المركزية عن رأيه (الأنانية العقلية) وعندما يتحدث للآخرين لايهتم باستخدام الألفاظ الملائمة أو الجمل الكاملة، ولايهتم إذا كان كلامه مفهوماً أم لا، هكذا كما هو الحال عندما ما يتظاهر بأنه يفهم بعمق أحاديث الآخرين ولذا يطلب منهم إيضاحاً (مركزية الذات اللفظية).

إن حوارات وأحاديث الأطفال متشابهة في الظاهر وهي في الواقع «أحاديث ذاتية متساوية» أو «أحاديث ذاتية جماعية» والآخرون (الكبار أو الأتراب) ليسوا بالفعل متحدثين وإنما هم «فرصة» لاشباع رغبتهم في التكلم أو الاستماع . وهذه الظاهرة التي نجدها بصورة معتادة لدى الصغار، لا تجد صداها، للأسف، بين الكبار، الذين يكونون غير قادرين على تفهم وفهم الطفل. إن عدم القدرة على التفاهم مع الآخرين، كما نعلم، ليس اختراع المتشائمين.

الوالدان، والمعلمات في الحضانة والروضة، والإخوة الكبار عادةً ماينجحون في فهم أحاديث الطفل حتى وإن كانت غير دقيقة، غير مكتملة ومفككة، وهذا أمر إيجابي إذ أنه يشعر الطفل بالرضا لكونه مفهوماً من الآخرين، إلا أن لهذا الأمر يعد جانبا سلبيا حيث يساعده ذلك على الكسل اللغوي ولايشجعه على تجاوز مركزية الذات، وعلى العكس، فإن الطفل الذي يعيش بصورة مستمرة مع أترابه، غير القادرين مثله على التخلص من المركزية اللغوية، فإنه مرغم على استخدام ألفاظ أكثر دقة، وجمل مكتملة نسبياً، وأحاديث مرتبطة ببعضها البعض، فكما نقول «عندما نخطئ نتعلم»، فإن الفشل في التحدث الشفهي قد يساعد في الإسراع بعملية النضج اللغوي (وبلاشك النضج العقلي). إن استخدام الطفل للضمائر الشخصية وصفات الملكية الخاصة به في مرحلة الطفولة الثانية يؤكد من جانب مركزية الذات اللغوية ومن جانب آخر يؤكد إمكانية تجاوزها عندما تتوفر العوامل البيئية المساعدة على ذلك.

ويعرض «أ . ت جيرسيلد» "A. T.Jesrsild" في هذا الشأن جدولَ تقييم للأطفال في مرحلة الطفولة المبكرة في مجال استخدام الضمائر الشخصية وصفات الملكية فإن الكلمات «أنا»، «لي» و «ملكي» تمثل ٦٨ ٪ من كلام الطفل البالغ ٢٢ شهراً، وفي عمر ٣٩ شهراً تمثل ٦٠ ٪، وفي عمر ٤٥ شهراً تمثل ٥٠ ٪، وترتفع الكلمات «أنت»، و «ملكك» من ٤ ٪ إلى ١٨ ٪ ثم إلى ٢١ ٪، أما الكلمات «نحن» و «ملكنا» تشير إلى هذه النسب المئوية ٤ -٤ ٨، أما الضمائر «هو»، «هي» و «هم» فترتفع من ١٨ ٪ إلى ٢١ ٪، ويعلق عالم النفس الأمريكي قائلاً عندما يبدأ الطفل في الكلام فإن نموه اللغوي يعكس العملية العقلية لديه وكذلك اتجاهه نحو العالم المادي والاجتماعي الذي يعيش فيه، وعندما يبدأ في استخدام الضمائر فإن

الضمير «أنا» يسيطر بكل صوره العديدة على كلامه حيث إن استخدام الضمير «أنا» يكون أكثر شيوعاً لدى الطفل عنه بالنسبة للضمائر الأخرى منذ الطفولة الأولى، ويستمر كذلك فى مرحلة ماقبل المدرسة (وأيضاً بعدها)، ومع مرور الوقت وينمو الطفل فى مرحلة ما قبل المدرسة يزداد أيضاً استخدام الضمائر «نحن»، «أنتم»، «هى» و«هو».

وفى السادسة من عمره عادة مايكون الطفل قد اكتسب قدرة لغوية وفردية كبيرة وذلك من خلال التجارب العديدة التى مربها، وكذلك القدرة على الاستفادة منها فى التحكم فى عناصره اللغوية، وتصبح «الأساليب» الشفهية لديه منذ الميلاد ومابعد ذلك أكثر ثراء وتعقيداً، وتقترب من الأسلوب النموذجى الذى تقوم عليه «اللغة» التى يتحدثها الجميع.

إن القدرات التى يظهرها الطفل فى القراءة والكتابة وفى دراسته المنتظمة للمواد المدرسية سوف تسمح بمزيد من التقدم فى قدراته الفردية.

الفصل السابع

القصور والتأخر والاضطراب في نمو اللغة اللفظية

تعرضنا في الفصلين السابقين بالتحليل للنضج اللغوي «المعتاد» وبالرغم من وجود فروق بين الأفراد وبعضهم البعض في معدلات وطرق النمو الشفهي التي يرجع أسبابها إلى استعداد الطفل منذ الميلاد وإلى تأثير البيئة، فإن السمات العامة للتطور اللغوي كثيرة وواضحة.

ويلاحظ «أ. هـ. لينبرج "E.H.lenneberg" أنه «بالتدريب الملائم قد يستطيع كل فرد أن يكتسب خبرة في مجالات مختلفة كاللعب بمجلات الأقدام (باتيناج) أو كالرسم أو العزف على البيانو، ومع ذلك فإن هناك اختلافات فردية كبيرة في المواهب الطبيعية، وكذلك اختلافات كبيرة في الأعمار التي يمكن للتدريب أن يترك فيها أثراً، أما في حالة استقرار الكلمة واللغة فالأمر مختلف، فالكثير من الأفراد يملك القدرة على الكلام، ونقص هذه القدرة نادر، كما أن ظهور الكلمة ونضجها يتم في فترة قصيرة جداً دون الحاجة إلى ممارسة تدريب خاص ... وفي بحث ميداني أجري على ٥٠٠ طفل في مدينة بوسطن، وجدنا أن من بين كل ١٠ أطفال يبلغون من العمر ٣٩ شهراً، كان هناك ٩ لديهم في المنزل القدرة على الفهم الواضح، واستيعاب التعليم الشفوي، واستخدام جمل معقدة التركيب والتلقائية في المحادثات الشفهية».

إن النسبة العالية للأطفال الذين ينمون لغوياً بصورة طبيعية تؤكد أن الإنسان «كائن متكلم» و«حيوان رمزي» . ومع ذلك فإن هذا لاينفي وجود حالات يكون الاختلاف فيها بالنسبة «للقاعدة» قوي، ولذا يجب أن نتحدث عن القصور والتأخر الشفهي الخطير الناجم عن اضطرابات لغوية حقيقية.

ومن الضروري تحديدها وتقديمها نظراً لأن الأطفال المصابين بها لايكفيهم أبداً التعليم اللغوي «العادي» إذ يجب إتمامه بإجراء فحوص دقيقة مبكرة، وإجراء مراجعات فردية ثابتة من خلال منهج ورعاية ملائمين إن المحرك الرئيسي لنمو الطفل بصفة عامة ونمو لغته بصفة خاصة هو التعليم ، فعلاوة على التحدث مع الآخرين هناك الرغبة في تقليد

الكبار. وهذا يحدث أيضاً عند الأطفال الذين يعانون من اضطرابات لغوية، ولكن هناك فرق كبير بينهم وبين غير المصابين : فبالنسبة لهم لايكفى المثال . لماذا؟

لأن هناك فرقا واضحا بين القدرة على الفهم والقدرة على تحقيق «لغة هؤلاء الأطفال وطبيعة لغة الكلام فى البيئة (وبالتحديد القدرة على التحدث بسرعة)».

والصعوبات التى يواجهها الطفل فى حياته اليومية عديدة ومتنوعة، ولكن القصور فى فهم وفى إصدار اللغة الشفهية ، ربما يكون أكثر خطورة وقد يؤدى إلى نتائج سلبية، ونظراً لأهمية هذا القصور فإنه من الضرورى معالجته فى أسرع وقت ممكن.

القصور اللغوى :

نقصد بكلمة «قصور» مجموعة المواقف الخارجة التى تعوق وتمنع عملية النضج اللغوى عند الطفل . فنقص الإخوة أو اشتغال الوالدين أو الالتحاق بحضانة غير منظمة، أو نظم الملاجئ أو عدم الالتحاق بالحضانة أو الالتحاق المتأخر أو الوحدة الطويلة هى بالتأكيد الأسباب أو الأسباب الإضافية لإعاقة النمو اللغوى عند الطفل. ونقصد بكلمة «التأخر» ظاهرة البطء الكبيرة التى تطرأ على النمو اللغوى للطفل والتى ترجع بصفة خاصة إلى أسباب داخلية (كتمزق فى خلايا المخ، الفم، ضعف الحاسة السمعية، اضطراب الجهاز الصوتى).

إن التمييز بين «قصور» و «تأخر» أمر هام من حيث العرض الذى نقوم به، ولكن من الضرورى مناقشة كل منهما إذ أنهما من العوامل المتقاطعة فى الواقع. إن كل قصور خطير يؤدى إلى «تأخر» فى النمو، حتى وإن كان الطفل عند ميلاده مكتملاً من الناحية النفسية والعضوية، وعلى العكس، فإن الاضطرابات الخطيرة فى الجهاز العصبى والحواس، وأعضاء النطق عند الطفل تدفع الأفراد الذين يحيطون به إلى عدم التكلم معه وإلى عدم تقدير محاولاته للتعبير بشكل ملائم، والقصور يبدو خطيراً منذ الطفولة الأولى إذ أنه يجعل من الصعب الالتقاء بـ «الكلمة الموسيقية» أى (إصدار أصوات و سماعها)، كما أنه يوقف القدرة على التمييز بين أصواته التى يصدرها وأصوات الآخرين والقدرة على التحكم فى جهازه الصوتى، كما أنه يعوق بصورة واضحة العلاقة بين الكلمة والتفكير وهذه الأمور كلها خطيرة لأنها «تصاعدية» أى أنها تزداد خطورة بصورة سريعة وتتشعب ويصبح من الصعب التغلب عليها.

والحالة الأكثر شهرة هى حالة فيكتور ديللا أفيرون التى وضعها جان إتيارد "Jean Itard" فى كتابه «الفتى المتوحش» فبعد العثور عليه فى إحدى غابات فرنسا الجنوبية وكان يبلغ من العمر نحو ١١ - ١٢ عاماً، أى بعد أن أمضى فترة صباه بمعزل عن المجتمع الإنسانى، لم ينجح فيكتور فى تعلم اللغة اللفظية رغم الرعاية العاطفية والعقلية الطويلة التى قام بها د . إيتارد ومعانيه، فهى حالة نادرة ومحدودة ولكن للأسف يمكن الإشارة أو العثور على مواقف مماثلة تماماً لها.

وفى هذا الصدد نشير إلى حالتين معروفتين ج . ف س الذى أبعد عن أمه، غير المتزوجة، فى طفولته المبكرة وقام جده وجدته لأمه برعايته وكانا يعطفان عليه، إلا أنهما كانا يعانيان من قصور فى اللغة والثقافة، وتتجح الحضانة والمدرسة بعد ذلك فى أن يتفاعل الطفل اجتماعياً ولكنهما لايحققان نفس النجاح فى الكلمة والتفكير، حتى أن الطفل فى سن الثامنة، ورغم نجاحه فى الثانية الابتدائية إلا أن عمره العقلى كان يتراوح بين ٤-٥ سنوات.

أما س . ف، فعلى العكس، فهو ابن شرعى وكانت أمه تسرف فى رعايته حتى أنها كانت تصطحبه من يده رغم أنه كان يبلغ من العمر ١١ عاماً، وكان يستطيع السير بمفرده، ونظراً لإرغامه على التصرف كطفل وبقائه ملتصقاً بأمه، فقد التحق بصورة غير منتظمة بالروضة، وكان يعيب نطق الكلمات، وكان يستخدم ألفاظاً محددةً (أسماء - صفات - أفعال) وبصورة مرتبة، ولذا كان غير قادر على تكوين جمل كاملة، وكان يجهل حروف الهجاء ولم يكن يعرف قراءة أو كتابة المقاطع البسيطة، ومع كل هذا فقد نجح فى السنة الرابعة الابتدائية ... فحالة كل من «ج . ف . س» و «س . ف» كانت عند الميلاد طبيعية، ولكنهما انفصلا عن القاعدة، فى المجال اللغوى، وكذلك فى جوانب أخرى من جوانب شخصيتهما بصورة لايمكن تجنبها وذلك نتيجة القصور المتزايد بسبب الأسرة والروضة، ولذا سوف أكرس بعض الفصول للدور الذى يجب أن تقوم به الأسرة والحضانة لتربية الطفل لغوياً.

التأخر فى النمو اللفظى :-

لكى نفهم أسباب التأخر فى النضج اللغوى، ولكى نحدد خطورته ونتنبأ به أو نضع له علاجاً فمن الضرورى - وبصورة سريعة - ذكر العوامل والظروف الأساسية لاستخدام الكلمة بشكل طبيعى.

وكما هو معروف، فإن الطفل لكى يسمع ويميز ويفهم الأصوات والكلمات والفونيمات والجمل، يجب أن تكون حاسة السمع لديه قوية، وأن تؤدى القنوات العصبية وظائفها بصورة طبيعية، وأن تسمح خلايا المخ بالتحليل وحث الأجهزة السمعية من ناحية والربط بين الإشارات الصوتية ومعانى المفاهيم من ناحية أخرى، ولكى يتكلم الطفل بالفعل، يجب أن يقوم الجهاز العصبى بدفع الجهاز الصوتى، وأن تعمل العضلات بشكل طبيعى، وأن يكون أعضاء النطق، والتنفس ليس بهم عيوب بارزة.

وعندما تتوافر هذه العوامل الداخلية والظروف البيئية، فإن النضج اللغوى يتحقق بصورة طبيعية، وعلى العكس، فعندما ينقص واحد من هذه العناصر أو يحدث بها خلل فإن التأخر والاضطراب فى النمو الشفهى لايمكن تجنبه.

وكما نرى فإن فهم وإصدار الكلمة يتوقف على عوامل كثيرة داخلية وخارجية بالنسبة للطفل، ومع ذلك فإن هذا لايعنى أن اللغة الشفهية ليست لها سماتها الخاصة وبالتالى فإن النضج اللغوى ليس له شكل وإيقاع مميز فلو أن طفلاً لديه الأذن، والقدرة الإرادية وجهازه العصبى والصوتى يعملان بصورة ممتازة، فإن تعلمه اللغوى يمكن أن يكون سريعاً من خلال العوامل البيئية، ولكن بقدر محدد، وعلى العكس، فلو أن هذه العوامل الداخلية والخارجية تعانى من قصور فإن النضج الشفهى يتحقق بصورة نسبية.

«فهناك إشارات تدل على النضج اللغوى عند الطفل، وقد تعلم أطفال كثيرون كلمة أو كلمتين قبل أن يمشوا، وهذا يعنى أن لديهم قدرات حركية، وإن كانت بسيطة، تكفى لنطق الحروف، ومع هذا فإن زيادة حصيلة المفردات قد ظلت بطيئة للغاية، فلماذا لا يزيدون بسرعة مفرداتهم برموز صوتية «غمغمة» كما يفعل طفل يبلغ من العمر ٢ سنوات ومصاب فى سقف حلقة ؟ وبالمثل فإذا كان الوالدان لاينجحان فى تعليم أطفال هذا السن نطق هذه الكلمات «باى - باى» - «دادى» معاً، فإن ذلك لايمكن تفسيره على إنه عدم قدرة حركية، حيث إن الأطفال فى هذه السن يتهتهون لفترات طويلة بقدر طول الجملة التى ينطقونها، وفى الواقع أن الجملة المتهتهة قد تأتى منغمة ، وفى هذه الحالة فإن العامل الذى يؤخر اكتساب اللغة يجب أن يكون عاملاً نفسياً أو عاملاً عقلياً وليست قدرة حركية».

(١) - وحيث إن الطفل يتعلم اللغة الشفهية كنوع من «التقليد الإيجابى» فعند ظهور تأخر فى استخدام الكلمة يجب التأكد قبل كل شئ إذا كان الطفل يفهم اللغة، قبل أن نرجع صمته إلى أسباب مرضية أو إلى العناد أو الغضب.

ويجب أن نتأكد إذا كان الطفل، بسبب ضعف حاسة السمع، غير قادر على تميز الفونيمات التى يسمع منها فقط بداية أو نهاية الكلمات، ولاينجح فى غير فهم أجزاء فقط من الجمل والأحاديث، ومع ذلك فالطفل يفهم بصورة جيدة كلام الآخرين له مثل (إحضر هنا»، «حان وقت الغذاء»، «الآن يجب أن تذهب إلى فراشك»، «بدأت تمطر») إذ أنه يفهم هذا الكلام من خلال إشارة وحركات ونبرة صوت من يوجه له الكلام أو أنه يدرك معنى الرسالة الشفهية من خلال طبيعة الموقف.

لو أننا باستخدام جهاز قياس درجة قوة السمع أو بالوسائل العملية (كالتأكد من أن الطفل يسمع دقات الثوانى فى الساعة أو الهمس بين الأفراد أو صوت الباب) نستطيع أن نتأكد من درجة ضعف الحاسة السمعية، عندئذ سوف يكون من الممكن بل والواجب استخدام الأجهزة التى تساعد على تحسين حاسة السمع لدى الطفل بحيث يوفر الطفل الوقت الذى يفقده فى فهم الكلام الشفهى.

وبعض الحالات الأخرى التى تتأخر فيها الكلمة تتطلب على العكس فحصا للأعصاب بهدف التأكد من وجود تمزق بها أو نقص فى التطور نتيجة لظروف البيئة المدنية أو الريفية والتى يرجع إليها السبب فى عدم القدرة على استقبال وتنظيم مايسمعه.

(٢) – فى الحالات التى استعرضناها حتى الآن كان الطفل يعانى من عدم القدرة على الكلام لأنه لايسمع ولايفهم جيداً، ولكن هناك حالات أخرى يفهم فيها الطفل بوضوح اللغة الشفهية، ولكن لايستطيع أن يستخدمها بصورة إيجابية لعدة أسباب يجدر بنا أن نحللها ولو فى إيجاز.

فهناك حالات أخرى يؤدى فيها ضعف الحجاب الحاجز أو الحنجرة إلى تعطيل التنفس وتدفق الهواء اللازم لإحداث الصوت، وهناك حالات أخرى يؤدى ضعف مسام الحلق إلى فقد الهواء من الأنف، وتقلص الأحبال الصوتية يؤدى إلى اضطرابات خطيرة بالصوت، وقد يؤدى شلل الأحبال الصوتية إلى فقدان الصوت تماماً (وقد ينجم هذا الخلل عن عجز فطرى فى خلايا المخ).

وبعض الأطفال يتعلمون الكلام فى وقت متأخر نتيجة للضعف الحركى الفطرى الذى غالباً مايكون مصحوباً بضعف فى القدرة على النطق.

إن الأطفال المصابين «بالبكم»، أى الذين يرفضون الكلام، عددهم ليس قليلاً فالبكم قد يكون موضعيا أو جزئيا (وقد نتحقق منه فقط فى بعض الأحيان). وهذا الأمر يعد مظهرا تتميز به مرحلة الطفولة بوجه عام وهو الرفض أو صعوبة النمو والتى تنتج عن أخطاء تربوية أو أنه نتاج اضطرابات مرضية إذ أن المحادثة مع الأفراد يرفضها الطفل فى كل صورها على الإطلاق.

اضطرابات اللغة اللفظية :-

إن وجود عيب فى نطق الحروف البسيطة أو الكلمات، وكذلك فى التكوين الناقص للجمل أمر طبيعى فى مرحلة الطفولة الأولى، ولكن الأمر يصبح غير ذلك إذا استمر هذا العيب فى مرحلة الصبا فإن هذا يدل عندئذ على وجود «اضطرابات» حقيقية.

إن وجود خلل فى نطق الحروف المفردة قد ينجم عن أسباب تشريحية (كتشوه اللسان أو البلعوم، أو تشوه فى الشفاه أو تشقق فى الحلق) أو لأسباب فيسيولوجية (شلل عضلات الوجه أو تقوس سقف الحلق) هذا إذا كانت الحواس والذكاء فى حالة طبيعية للغاية.

«فاللعثمة»، وهى النطق الخاطئ لبعض الحروف الساكنة التى يصعب استخدامها وبالتالى تصبح فى مؤخرة الحروف التى يتعلمها الطفل بإتقان، قد تكون ناتجة عن عيوب بالجهاز الصوتى أو لأسباب عاطفية (مغالاة الأم فى رعاية الطفل أو رغبة الطفل فى أن يظل صغيراً). وأحياناً يكون الطفل قادراً على نطق الأصوات البسيطة بصورة صحيحة، ولكنه ينطق بصورة سيئة بعض الكلمات : ويرجع هذا إما لاستعجاله الشديد، أو عدم القدرة على التمييز والتحكم فى إصدار الأصوات . فالطفل جيرارد، على سبيل المثال، يبلغ من العمر ٧ سنوات ولكنه يقول دائماً "نحم" بدلاً من "لحم" .

وفى حالات أخرى يكون التعبير الشفهى الذى يصدره الطفل طبيعياً ولكن فى نهاية مرحلة الطفولة الثانية وفى مرحلة المدرسة لابتدائية يظل عند مستوى الكلمات المرتبة والجمل الناقصة، وذلك نتيجة للقصور العقلى أو نتيجة لبطء النضج بوجه عام.

وهناك اضطراب لغوى معروف وهو التمتمة التى قد تظهر عند الطفل من ٢ -٣ سنوات وهى تصيب الذكور بصفة خاصة، وأحياناً تختفى تلقائيا، ولكن فى حالات أخرى تستمر وتزداد خطورتها إذا لم تعالج بصورة ملائمة.

وتتسم لغة المتمتم بالتردد والتكرار بصورة سريعة للمقاطع الأولى من الكلمة وأحياناً تتسم بعدم القدرة الكاملة على نطق الكلمة (ولو لوقت بسيط) . وهذا ينجم عن تغير فى إيقاع الجهاز التنفسى، والذى يحدث أثناء نطق الحروف و أحياناً يكون مصحوباً بظواهر أخرى مثل بعض التقلصات فى العنق والاكتاف واحمرار الوجه.

وإذا كانت اللعثمة معروفة فى كل العالم، إلا أن أسبابها مجهولة إلى حد كبير، ولذا فإننا سنكتفى بذكر بعض الفروض التفسيرية.

فاللعثمة تبدو مرتبطة بالمجال الانفعالى حيث إن الفرد المصاب بها يتعلثم فقط مع أشخاص بذاتهم وفى مواقف محددة وعندما يتحدث عن مشاكل بالغة الحساسية بالنسبة له. وقد يؤدى التوتر الانفعالى - العاطفى إلى حالة من التوتر الشديد فى بعض المراكز تحت البشرة الجلدية مما ينتج عنه توقف أجزاء تحت الجلد عن اداء وظيفتها الكبيرة فى اللغة المنطوقة.

وفى حالات أخرى قد يكون هناك ضعف حركى بسيط ينتج عنه عدم اتفاق النطق أو تأخره . وقد يكون النطق السيئ سبباً فى إعاقة تكوين مركز من مراكز المخ المتحكمة فى اللغة (عادة مايكون فى الجانب الأيسر من الرأس) وهناك ايضاً مراكز أخرى للمخ توجد فى الجانب الأيمن وهى تتحكم فى عملية إصدار الأصوات، وهذا يؤدى إلى وجود تضارب تنتج عنه اللعثمة.

ولايمكن أن نغفل أن بعض الأطفال يتمتعون بذكاء عام يفوق قدرتهم الشفوية (المفردات - تطبيق القواعد الصرفية - التراكيب النحوية) ، وفى هذه الحالة يكون معدل التفكير أسرع لترجمة المضمون إلى ألفاظ لغوية، عندئذ تصبح اللغة فى بعض اللحظات معاقة ومتوقفة.

ويقول «جورج كروشون» "Georges Cruchon" أن السبب فى اللعثمة يجب أن نبحث عنه فى المخاوف ذات الطبيعة الانفعالية والتى تصبح أكثر شدة نتيجة نقص الثقة فى النفس، وضعف الجهاز الصوتى أو ضعف المراكز العليا التى تتحكم فيه كما هو الحال عند بعض العسر، وبعض من يستخدمون كلتا اليدين، ولكن إذا كان هناك استعداد عضوى مبكر للعثمة فإن وجود الوالدين وخاصة الأمهات المتسلطات والمسيطرات يستطعن بمعاملتهن للطفل تقوية هذا الاستعداد عندما يبدأ فى الظهور، وقد لوحظ أن الطفل أحياناً يتعلق عند الحديث

مع أسرته عنه مع الأشخاص العاديين، وبالعكس عندما يصاب الطفل بصدمة نفسية من الآخرين، إن هذا يبدو بالفعل السبب الانفعالي للعثمة وهو عادةً ما يكون مصحوباً باضطرابات في الأعصاب والعروق وبصعوبة في أداء بعض الحركات بأصابع اليد، ولعلاج هذه الحالة ينصح باستشارة طبيب أمراض عصبية وعقلية».

نصائح للوالدين والمعلمات : -

إن التأخر والاضطرابات الأشد خطورة في عملية النمو اللغوي تتطلب تدخلاً واحداً أو أكثر من المتخصصين مثل : طبيب الأنف والأذن والحنجرة، طبيب الأعصاب، طبيب الأمراض العصبية والعقلية فإن دورهم هام جداً، ولكنه لايكفي لسبب بسيط وهو أن الطفل لايمكن أن يظل تحت رعايتهم بصورة دائمة. ولذا ينبغي على الوالدين والمعلمات تكثيف رعايتهم للأطفال وتنفيذ إرشادات الخبراء بصورة مستمرة.

إن دور الأسرة والمدرسة هام جداً عندما تكون حالة التأخر والاضطرابات ليست خطيرة، وعندئذ يكفي علاجها ببرنامج لغوي محدد الزمن ومنظم وسليم من الناحية التعليمية.

إن الاضطرابات اللغوية التي ترجع لأسباب خاصة بالبيئة المدنية أو الريفية يمكن علاجها بوجه عام . وكذلك العيوب التي لها علاقة بالأعضاء الجسمية يمكن أحياناً علاجها إلى حد ما، وهناك عيوب كثيرة في تركيب الجمل تختفي أيضاً تلقائياً مع الوقت، ولكن على أية حال فمن الأفضل دائماً علاجها، فمن ناحية لايمكن أن نتأكد من أنها ستصحح من نفسها : وفي الغالب ماتظل هذه العيوب ! ومن الناحية الأخرى فإن التصحيح التلقائي للاضطرابات يطئ بشكل واضح نتيجة للصعوبات المدرسية (فعلى سبيل المثال، فإن اضطرابات لغة الكلام قد تسبب تشوها في النطق أو في الكتابة) والتغيرات العاطفية المتلاحقة. إن اضطرابات اللغة، بوجه عام، تصبح سهلة العلاج كلما كان الطفل في سن صغير، أما إذا كانت هذه الاضطرابات واضحة فإن هذا يعد سبباً كبيراً لعلاج الطفل قبل أن يبلغ خمس سنوات».

وحتى تكون عملية العلاج مؤثرة، يجب قبول الطفل بلاشروط، أي حتى وإن كان يعاني من تأخر واضطرابات لغوية كبيرة، وكذلك ضرورة الإيمان بعلاجه لإكسابه الثقة وحثه على الالتزام الشخصي، بدلاً من الحكم المسبق عليه بأنه يعاني من ضعف عقلي أو أنه كسول أو غير مستجيب للعلاج.

(١) إذا كان الطفل لايتحدث بالفعل أو يفهم بصعوبة اللغة المنطوقة، يجب أن نستخدم معه كلمات مفردة مع نطقها ببطء وبوضوح ومقارنتها دائماً بما تصفه من أشياء وأحداث ، إن ترجمة حياة الطفل الواقعية إلى ألفاظ شفهية تصبح أكثر إقناعاً إذا ماشاركناه بود فى ألعابه، وإذا ماجعلناه يشارك فى الأنشطة المنزلية والمدرسية، وإذا مادفعناه إلى اكتشاف البيئة المحيطة به، فمن المحتمل عندئذ أن يحاول الطفل ذكر أسماء الأشياء التى يستوعبها أو التى يلعب بها، وخاصة إذا ما طلبنا منه ذلك بوضوح، كذلك احتياج الطفل ورغبته فى التحدث مع الكبار قد تدفعه إلى استخدام الكلمة ولكن يجب أن نتجنب التنبؤ بما يحتاجه أو إشباعه فى الحال، وكذلك يجب تشجيعه بالابتسامة وبإكمال أو تصحيح الكلمات التى لاينطقها بشكل جيد، مع الثناء عليه لما يقوم به من مجهود وما يحققه من نتائج.

إن الطفل الذى يعانى من الضعف اللغوى لايدرك حالة عدم النضج التى يمر بها ولذا يجب أن نقدم له بصورة مستمرة نماذج شفهية صالحة وواضحة وفى نفس الوقت يجب أن نساعده على معرفة أخطائه الخاصة ومعاونته على تجاوزها مع مرور الوقت، ويجب ألاّ نطلب من الطفل الكثير، وكذلك لايجب أن نصحح له أو نطلب منه الحديث فى وجود غرباء.

(٢) – إن اللعثمة التى تنتج عن الانفعالية يتم علاجها بخلق بيئة هادئة ومريحة مع تحسين العلاقات «الصعبة» التى بين الطفل وبعض الأشخاص بشكل حاسم، وكذلك إزالة أسباب التوتر باستخدام مهدئات مناسبة وفقاً لإرشادات الطبيب ولعلاج أى نوع من اللعثمة بعد ذلك يجب على الكبار أن يتحدثوا للطفل ببطء (ولكن دون تظاهر) وأن يستخدموا جملاً بسيطة التركيب وأن لايرفعوا أصواتهم وأن يتوقفوا فى الحديث من حين لآخر . ومن الطبيعى أن يتشجع الطفل الذى يعانى من اللعثمة على عمل نفس الشئ، وعلى عدم الشعور بالخزى إذا أعاد الخطأ مرة أخرى، وعلى أن يواصل مجهوده فى النطق السليم.

إن الغناء والموسيقى يساعدان على تصحيح اللعثمة حيث إنهما يلتزمان بالإيقاع ويعودان الفرد على احترام الإيقاع عند ترديد الغناء، والغناء الجماعى، بوجه خاص، يزيل أو يقلل الإحساس المزعج بمراقبة ونقد الآخرين.

ومثل هذه الاعتبارات يجب أن توضع فى الاعتبار أيضاً بالنسبة لأغانى وحكايات وأشعار الأطفال، إن الكلمة «الموسيقية» تساعد الطفل على تجنب الاستمرار فى التصادم مع التفكير وتساعد على تحقيق لقاء هادئ وبناء.

وفى ختام هذا الفصل نؤكد أن الآباء والمعلمات لو تابعوا جلسات العلاج العقلى وقاموا بسؤال المتخصصين يمكنهم أن يعرفوا المزيد عن نوعيات العلاج الخاص، وما فى ذلك من استفادة كبيرة للأطفال اللازم علاجهم.

الفصل الثامن

الكلمة والبيئة الإجتماعية والثقافية والإعداد اللغوى

رأينا فى الفصول السابقة العلاقة بين «كلمة» الفرد الواحد و«اللغة» التى تستخدمها جماعة محددة من أوجه عديدة، وقد بحثنا هذه العلاقة من حيث دور الكلمة داخل النظام اللغوى أو من حيث تحليل النضوج اللغوى للفرد (عوامل - إيقاع - تقدم - قصور - تأخر - اضطرابات) بالنسبة لبيئته التى يعيش فيها.

والآن يجدر بنا أن نتناول بتعمق ودقة أكبر مشكلة التعليم اللغوى المعقدة.

الكلمة واللغة :-

وفقاً لوصف وتعريف «فرديناند دى سوسير» "Ferdinand De Saaussure" التى خطيت بموافقة الباحثين فإن «الكلمة» تشكل مظهرا ذاتيا للغة الشفهية . فكل إنسان يولد ولديه استعداد للتعلم اللغوى ويكتسب بالتدريج «سمة» خاصة وفردية من خلال تجارب شفهية عديدة تحكمها قواعد أساسية، ويعبر عنها بشكل طبيعى أى «بأسلوب» يخلو من العيوب وخاصة إذا ما كان الفرد يعيش فى ظروف مواتية.

أما «اللغة» فهى تمثل، على العكس، الحجم الموضوعى للغة اللفظية فالجماعة سواء أكانت كثيرة أو قليلة العدد فيما يتعلق باللغة القومية أو باللهجات المحلية، فهى تمتلك «سمة» شفهية جماعية، إذ تستخدم أو تقترح (أو تفرض) مفردات وقواعد صرفية ونحوية محددة تماماً لضمان تأثير المحادثة فى المستمع، كما أن الجماعة تمارس ضغطاً خفياً أو ظاهراً على المتحدثين حتى يتأقلموا على النماذج الشفهية السائدة فى الجماعة نفسها.

إن تعريف «سوسير» يمكن قبوله بشرط أن يكون أكثر تأكيداً على أنه لاتوجد «كلمة» بدون «لغة» والعكس. إن التجربة اللغوية للطفل تحكمها منذ البداية البيئة التى يعيش فيها: فالصغير يتعلم كيف يفهم ويستخدم الكلمة ليس فقط من خلال القوانين التى تتفق مع طبيعته الشخصية، ولكن أيضاً من خلال التطابق مع النماذج اللغوية لأسرته وللمجتمع الذى ينتمى إليه.

وعلى العكس فإن «اللغة» لايمكن أن توجد بدون «الكلمة» لثلاثة أسباب على الأقل «إن اللغة» كحقيقة جماعية تعد نتيجة وخلاصة تجارب شفهية عديدة للأفراد وقد تمت خلال قرون أو آلاف من السنين، إن النظام اللغوى فكرة تجريدية عند الباحثين وهو مفهوم تصورى حيث إنه فى الواقع يوجد فى من يستخدمه وهم دائماً الأفراد الذين يحتفظون به أو يعدلونه تدريجياً وفقاً لآلاف الضغوط الاجتماعية والثقافية التى يجهلونها.

والطفل فى كونه «حيوان رمزى» يملك منذ ولادته القدرة الشفهية، ولكن هذه القدرة لاتتطور إلا من خلال إطار اجتماعى محدد. فالبيئة الغنية بالدوافع الملائمة تساعد الطفل على أن يصبح كائناً متكلماً، وعلى أن يكتسب «اللغة» وهذه بدورها تحوله إلى إنسان اجتماعى وتسمح له بالتعبير عن رأيه وأن تكون له مكانة فى المجتمع، وبالتالى المشاركة الإيجابية فى الحياة الجماعية من خلال استخدامه «للكلمة» وعادة ما يثرى الكبار ويعدلون «اللغة» بعلاقتهم الفردية : أو لأنهم بلغوا أعلى درجات الثقافة (كتاب - علماء - فلاسفة - شعراء). أو للدور الذى يقومون به فى المجتمع (صحفيون - قادة - سياسيون أو نقابيون - مخرجون - فنانون - أساتذة جامعات) . ومع هذا فإن الأطفال أيضاً يطلقون ويعدلون عناصر فى «اللغة» كنطقهم المختلف لأفراد الأسرة (بابا - بابى/ ماما - مامى) وكذلك استخدامهم للكلمات التى يدل نطقها على معناها مثل (بم- بم، نو نو) والألفاظ التى تدل على أصوات مثل (فرقعة - همس) وربما تكون هذه هى مساهمة فترة الطفولة فى تطور اللغة الشفهية كما أوضح «و . سترن» "W.stern" وغيره.

إن كل فرد (كبير أو صغير) له «أسلوبه» الشفهى الخاص، ولذا نجد أن هناك جماعات من الأشخاص تكوّن لنفسها «لغة» خاصة بها يدافعون عنها ويحاولون نشرها بصورة مثيرة للجدل أحياناً، كما أن الأساليب الفردية واللغات الخاصة، فى الغالب، لايهتم بها المجتمع وبالتالى يرفضها، ولكن أحياناً تفرض نفسها على «اللغة» إلى أن تندمج فيها وداخل اللغة تجد عاملاً لاستمرارها بثبات.

ويقول «ج . فرانشسكاتو» "G. Francescato" أن كل طفل يتعلم الكلام ينجح، من خلال تجربة تأثير كلامه وكلام الآخرين، فى اكتساب «سمة» خاصة وشخصية فردية : إن الكيان الجوهرى لكل السمات الفردية، بعيداً عن الاختلافات والفروق التى تبقى دائماً ممكنة، يكون «السمة» الجماعية التى تقوم عليها إمكانية الاتصال مع الآخرين، وهو ما يصل إليه عالم اللغة فى نهاية بحثه وهو مايُسمى «اللغة».

وبهذه الطريقة يصبح أكيداً الانتقال من «الكلمة» إلى «اللغة»، ومن النطق إلى السمة، ومن الإدراك إلى الاستخدام الفعلي - ويصبح أمراً مضموناً في وقت معين التأثير الاتصالي والابتكار التعبيري للأداة اللغوية».

الأفراد والبيئة في اللغة المنطوقة :-

إن «البعد الثاني» يكون دائماً حاضراً في اللغة المنطوقة حتى وإن تغلب من حين لآخر المظهر الفردي أو الاجتماعي، وهذا أمر يحدث لأن الفرد في نفس الوقت عنصر لايمكن تكراره وعضو في الجماعة فإما إيجابي أو سلبي وإما مبتكر أو مقيد.

إن البعد الثاني للغة الشفهية يمكن دراسته في مظاهره العامة، وبالتالي فهو موضع أبحاث علماء اللغة، ولكن يمكن تحليله أيضاً من خلال بعض الأفراد الذين يعيشون في بيئات محددة، وهذه الدراسة تدخل في مجال علم اللغة الاجتماعي وهو فرع من العلوم الجديدة والغنية بالتطورات الهامة والمجدية أيضاً بالنسبة للتعليم.

ومن الثابت أن تعلم اللغة يعتمد - منذ الميلاد - على الظروف الاجتماعية والثقافية أكثر من تأثره بالصفات الوراثية. فالكلمة بعناصرها (الصوت - المفردة - طريقة الإلقاء - التراكيب الصرفية والنحوية) تؤثر بشكل كبير على طريقة الاستماع واللعب والاستيعاب والتفكير والتكيف الإجتماعي للطفل، وتأثيرات الكلمة لاتتوقف عند مرحلة الطفولة فحسب، بل تؤثر أيضاً على مرحلة المدرسة وعلى كل مراحل حياته.

وبعيداً عن كون اللغة ظاهرة تلقائية في نمو الطفل، فإنها، كوسيلة اتصال، تبدو نتيجة تدريب يخضع لتأثير البيئة بشكل كبير منذ بداية الشهور الأولى لحياة الفرد».

إن مضمون الحوارات وطريقتها وكذلك المحادثات التي يتابعها الطفل أو يشارك فيها يعتمد بصورة كبيرة على العلاقات بين أفراد الأسرة وعلى العلاقة الاجتماعية والثقافية، فهناك بيئات تستخدم فيها الكلمة بشكل خاص لإعطاء الأمر أو تلقي توبيخ ولإعطاء أو سماع أخبار قصيرة (تلغرافية) فقط، بدلاً من استخدام الكلمة في تفسير الأمور والأغراض ومقارنة وتقييم وجهات النظر، والتعبير بحرية كاملة عن المشاعر، وهذه البيئات تُستخدم فيها اللغة بشكل «ضمني» فتُستعمل الألفاظ بصورة مفردة وتُستخدم فيها أيضاً الإشارات الضمنية، وتستخدم الكلمة بندرة شديدة كما لو كان الكلام مضيعة للوقت أو أنه احتكاك خطير يجب تجنبه.

ويقول «داريو فارين» "Dario Varin" «إن الافتراض القائل بأن اللغة هى مفتاح متغير يمارس البناء الاجتماعى من خلاله تأثيره على النمو النفسى للفرد أصبح هذا الافتراض أكثر ذيوعا. إن اللغة وخاصة اللغة الشفهية تربط بين تأثير الأبعاد التاريخية والثقافية وبين بيئة الإنسان. وفى اللعب هى الموضوع الرئيسى لعلاقة الإنسان باستعداداته الفطرية مع البيئة التى تتفاعل معها هذه الاستعدادات».

لو دخل الطفل لفترة زمنية «بصورة مستمرة فى علاقة لغوية إيجابية مع الكبار (الوالدان، الأجداد، الأقارب) فإن نضوجه الشفهى سيكون أكيداً و أسرع، أما إذا كانت أغلب علاقاته مع أترابه فإن النمو الشفهى سيكون أبطأ، نتيجة للأنانية العامة؛ فالتوأم لايبلغ بصعوبة الاستقلال اللغوى فحب بل - وفى وجود ظروف أخرى - يصبح النضج اللغوى قاصراً حيث أن التوأم يفضل المحادثة من خلال لغة غير شفهية (الإشارات - الحركات - الهمس). إن حالة التوأم التى تحدث عنها عالم النفس الروسى «لوريا» والتى أشرنا إليها من قبل، تعد نموذجاً لحالة عدم النضج اللغوى.

وإلى جانب التأثير الأسرى، فإن المستوى الاجتماعى والثقافى يؤثر أيضاً على اللغة وتراكيبها النحوية . ومن خلال أبحاث أجريت فى إيطاليا ثبت أن الأطفال الذين ينتمون إلى «مجتمع أقل ثقافة» يستغرقون وقتاً وجهداً فى رواية الحكايات المصورة، فهم يستخدمون بقلة الجمل الفرعية ولايظهرون اختلافاً ذا معنى فى الجمل الطويلة التى يستخدمونها كما يفعل أترابهم الذين ينتمون إلى «مجتمع أرقى ثقافياً من هذا قد يبدو أنه يجب أن نتهم، فى المقام الأول، المستوى اللغوى والثقافى فى الأسرة وخاصة الأم، ويقول «دومينكو باريزى» "Domenico Parisi" أن الأمهات ذات المستوى الاجتماعى والاقتصادى الراقى يستخدمن مفردات كثيرة وعندما يتحدثن يستخدمن التعبيرات المركبة والمقتضبة التى يقدمها النحو فى اللغة التى يتحدثن بها. فهن يفضلن ويألفن اللغة كوسيلة اتصال عن غيرها من الوسائل، ويتضح تفضيلهن لها فى ردهن على أسئلة الطفل بنطق لغوى سليم وعندما يتطلب الأمر مساعدة طفلهن فى أداء واجب يحتاج منه قدرة علمية، فهن يساعدن الطفل بصورة تشحذ قدراته على التفكير بشكل عام ومجرد وقابل للانتقال إلى مواقف أخرى وفى النهاية ونتيجة لهذا النوع من الرعاية التى يقمن بها والتى تعتمد على المكافأة أكثر من العقاب، فهن بذلك يكسبن للطفل سلوكا بناءً، ويعطين له الثقة فى قدراته، ونختتم بالقول بأن هذه

الاختلافات فى تعامل الأم والمتصلة بالطبقة الاجتماعية تبدو ثابتة بشكل مذهل من بلد لآخر».

ويميز عالم اللغة الاجتماعى «بازيل برنستين» "Basil Bernstein" بين «لغة الجمهور» وبين «لغة فئة معينة» والتى تستخدم بين طبقة العمال، و«اللغة الرسمية» واللغة الراقية» التى يتحدثها أفراد الطبقة المتوسطة، وعلى أساس هذا الفرق يؤكد وجود (تحديد لغوى) ينتج عنه تأثير استخدام الكلمة والقدرات المعرفية والاستفادة المدرسية بالطبقة الاجتماعية التى ينتمى إليها الفرد.

وكما هو واضح فإن الأمر يتعلق بتطبيق خاص للأبحاث القائمة على دراسة التعامل بين الأفراد وعلى البيئة والتى من خلالها لايمكن الرد على النظريات التى تنفى أهمية الاستعداد الميلادى، وكذلك قدرات الفرد على «الابتكار» فى اللغة، كما هو الحال فى أى نشاط إنسانى آخر، ليس هناك فقط عملية انتقال من «الخارج» إلى «الداخل» ولكن هناك أيضاً الانتقال المعكوس.

وتعد أبحاث وأفكار «مارتن دوتيش» "Martin Deutsch" أكثر اهتماماً بمظاهر المشكلة المعقدة والتى أغفلها «ب. برنستين» "B.Bernstein" وهى «دور الطبقة الاجتماعية فى نمو اللغة والمعرفة».

وبينما يؤكد الباحث الإنجليزى على وجود سلسلة من الظروف ذات اتجاه واحد وهى الطبقة الاجتماعية – المستوى اللغوى – القدرة المعرفية – العائد المدرسى فإن عالم اللغة الاجتماعى الأمريكى يبرز أهمية «مفهوم الذات» ويؤكد على وجود أسباب مزدوجة الاتجاه.

وبعبارة أخرى فإن ناتج تقسيم الذكاء يؤثر على النمو اللغوى والعكس، فالتقدير الذاتى للطفل يعتمد على نوع التربية التى يتلقاها داخل الأسرة والمدرسة وليس على الطبقة لاجتماعية فحسب، كما أن الاستفادة المدرسية ترتبط بكل أنواع التعليم الأساسى الذى تلقاه الطفل فى مرحلة الطفولة، وليس المستوى اللغوى فقط؛ ونتائج الدراسات التى أجريت هى أيضاً نتيجة «مفهوم الذات» وحركة الجماعة ونوع المناهج التعليمية.

اللغة المحدودة واللغة الراقية :-

رغم حدود نظريات «برنستين» إلا أنها تستحق دراسة دقيقة سواء لأنها تؤكد على الأهمية الرئيسية للكلمة فى حياة الفرد وفى المرحلة المدرسية أو لأنها تساعد على فهم الصعوبات التى يقابلها التلاميذ بصورة جيدة وتضع لها العلاج.

اللغة المحدودة تقدم بصورة رئيسية هذه السمات : فالجمل قصيرة وبسيطة وغير مكتملة، وتبدو التراكيب فيها واضحة نتيجة لقلة استخدام الجمل الفرعية ولكثرة استخدام أدوات الربط مثل : و، «عندئذ» ، وهكذا» ، كما أن استخدام الصفات والظروف محدود وصارم، كما تسودها التأكيدات القاطعة، وتفتقر هذه اللغة للوحدة المنطقية والتسلسل، كما يغلب عليها الألفاظ التى تدرك بالحس عن غيرها من المجردات ، وهذه السمات يتأثر بعضها ببعض ويدعم بعضها البعض.

ويقول «ب. برنستين» « أن الجملة القصيرة بسيطة من حيث القواعد إلا أنها رديئة من حيث التراكيب النحوية وهى سمة المحادثة بين عامة الناس ولكنها لاتيسر نقل الأفكار أو الموضوعات التى تتطلب صياغة دقيقة ... وهذا يؤثر بالضرورة على طول ونوعية التفكير الكامل، كما تنحصر وظائف التنظيم الشفهى، وحيث إن استخدام الصفات والظروف صارم ومحدود، فإن الصفات الذاتية للأشياء (أسماء) وتعديل مايطرأ من تغيرات (ظروف) سوف يكون منحصرا للغاية» ويؤكد المؤلف أن هذا النوع من التعبير اللغوى يكون مصحوباً بمستوى تصورى منخفض وتقليل من شأن الأسباب، وعدم اهتمام بأى نوع من العلاقات والاهتمام بما هو حالى أكثر من الاهتمام بنتائج مجموعة من المواقف : وهذا يقلل إلى حد ما الفضول، علاوة على إقراره لنوع من العلاقات ، وهذه الاعتبارات المنطقية لها تأثير على المضمون وعلى طريقة التعليم وعلى نوعية التعليم المستقبلى».

أما اللغة الراقية فلها سمات مختلفة : فالجمل مكتملة وتحتوى على الكثير من المفاعيل؛ والتركيب النحوى رصين وبالتالى فإنها تشتمل على كثير من الجمل الفرعية؛ واختيار الأسماء والأفعال والصفات والظروف يتم بصورة تتابعية كبيرة، فمن يتحدث يضع فى اعتباره قدرات وآراء المستمع ولذا يبذل مجهود فى توضيح أفكاره وإبراز صلاحية أقواله بالبراهين العقلية، كما أن الحديث موحد من حيث الموضوع ومتصل فى تفريعاته، ومن سمات هذه اللغة أيضاً، منطقياً، مبدأ التفاعل المتبادل.

إن اللغة المحدودة هى سمة الطبقات الأقل ثقافة ولكن هذه ليست قاعدة ثابتة، وكذلك اللغة الراقية تسود فى الطبقة «البرجوازية» ولكنها لاتملك احتكارها حيث إن التبادل بين اللغتين العامية والرسمية يعتمد بشكل كبير على النشاط داخل الأسرة ويميز «برنستين» ، فى هذا الشأن، الأسرة التى تعتمد على أكثر من فرد عن الأسرة التى «يقودها فرد واحد».

فى النوع الأول نجد الأدوار (الأب - الأم - الابن - الجد) محددة بدقة، والتعبير عن الآراء يعتمد على «لائحة» الأعضاء الفرديين فى الأسرة، وطرق السيطرة الاجتماعية (أوامر) . وهناك أمور يشترك فيها الجميع كالجوانب العاطفية، وتسود ثقافة الجميع على ثقافة الفرد، وهناك سلسلة محددة فى اختيار الألفاظ للتعبير عن المعانى (نظام متغلق).

«إن الاعتماد على اللغة العامية واستخدامها بصورة كبيرة يدعم العنصر الشخصى على العنصر المنطقى، كما أنها تحد من إمكانية التعامل والتعلم كما تؤثر على رد الفعل والإدراك نتيجة لهذا الاستخدام الطاغى للغة العامية» . «كما أن استخدام اللغة العامية يضعف التعبير من المشاعر الرقيقة وبالتالى يضعف أمكانيات التعليم الكامنة فيها، ولكن فى هذه الحالة يجب أن نضيف أن هذا لايعنى أن هذه المشاعر لم تمر بالشخص، ولكنها من حيث الشكل وما تشتمل عليه تكون مختلفة، وعلى العكس فهذه الصيغة اللغوية تُوجد إجابات «غليظة» سواء من حيث المفردات أو من حيث الأسلوب ، وربما تستخدم هذه الأساليب «الغليظة» لوصف مواقف أو أشياء وليس لوصف مشاعر رقيقة بصورة معتدلة وذاتية، وبالتالى فإن الفرد غير معتاد على التعبير عن مشاعر من هذا النوع «وفى حالة الأسرة التى تتجه نحو الشخصية» فإن التقييم والاختيار يرتبط بالسمات النفسية لأعضاء الأسرة أكثر من ارتباطها بالأدوار المحددة مسبقاً، فالقرارات يمكن مناقشتها من أى فرد يريد أن يشترك فى المناقشة وفى حدود قدراته فالتعامل بين الأفراد يشجع على توضيح الأهداف وعلى تكوين الآراء وعلى اكتساب دور إيجابى بدلاً من اكتساب دور سلبى «النظام المتفتح» ويُدعى الطفل، بوجه خاص، للتعبير عن رغباته مما يترتب عليه النضوج فى بعض تجاربه الشخصية، وكما أن اللغة المحدودة أو العامية واللغة الراقية أو الرسمية ليست ميزة لطبقة اجتماعية معينة وإن كانت مسيطرة عليها أو غير مسيطرة، فإنه من الممكن أن يلجأ نفس الشخص إلى استخدام لغة تناسب الموقف، فالقدرة على الاختيار، بعد التفكير واختيار الطريقة، تساعد على إقامة العلاقات وتدعيمها بين الأفراد، كما أن الأطفال الذين ينتمون

لأسر تلحقهم بمدارس ممتازة من حيث التعليم اللغوى، يمكن لهم أن يستفيدوا من كلا النوعين من اللغة الشفهية، وبالتالى فهم أسرع فى التفاعل الاجتماعى وفى نمو الذكاء.

وحيث إن اللغة وسيلة فإنها مثمرة بقدر تنوعها وتكيفها مع متطلبات الحياة اليومية فالمواقف تفرض فى الحقيقة استخدام صيغ تقليدية للحصول على مشاركة المستمعين أثناء المحادثة، كما تفرض اللجوء إلى وسائل أخرى كدرجة الصوت فى بعض أجزاء من الكلام لتحقيق المشاركة التى يحرص عليها المتكلم ... فمن يملك هذه القدرات توجد لديه الوسائل اللغوية لتكوين علاقة سليمة مع الآخرين، ولذلك فإن تنمية هذه الوسائل وتحسينها أمر أساسى للعملية التعليمية التى تهدف إلى تطوير إمكانات الإنسان».

الإعداد اللغوى المبكر:-

إن اللغة العامية أو المحدودة منتشرة بصورة كبيرة رغم تحسن التعليم المتوسط بصورة سريعة شاملة : وهذا نتيجة الاستعمال والتوتر والإسراف فى استخدام الصور المرئية وأن السن المناسب للتعليم اللغوى يتراوح مابين ٢ و ٧ سنوات، ولذلك فإن الحضانة عندما تستقبل التلاميذ فى هذا السن المتميز يصبح عليها دور لاغنى عنه فى إعداد هؤلاء الأطفال لغوياً، وإذا لم تقم الحضانة بهذا الدور فإن الاختلاف بين التلاميذ الذى سيظهر فى سن الثالثة ستزداد مع مرور الوقت بدلاً من أن تقل ويتعرض عدد كبير من التلاميذ بعد ذلك لصعوبات خطيرة عند القراءة أو الكتابة أو عند إجراء عمليات حسابية فى السنة الأولى من المدرسة الابتدائية.

ويعرض «دومينكو "Domenico Parisi" ، فى هذا الشأن، فى كتابه الذى ذكرناه من قبل، نتائج بحث أجرى للتأكد من فهم التلاميذ للتراكيب النحوية والمفردات فى ثلاث حضانات مختلفة تماماً : الأولى يلتحق بها أطفال من مستوى اجتماعى واقتصادى مرتفع، والثانية يلتحق بها أطفال من مستوى اجتماعى واقتصادى منخفض، والثالثة يلتحق بها أطفال من مستوى اجتماعى واقتصادى متوسط، وكان على الأطفال أن يختاروا بين ٢٠ نسخة لتراكيب نحوية متناقضة : على سبيل المثال عندما كان الباحث يقول الرجل يسحب الكلب، وكان على الأطفال أن يختاروا بين صورتين، إحداهما تمثل رجلا يسحب كلبا والأخرى تمثل الكلب يسحب رجلا.

ومن تحليل النتائج ظهر أنه فى عمر ثلاث سنوات تكون قدرات الفهم النحوى تقريباً متساوية عند كل الأطفال، مع استبعاد الطبقة الاجتماعية، وبعد ذلك تختلف بصورة أكبر وفقاً لتشجيع الأسرة والمدرسة الطفل أو لإهمالهما ذلك.

وكما يؤكد الباحث «أن عيوب الفهم النحوى والتى نجدها فى أطفال الطبقة الاجتماعية المنخفضة والذين يلتحقون بمدارس من نفس المستوى، يرجع أسبابها إلى الظروف الأسرية من جانب وإلى نوعية البيئة المدرسية من جانب آخر، فكلا العاملين مسئول عن العيوب اللغوية أو التى يمكن، مع ذلك، القضاء عليها، أو على جزء منها » بتحسين هذه العوامل.

إن الطفل الذى تعلم فى سنواته الأولى استخدام وفهم كلمات وجمل وعبارات قصيرة بصورة جيدة، والذى أتيحت له فرصة العيش مع كبار عندهم الاستعداد لأن يرووا له حكايات وأن يقرأوا عليه قصصاً وأساطير، عندما يذهب إلى المدرسة يكون وباهتمام كبير ووفقاً لطرق عديدة لغة راقية ويتمكن منها باقتدار، وعلى العكس فإن الطفل الذى يعيش فى أسرة وفى روضة قاصرة من الناحية اللغوية وغير قادرة على تشجيعه ودفعه من خلال تجارب مفيدة، فى «اللغة المنطوقة» فإنه «يصطدم» بالقراءة والكتابة وبالكتاب والكراسى والمعلم والزملاء فى المدرسة الجديدة.

وسوف نوضح فى فصول أخرى بصورة تحليلية كيف أن الأسرة والروضة يمكن أن يساعدا فى إعداد الطفل لغوياً.

الفصل التاسع

اللهجة- اللغة القومية- الجمع بين العامية والفصحى

يؤكد بعض علماء النفس اللغويين وكذلك بعض أولياء الأمور، على إمكانية وسهولة تعلم الطفل للغة أجنبية بداية من رياض الأطفال. ويعود ذلك فى رأيهم إلى سببين: أولهما أن الطفل فى هذه السن يكون مستعداً لذلك، وثانيهما يرجع إلى أهمية تعلم اللغات فى حد ذاته.

وهذا ما يفسر وجود المدارس التى تعلم اللغة الأجنبية منذ الطفولة وخاصة فى مناطق التكدس السكانى. غير أننا مع ذلك نجد البعض يعترض ويتساءل فى قلق عما إذا كان تعلم الطفل للغات الأجنبية فى هذه السن المبكرة لا يعتبر شكلاً من أشكال العجلة وعبئاً على رياض الأطفال.

وغالبا ما ينحصر التفكير فى السياحة والتجارة الدولية ونتيجة لذلك يتم إهمال القيم الثقافية والتقاليد الاجتماعية السائدة.

وبينما يتم الاهتمام بدور اللغات الأجنبية فى مجال التربية فإنه فى الوقت نفسه لايلقى بالا إلى أهمية اللهجة فى حياة الطفل المدرسية والأسرية.

ولقد حللنا فى الفصول السابقة التطور اللغوى فى مرحلة الطفولة، وكذلك العلاقة بين الكلمة والبيئة. وسنعرض الآن لهذه الموضوعات من زاوية أخرى، لنتثبت وتكون لدينا قناعة، عما إذا كانت اللهجة أو اللغة الأجنبية تؤثر فى النضج اللغوى الشامل للتلاميذ الصغار وإلى أى مدى يكون هذا التأثير وتلك الفائدة.

وسنرى كذلك إذا كان بوسعنا أن نعتبر اللغة اللهجة مظهراً أساسيا لدور الأسرة والمدرسة فى تكوين الطفل.

ويجدربنا فى هذا المقام أن نستشهد برأى اللغوى الكبير Giacomo Devoto الذى يقول: "إن معارضة فكرة تعلم اللغات المبكر، رأى صائب واعتراض فى محلة تماما، فعندما نفهم تعلم وأكثر من لغة، بالمعنى الأنقى، فإن ذلك يعنى وجود الإيطالية، والفرنسية، والألمانية، والإنجليزية جنبًا إلى جنب، وهى لغات على نفس المستوى الثقافى فى عقل ونفس الطفل.

أما عندما نجد أنفسنا أمام مشكلة اللهجة واللغة، فإننا فى هذه الحالة نكون بصدد مظهر آخر من مظاهر تعددية اللغات مع الفارق. إذ أننا بدلا من التعددية الأفقية التى نعترض عليها نجد أنفسنا أمام تعددية رأسية. الأمر الذى يجب أن نوليه اهتماما كبيراً وتفكيرا جديا.

الطفل واللهجة

تمثل اللهجة اللغة الأولى للصغار، وذلك عند بداية دخولهم رياض الأطفال. إذ أن اللهجة تعد القاموس اللغوى codice linguistico الوحيد. الذى يعتمد عليه الأطفال فى التعبير عن أنفسهم بطلاقة، والتحدث إلى أقرانهم، وكذلك فى التفكير، وإبداء الملاحظة، والتحليل وغيرها من أنشطة العقل.

فإذا كان دور اللهجة فى المجال الأدبى والتقنى محدودا، فإن لها قدرة تعبيرية وفعالية خاصة فى مجال الحوار والمحادثة، بمعنى أن اللغات القومية تسمح أيضا بالاتصال بمن هو بعيد، فى الوقت الذى تمثل فيه اللهجة أداة لا مثيل لها، فى دعم العلاقات بين الأشخاص داخل الأسرة والبيئة المحلية.

وتعد اللهجة كذلك من الأهمية بمكان للنضج والنمو العقلى لدى الغالبية العظمى من الأطفال.

ويقول Ciro Trabalza تشيرو ترابلسا: «نحن نفكر باللغة التى نعرفها، والأولاد (والصغار) يفكرون بلهجتهم».

إن مفردات اللهجة وتراكيبها محفورة فى الذاكرة، لأن اللهجة هى بمثابة اللغة الأولى التى يتم استيعابها مبكرا، ويكون تلقيها سابقا على ملكة التفكير. وبالتالى لا يأفل نجمها ولا تختفى حتى عندما يتعلم الطفل كيف يفكر بلغة أخرى.

وبعد إبراز قيمة اللهجة فى رياض الأطفال، ضمانا لاستمرار الدور النفسى التربوى بين الخبرة الأسرية للطفل من جانب الخبرة المدرسية من جانب آخر.

وكما يظهر من النشاط التربوى برياض الأطفال الحكومية فإن اللهجة، فى حالات كثيرة، تمثل لغة الطفل الوحيدة، وبالتالى يجب أن يحاط استخدامها من قبل الطفل بالاحترام، لأن الطفل يستمد منها إحساسه بالاستقرار والأمان وهما أمران أساسيان لنموه المتوازن الطبيعى.

وتعد اللهجات جديرة بالتقدير والاهتمام لأسباب أخرى غاية فى الأهمية؛ إذ أنها ليست كلمات ومفردات، وتركيبات فحسب، بل إنها تمثل انعكاسا حقيقيا لثقافات خاصة، وموروثات وتقاليد محلية. كما أنه عن طريق اللهجات يكون الحفاظ على الهوية الثقافية للتجمعات العرقية أمراً يسيرا.

ولقد بزغت اللهجات المحلية واحتفظت بوجودها، ليس فقط لصعوبة وندرة الإتصالات، وانتشار الأمية فى العصور الماضية ونقص وسائل الإعلام، ولكن أيضا لأصالة العادات والتكوين والميراث الروحى للتجمعات البشرية المختلفة. ويعد الحفاظ على اللهجات المحلية وإعلاء قيمتها وسيلة فعالة لوقف تشويه كل ما هو أصيل، وكذلك لتقديم المساهمة الضرورية للثقافة واللغة القومية.

ولقد أوضح جاكومو ديفوتو G.Devoto، فى الدراسة التى سبق أن ذكرناها أن فرنسا قد فقدت منذ أكثر من قرن، كثيرا من اللهجات فى المنطقة الواسعة حول باريس، وأن الأمر قد نجم عنه مولد لهجة هشة لم تدم طويلا. ولذلك يمكننا فهم وتقدير الحماية القضائية للغات غير الإقليمية تلك الحماية التى كفلها[1] دستورنا بنص المادة الثالثة:«كل المواطنين لهم نفس الوضع الاجتماعى على قدم المساواة وكلهم سواء أمام القانون دون تمييز—— من ناحية اللغة» (المادة الثالثة) وكما تنص المادة السادسة كذلك:«تحمى الجمهورية» «اللهجات المحلية» بقوانين صارمة.

ومن المنطقى كذلك أن تصدر فى الأقاليم ذات الوضع الخاص قوانين للدفاع عن اللهجات المحلية على أن تكون هذه الحماية بداية من مدارس رياض الأطفال والحضانة كما يستنتج من القانون رقم ١٣ لسنة ٧٧ والخاص بالمقاطعة التى تتمتع بالاستقلال الذاتى والمعروفة باسم ترنتو Trento «ففى رياض الأطفال الخاضعة للقانون الخاص بالمقاطعة والصادر فى ٢٩ يوليو ٦٧ يراعى حماية العادات والتقاليد اللادينية[2] ladine واحترام الأشكال والصيغ والمفردات التى يتحدث بها التلاميذ».

إن حيوية لغة ما لا تعتمد على ثراء مفرداتها وعلى رصانة أسلوبها وتراكيبها اللغوية وعلى المستوى الفنى لأدبها بقدر ما تعتمد على عوامل أخرى سياسية واقتصادية

---

(١) يقصد به الدستور الإيطالى «المترجم»

(٢) نسبة إلى جبال الألب وسكانها.

وقضائية وثقافية ومدرسية. ويقول اللغوى النمساوى جونتنوم بلانج Guntnom Plang: «إن صعوبة وثراء لغة ما لا يعتمد على قدرتها التعبيرية وبالتالى حيويتها وفعاليتها. بل إن العناصر والأسس الحاسمة تتمثل بالأحرى فى الثقة فى التراث اللغوى والقدرة على الانطلاق نحو تطوير هذه اللغة طبقاً للاستخدام اليومى.

إن إرادة المتكلمين بلغة ما يحيى فقط هذه اللغة بينما الممارسة المستمرة الدائبة والواعية تعطيها القوة».

اللغة القومية:-

تمثل اللغة الإيطالية بالنسبة لكثير من تلاميذ الروضات اللغة الثانية من ناحية الأهمية.

فهى بالنسبة لهم عبارة عن لغة تبثها وسائل الإعلام من تليفزيون وراديو. وهذه اللغة يكتسبها الأطفال بصورة غير منتظمة، ومحدودة، وبطريقة غير سليمة ومشوهة، علاوة على كونها مفردات لا يتكلم بها الأهل داخل الأسرة، وكذلك لا يستخدمها الأطفال أنفسهم.

ومع أن اللغة الإيطالية فى بلدنا تتمتع بالصدارة. من الناحية الثقافية، وإذا ما استثنينا المناطق التى يعترف رسميا بوجود لغتين بها مثل Val d'Aosta,Alto Adige، سنجدها صاحبة السيادة كذلك من الناحية القضائية. فالإيطالية هى دائما- بالتقريب- لغة التفاهم والاتصال فى المدارس، وفى الصحف، وفى المجلات، فى الكتب، وفى الخدمات، وفى السلك الوظيفى وعلى الرغم من ذلك، فإنه لا يجب تنحية وتهميش اللهجة فى الحياة اليومية، وفى المدرسة وفى الأدب كذلك، وإذا ما أردنا أن نوضح الفارق بين اللهجة واللغة علينا أن نشير إلى ما كتبه بيليو فرونزاروليPelio Fronzaroli الذى كتب يقول: «لاتكتسب لهجة ما الحق فى أن تسمى لغة إلا إذا أوفت بحاجات اللغة، العائلية، العادية، التقنية، والأدبية».

ولقد كانت المدرسة الابتدائية إلى ما يقرب من عشرين عاماً مضت تعتبر مسئولة مسئولية مباشرة عن القضاء على اللهجات، إلى حد أنه كان يعد نجاحا باهرا للمعلمة أن تبرهن على أن الأطفال وهم يلعبون فى ميدان البلدة الفسيح (ساحة القرية) يتكلمون الإيطالية.

ولكن اللهجة وما تحمله من قيمة عاطفية ووجدانية، تربط المتحدث بمسقط رأسه، ومرتع صباه، وهى كذلك تساعد الفرد على الانتظام فى سلسلة تواصل الأجيال ومن ثم فلها قيمة تربوية عميقة.

وإذا كان من الظلم بمكان إبعاد والقضاء على اللهجة فى حياة الكبار فإنه سيكون ظلما، وضرراً محاربتها فى مرحلة الطفولة. بل إنه من الواجب اجتماعيا، ومن الصحيح تربويا مساعدة الأطفال جميعهم على تجويد وتحسين استخدامهم للغتهم الأولى سواء كانت اللهجة أم اللغة القومية ومساعدتهم، فى مرحلة تالية، على تعلم اللغة الثانية القومية كانت أم اللهجة.(١)

ويؤكد رينزو تيتونه Renzo Titone أنه إذا كان هناك تطابق وتوافق فى وجهة النظر بين علماء النفس اللغويين الدارسين للتعددية المبكرة، فإن هذا التطابق شبه الإجماعى فى الرأى يبرز سهولة تعلم لغة ثانية متزامنة مع اللغة الأولى فى الفترة الواقعة بين بداية إهلال الطفل بالكلام والعام الثامن من عمره.

ويجدر بالذكر- فى رأينا وكما سنوضح فيما بعد- أن سهولة التعددية المبكرة لا ينظر إليها بمقياس لغة أجنبية، بقدر ما يكون ذلك بالنظر إلى اللهجة المحلية.

وتعلم الطفل للغة واللهجة معا يساعد على الاتصال بين الأشخاص، وعلى التعبير البسيط، كما أنه سينمى النضج العقلى لدى الأطفال، ويعطى دفعة لاستمرارية الخبرة داخل الأسرة جنباً إلى جنب مع الخبرة المدرسية.

ويجب على المعلمة، بناء على ما تقدم ذكره، أن تعمل على استكمال وتجديد المهارات اللفظية الخاصة باللهجة، وأن تعمل من الناحية الأخرى على تنمية المهارات اللغوية الخاصة باستخدام اللغة القومية، على أن تتم هذه الخطوة تدريجيا.

ومما يجدر التأكيد عليه فى هذا المقام أنه يتعين على المربية، كما فى المناطق التى يتكلم سكانها اللغة واللهجة، يتعين عليها أن تكون على دراية بلهجات التجمعات العرقية التى ينتمى إليها الأطفال، حتى يتسنى لها التفاهم مع الأطفال.

ويجيد الطفل اللغة واللهجة معا، فى وقت قصير، ودون فرض أمور شاقة عليه، إذا ما توافرت للغة «الثانية» ظروف مواتية، شبيهة بالتى توفرت للغة الأولى.

---

(١) يعنى الكاتب هنا أن اللغة واللهجة وجهان لعملة واحدة، وبالتالى إذا كانت بيئة الطفل تتحدث اللهجة فيجب مساعدة الصغير على التمكن من هذه اللهجة ثم بعد ذلك العمل على إلمامه بالفصحى وبالعكس...

وقد أكدت الخبرة التى أكدتها البحوث النفسية اللغوية الحديثة أن الطفل الصغير يتعلم لغته الأولى عن طريق سماعه لحديث الآخرين وخاصة الأم، وعن طريق ملاحظته للأشياء والأحداث، وكذلك وهو يلعب بتلقائيته، ويتعامل مع الأشياء، وأيضا عن طريق محاولته التعليق بالكلمة على الأحداث والأشياء التى يراها أو تقع له. وهو فى ذلك كله يحاول تقليد الأطفال الأكبر سنا أو إخوته الكبار، الذين يترجمون تجاربهم الشخصية إلى كلمات.

ويحدث فى المراحل اللاحقة من عمر الطفل، ما حدث فى طفولته الأولى وهو أن الكلمة (المسموعة أو المنطوقة) والتفكير، والحياة الاجتماعية تتفاعل فيما بينها بالتأثير المتبادل.

ومن الممكن والواجب إذاً محاولةتحقيق هدفين معا:- أولهما الأخذ بيد الطفل إلى الاستخدام الأمثل للغته الأولى أى فهمها تماما والتحدث بها بطلاقة، وثانيهما إرشاد كل طفل رويدا رويدا إلى استخدام وإجادة لغة ثانية، عن طريق فهمها أولا ثم التحدث بها فى المقام الثانى.

ويمكن تحقيق الهدفين- كما يقول م. ديبيس M.Debespes. عن طريق «غمس الأطفال فى حمام مزدوج» نقصد بالحمام الأول هنا الحياة التى يعيشونها، والآخر هو مجال لغة الكلام المفهومه أو المتحدث بها، ويمكن الرد على من يدّعى أن للهجة تأثيراً سلبيا على تعلم اللغة القومية بأن العقبات الحقيقية فى سبيل تعلم اللغة القومية تتمثل فى قلة الحافز وفى الأخطاء المنهجية التى أشرنا إليها فى الفصلين السابقين، وأنه يجب ألا ننسب هذه العوائق والعقبات للهجة.

إن اللهجات المحلية ليست أقل من اللغة القومية من الناحية التربوية والاجتماعية، لأن كلتيهما لها مميزاتها الخاصة والرئيسية، بل إن تكامل اللهجات فيما بينها يسمح بمدى أكثر للاتصال.

إن التلميذ الصغير وهو يقابل لهجته باللغة القومية، يجتاز «الواقعية اللفظية». ويدرك أن الكلمة لا تخرج عن كونها رمزا للأشياء. وإذا ما أدخلت المدرسة اللهجة المحلية فى إعداد برامجها التربوية فإنها بذلك تسهم بقوة وفعالية فى الحفاظ على الثقافة والتقاليد. والتراث الخاص بالأقاليم المختلفة والتجمعات السكانية الصغيرة.

علينا هنا أن نشير إلى ما قاله G.Devoto إذ قال: «إن اللهجة هى الشئ الوحيد الذى يمكننا أن نعول عليه، دون خوف من الخطأ. وإننى أرجو ألا ننظر إلى اللهجة على أنها خطر جسيم يجب مواجهته.

وإننى أحترم كثيرا المدرسة التى تعمل على التعايش بين اللهجة واللغة القومية. لا المدرسة التى تحارب اللهجة.

التعددية اللغوية والجمع بين اللغة القومية واللهجة

لقد عرّفنا الاستخدام المتزامن أو المتتابع للغتين بالتعددية، لأن اللهجة التى يستخدمها الصغير لا تختلف كثيرا (فى الأساس) عن اللغة الإيطالية، وذلك من وجهة نظر علم النفس التربوى.

وإنى أعتقد أنه من المناسب، وذلك بغرض الإيضاح واكتمال الحديث، تحديد الفرق بين التعددية والجمع بين اللغة واللهجة، إذ يعرف اللغوى الايطالى luigi Helmann الجمع بين اللغة واللهجة بأنه موقف لغوى ثابت نسبيا يستخدم فيه كوظيفة إضافية- لهجات بدائية. وكذا يستخدم مع هذه اللهجات شكل لغوى ذو مستوى أعلى.

فالدرجة الأدنى (اللهجات) تستخدم كلغة محادثة فى إطار العائلة والأصدقاء واللقاءات غير الرسمية، أما الشكل الثانى ذو المستوى الأعلى فيستخدم كوسيلة اتصال مكتوبة، وفى السياقات الرسمية.

أما لفظة التعددية فتعنى قدرة الأفراد أو التجمعات داخل المجتمع على التفاهم فيما بينها بلغتين أو أكثر.

ويضيف هيلمان أن التعارض بين اللغة واللهجة لا يرجع إلى مفهوم لغوى وإنما إلى سبب اجتماعى وثقافى، ومن ثم فإن المشاكل فى الاتصال بين اللغات هى نفسها سواء فى حالة التعددية أو الجمع بين الفصحى والعامية.

ويمكن تقسيم الأطفال- إذا ما وضعنا فى الاعتبار التعريف السابق -إلى ثلاث مجموعات متباينة من ناحية الكم: مجموعة تضم الأطفال الذين يعيشون فى بيئة ذات لغة واحدة، (اللهجة أو اللغة)، والثانية تضم من يوجدون فى بيئة تتميز بالجمع بين اللغة واللهجة، لأنهم فى المنزل أو فى المدرسة أو فى كليهما معا، يحاولون التحدث وممارسة اللهجة المحلية

واللغة القومية، وفى نهاية الأمر نجد المجموعة الثالثة التى تضم من يعيشون فى بيئة تتميز بالتعددية الحقيقية مثل العائلات التى تستخدم لغتين نظرا لأن الوالدين من جنسيتين مختلفتين أو يسكنان مناطق بها تعددية لغوية كما هو الحال فى Bolzano-Trieste-Aosta.

ويوجد فارق آخر يميز بين التعددية الطبيعية لدى الأطفال الذين يعيشون داخل عائلات وبيئات تتميز بالتعددية كما هو موجود فى المثال السابق ذكره، والتعددية الجبرية المصطنعة التى يراد فرضها على التلاميذ الصغار فى رياض الأطفال بميلانو وروما ونابولى وبالرمو، وهكذا إلخ، وذلك عن طريق دروس اللغة الأجنبية المشكوك فى جدواها وفعاليتها، على الرغم من الوسائل التعليمية المتطورة للغاية، ورغم اعتمادها على طابع اللعب الذى يفضله الطفل.

وفى الحالة الأولى فإن مرونة الطفولة تتيح للطفل أن يتعلم لغتين بصورة جيدة بشرط أن يتم اتباع المعايير الآتية: أولا جعله يتعلم وقبل كل شئ، اللغة الأولى بالنسبة له بما أنها لغة الحوار التى تتكلمها الأم، وهى السائدة فى البيئة المحلية. ثانيا إشراكه فى حوار مع شخص يكون من بيئته، طبقا للمبدأ الذى حدده الخبراء «شخص يمثل لغة». كما يوضح ذلك الدو اجاتس Aldo Agazzi قائلا: «لكى نتصدى لدراسة لغة أخرى، يتعين علينا أن نقوى لغتنا أولا عن طريق علاقات المماثلة (مع الأقران) ثم بعد ذلك ننطلق إلى تعلم اللغة الأخرى».

التعددية المبكرة

لاشك أن الطفل لا يستخدم لغته الثانية إذا لم يتوفر له الحافز المناسب، بينما ينطلق إلى استخدامها وتعلمها إذا تم تشجيعه على ذلك.

ويمكن أن نوضح هذه الفكرة بمثالين نستمدهما من واقع الخبرة الحقيقية (التجربة الملموسة). ففى إحدى الروضات فى ترنتو Trento تقوم مدرسة ألمانية بتدريس لغتها سواء لمجموعة من التلاميذ النمساويين أو للأطفال الإيطاليين، ولكن عندما يقل عدد الأطفال النمساويين يفتر الحافز لاستخدام اللغة الألمانية سواء لدى أطفال ترنتو أو أترابهم الذين تمثل الألمانية لغتهم الأم، بل وعند المعلمة نفسها. وعلى العكس من ذلك تماما، فلو أن طفلا ولد فى روما ويستطيع أن يتحدث الإيطالية بدقة، لو أنه دخل روضة أطفال بـ وادى- فاثا Val di Fassa فسيشعر على الفور بالحاجة إلى تعلم اللاتينية، وسيطلب العون فى سبيل ذلك، من المربيات ومن أقرانه الذين ينتمون إلى هذا الإقليم.

فكل شكل من أشكال العجلة فى مجال التربية تكون له مضاره مثله مثل عدم النضج والقصور.

وتأتى العجلة كنتيجة للطموحات الجامحة، وعدم الكفاءة التربوية لدى الكبار، وكذلك التعميمات غير الملائمة بمعنى توهم إمكانية فرض تجربة رائدة مثلا على رياض الأطفال، أو مثلا إمكانية تطبيق ما نحاول تحقيقه فى المناطق ذات التعددية فى قطرنا- فى سائر أجزاء بلدنا، دون عناء ودون أخطاء.

ويكون تعليم الطفل للغتين قبل أوانه، فى حالة ما إذا كان الطفل صغيرا جدا، أو عندما يفرض عليه ذلك، فعندئذ يكون التعليم غير تلقائى ويعطى، من ثم، ثمارا وقتية ومحدودة، سواء لقلة الأدوات أو الحافز. وليس ذلك فحسب بل قد تؤدى العجلة فى هذا المقام إلى أضرار لغوية، وإلى عقبات فى سبيل النمو العقلى للطفل، وإلى اضطرابات عاطفية كذلك.

أما التعددية المبكرة المرجوة فتكون ممكنة ونافعة فى العائلات التى تتكلم لغتين أو أكثر أو فى المدارس الواقعة فى مناطق تتميز بالتعددية ولكن بشروط محددة أسلفنا ذكرها.

كما أن التعددية المبكرة يمكن أن تفيد الطفل خاصة فى المنازل التى تتحدث لغتين، وذلك إذا كان المناخ التربوى للعائلة جيدا، وإذا كان السلام العائلى والدفء العاطفى موجودا وسائدا بين أعضاء تلك الأسرة، وإذا كانت الفرصة متاحة للطفل لاستخدام ولممارسة ما تعلمه خارج محيط الأسرة.

وعلى العكس من ذلك، تكون التعددية المبكرة سببا فى صعوبات لغوية إذا تمت فى بيئة مليئة بالمشكلات التربوية، ومناخها غير موات، لنمو الطفل الطبيعى المتوازن، وفى هذه الحالة يسارع الوالدان بإلقاء التبعة واللوم على التعددية بدلا من أن يلوموا أنفسهم وقلة خبرتهم.

ويمكن توجيه الطفل إلى تعلم لغة ثانية، إذا كان يعيش فى عائلة تتميز بالتعددية، ومرتبطة عاطفيا، وتعيش فى منطقة هى الأخرى تتميز بالتعددية، على أن يكون ذلك التوجيه مشروطا بأن نتذكر جيدا أنه لكى نقوى معرفته اللغوية؛ يجب الاستخدام الدائب لهذه اللغة.

أما بالنسبة لرياض الأطفال فى الأقاليم التى ليس بها تعددية، نذكر فيما يلى ما

أورده لورانس لنتين Laurence lentin الذى يقول: «يبدو لنا فى ظل الظروف والأوضاع الحالية، أن فكرة إدخال لغة أجنبية كالإنجليزية والألمانية مثلا، فى الأقسام المتوسطة والعليا من رياض الأطفال، تحتاج إلى نظر وفكر، إذ أن مشكلة إجادة اللغة الأم لم تُحل بعد لدى غالبية الأطفال الذين يماثل عمرهم عمر أطفال هذين الفصلين. ويجدر بنا أن نضيف إلى تحفظات الكاتبة الفرنسية أنه بالنسبة لكثير من الأطفال الذين تم غمسهم فى «حمامين لغويين» بقوة متفاوتة (حمام اللهجة وحمام اللغة القومية) سيصبح تعليمهم لغة أجنبية فى سن مبكرة نوعا من (التعددية الثلاثية) (أى التحدث بثلاث لغات) الأمر الذى سيؤدى إلى صعوبات جمة.

أما بالنسبة لرياض الأطفال بالمناطق التى بها تعددية ثنائية فستصبح المشكلة أكثر تعقيدا، وقد يأتى حلها من خلال سلسلة من الأبحاث والدراسات التربوية المقارنة.

وأرى أن نذكر فى هذا المقام ما كتبه EzioTonolli وهو موجه برياض الأطفال بـ Alto Adige حيث يبرز فى حديثه «الأهمية القصوى لإعداد تصورات معدة إعدادا جيدا ومسبقا للغة الثانية بعناية تامة وحزم فائق، على أن نبحث جيدا خطة العمل، والوسائل المنهجية، وكذلك يتم تحديد جدول العمل اليومى والأسبوعى، ويتم حل مشكلة اختيار المعلمين، وإعدادهم إعدادا جيدا، مواكبا لعصرهم الذى يعيشون فيه، مع التركيز على الوسائل التعليمية المتطورة، الصوتية- البصرية، ويتم رصد النفقات الضرورية لذلك كله، وتحدد كذلك الطريقة والوقت اللذان يتم فيهما بحث النتائج.

اللغة الواحدة والتعددية والجمع بين اللغة واللهجة فى رياض الأطفال

تصبح الروضة ذات لغة قوميه فقط أو لهجة فقط، عندما تحارب اللهجة، أو عندما لا تأخذ على عاتقها تعليم اللغة القومية للأطفال الذين يجهلونها.

وتتميز المدرسة- بالجمع بين اللغة واللهجة- عندما تعتبر اللهجة عنصرا لغويا له كيانه «وإن كان أقل من اللغة القومية» ومن ثم تدعمه، وليس ذلك فقط بل يجب على المدرسة أن تعتبر اللهجة عاملا لا يجب إغفاله، لنضج الطفل، وتكون المدرسة متصفة بالتعددية عندما تهتم بلغتين على قدم المساواة.

ويوجد لدى الآباء والأمهات قناعة تامة بأن اللهجة المحلية يجب أن تستخدم فقط فى المنزل وفى اللعب، وفى الحوار مع زملاء الدراسة، بينما يجدر بالمعلم أن يجعل لغة الحوار بينه وبين الأطفال، أو فى الأنشطة التى يقود الأطفال فيها، اللغة القومية.

ونحن لا ننكر هذا الرأى الذى يشارك الآباء والأمهات فيه المربيات والأطفال أنفسهم، لأنه يركز على بعض الأسس، بيد أننا نود أن نقول أن ذلك الأمر سيخلق عقبة خطيرة فى سبيل تعليم لغة ثانية، للأطفال فى هذه السن الخصبة فى رياض الأطفال.

ويجب فى المرحلة الأولى السماح للطفل باستخدام لغة موطنه، وفيما بعد يلزم حثه ومساعدته على أن يحلل ما يراه، ويتحدث عن الأنشطة المختلفة باللغة الأخرى غير لغته الأصلية، حتى يشب الطفل وهو يستخدم بثقة وطلاقة، أو بصورة ملائمة على الأقل، كلتا اللغتين.

ونظرا لوجود بعض التلاميذ غير الناضجين لغويا، أو غيرهم ممن يميلون إلى الصمت، يجب على المعلمة- فى المقام الأول- المبادرة إلى علاج سريع لكل منهم، ذلك العلاج الذى يكمن فى التحدث اليهم بلغة موطنهم بل وتشرك معه أطفالا آخرين طليقى اللسان، يجيدون لهجة الطفل، ويكونون مستعدين لمساعدة زملائهم، ويجدر بالمعلم أن يستخدم اللغة الثانية، مع الأطفال الذين أجادوا بالفعل اللغة الأولى، ومن المناسب كذلك تشكيل مجموعات من الأطفال على أساس اللغة القومية أو اللهجة، حتى يستطيع كل منهم التمرس على فهم واستخدام اللغة الثانية عندما تمتزج المجموعات وتتحاور فيما بينها.

الفصل العاشر

«التربية اللغوية للطفل داخل الأسرة»

أثبتت الأبحاث العلمية الإنسانية، أن الأسرة هى المكان الأمثل لتربية الطفل ولتكوينه عاطفيا، وهذا هو الرأى السائد بين الناس، بيد أنهم يجهلون أو ينسون دور الأسرة فى تكوين الطفل لغويا.

ولقد ذكرنا فيما سبق، أنه إذا كان الطفل- غالبا- ما يبدأ استخدام الكلمة بمعناها بداية من عمر اثنى عشر شهرا، فبالتالى يمكنه فى العام الأول من حياته أن يتفاعل مع عالم الأصوات والضوضاء التى يسمعها. الأمر الذى يعتبر المقدمة التى لا غنى عنها لتعلمه الكلام.

ومن ثم، تعد الأسرة التى يمضى الطفل فى أحضانها سنى عمره الأولى، المدرسة الأولى والرئيسية للغة الطفل.

دور الأسرة الرئيسى

يُطلق على لغة الإنسان الأولى التى يكتبها «اللغة الأم» لأن الظروف الأساسية والمؤثرة لاكتسابه هذه اللغة منذ طفولته، هى ما أسماه جون بولبى John Bowlby «حنان الأمومة».

ففى أحضان البيت يكتسب الطفل أولى خبراته الصوتية من خلال البكاء، والصراخ والمناغاة[1]، ويدرك كذلك بصورة مشوشة بعض الشئ، الكلمات والأصوات والضوضاء، ورويدا رويدا يبدأ فى إدراك وجود علاقة جسمية بين ما يسمعه من أصوات مختلفة وبين بعض الظروف والمواقف فى البيئة التى يعيش فيها.

وتعد الأم المعلمة الأولى للغة الطفل، سواء من ناحية الزمن أو من ناحية الأهمية. فهى تدخل فى حوار بسيط مع مولودها الجديد، ذلك الحوار من النوع الخاص الذى ينتقل بعد ذلك إلى حوار بالحركات مع الكلام. فالأم تراقب سلوك طفلها باهتمام بالغ، للتأكد من وجود أو عدم قصور فى الجهاز التنفسى، أو الصوتى، فى السمع أو فى البصر. وتحوز الأم من

---

(١) ناغى الطفل: أى تكلم بلغة وكلام لا يفهم.

هنا قصب السبق فى التربية اللغوية للطفل، ولكنها لا تحتكر هذا الدور، إذ سرعان ما ينضم إليها الأب، والأجداد والإخوة، وأقارب آخرون، وأصدقاء العائلة.

ويؤكد اللغوى الفرنسى البارز مارسيل كوهين Marcel Cohen: «يتمتع الأطفال بأفضل ظروف للنمو، واكتساب اللغة خاصة، عندما يتم رعايتهم بدأب وتفان منقطع النظير، وبهدوء تام، من جانب الوالدين أو من يقوم مقامهما. ومن الأفضل أن يكون الوالدان ومن يقوم مقامهما مؤهلين وعلى علم بهذا الواجب، ليس فقط من خلال المعلومات النافعة لصحة الطفل، ولكن بأن يتخلصوا من العادات الموروثة المفسدة والأفكار البالية».

وعلى العكس من ذلك، ففى كثير من الأحيان، نجد الأطفال الرضع الذين تربوا فى دور الحضانة[1] asili nido عندما يناغون، نادرا ما يضحكون، ولهم وجه غير معبر تقريبا، لأن العلاقات الأولى بين أشكال اللغة (الكلام- الكلام مع حركات الجسم والوجه) لم تلق تشجيعا من قبل المربى.

ويؤكد ذلك الأمر إيرين ليزين Irene Lezine بقوله عند زيارة إحدى دور الحضانة، نجد أن الطفل يعيش فى ظل ظروف صحية هائلة، بيد أنه لا يجد تشجيعا على الكلام، إذ أن المربيات عند ما يتعاملن مع الأطفال، لا يعرفن ولا يجدن التوجه إليهم بشكل يمكن أن يذكرنا بعض الشئ «بحنان الأمومة»، بل ومن الأمور المتكررة والعادية أن يمضى طفل ما يوما كاملا دون أن ينطق بكلمة واحدة، ولا يثير ذلك قلق ولا تساؤل أحد.

إن تخلف الطفل (اللغوى)، أقصد الطفل الذى تربى فى الحضانة، يعود فى المقام الأول إلى عدم ملاءمة الظروف الاجتماعية التى تشجعه وتساعده على التحدث مع الكبار».

إن الطفل الصغير يعبر عن آلامه بالبكاء والصراخ، ويعبر عن حاجاته بالإشارة أو التوسلات، ويناغى بطريقة تعتمد على الحركة والحواس، ويقلد بدقة أصوات الألفاظ التى يلتقطها من المحيطين به بحكم العادة.

وعلى الرغم من ذلك لو لم تشجع طرق التعبير عن النفس لدى الطفل فإنها ستصاب بالخلل وتتأثر سلبياً إذا لم نجد الظروف الملائمة مثل (الحياة داخل الأسرة) البيئة الهادئة والجو الملائم فى أحضان المنزل حيث يبدأ الطفل فى سماع وتمييز صوت الأم وسائر أفراد

(١) asili nido تستقبل الطفل من مولده حتى ثلاث سنوات.

الأسرة وكذلك يبدأ فى تمييز صوت الأجهزة الكهربائية من مذياع وتليفزيون صوت رنين الجرس وصفق الأبواب وصوت الخطوات والأوانى وكذلك تمييز صوت الحيوان الأليف داخل المنزل.

وتوفر البيئة الهادئة نسبياً لدى الطفل قدرة على الادراكات السمعية الدقيقة، بينما يساعد التعليق اللفظى على الظواهر الصوتية المختلفة (كفتح الباب إذا عاد الوالد) يساعد الطفل على التمييز بين الأشياء المختلفة عن طريق الفعل وتكسبه الخبرة على اكتشاف العلاقات بين صوت ما وبعض الأشياء والأحداث، وبهذه الطريقة يبدأ انتقال الطفل من مرحلة استخدام الكلمة المنغمة التى تصدر عنه أو التى يسمعها إلى مجال الكلمة التى تتبعها فكرة.

وفهم الطفل لمعرفة أسماء الأشياء يتم إشباعه داخل العائلة أفضل من أى بيئة أخرى لأن الوالدين والأجدادفى كثير من الأحيان يعبرون عن الأشياء باللفظ وبمسمياتها، وكذلك التعبير عن الأحداث التى يعيشها الطفل بوضوح وصبر. كما أنهم يردون بسعادة غامرة على أسئلته بل ويقيمون مع الطفل حوارات حية. ويسمعون أحاديث الطفل الطويلة مع نفسه وهم فى غاية السعادة.

ولقد ذكرنا فيما سبق أن المخزون اللفظى يكون واسعاً أو محدوداً بالنسبة لنوع العائلة التى ينتمى إليها، وكذلك أيضاً بالارتباط مع مستوى نضجه والعلاقه بين عمره العقلى وعمره الزمنى. ويبين ذلك داريو فارن Daris Varin بقوله: «إن الطبقة المتوسطة والعاملة تختلف إختلافاً رئيسياً فيما بينها فى استخدام اللغة وفى استعداد الأمهات للإجابة على أسئلة أولادهن فامهات الطبقة المتوسطة يجبن على أكبر عدد من أسئلة أطفالهن ويعطين إجابات متأنية مزودة بكم كبير من المعلومات. وهن يتجنبن فى عرضهن للإجابة الألفاظ الصعبة، ويملن إلى الألفاظ السهلة البسيطة».

ورغم ذلك، فقد أوضحنا أنه لا توجد علاقة محددة بين الظروف الاجتماعية والاقتصادية لطفل ما وبين نضجه اللغوى، لأن ذلك يتوقف قبل كل شئ على النمو العاطفى وعلى الخبرات الحياتية لكل عائلة، وكذلك يعتمد النضج اللغوى على ثراء الحافز والدافع أقصد تشجيع الطفل على الكلام، فعلى سبيل المثال- وبمعنى آخر- لو أن طفلا لمزارعين يتكلمان اللهجة فقط، ولكنه محاط بحب والديه ورعايتهما له، يمكن أن يكون هذا الطفل مؤهلا أكثر من الناحية اللغوية، وأكثر نضجا من نظيره الذى تركه والداه خريجا الجامعات، لساعات طويلة أمام جبل شامخ من اللعب أو أمام جهاز التليفزيون.

ولقد تحدثنا لهذا السبب- فى الفصل الرابع- عن بطلين لفيلم «شجرة الأشرار» وهما الجد والحفيدة وكلاهما منهمك فى زراعة الطماطم قبل أوانها، وهما مستغرقان فى حوار محدود وضيق، عن العمل الذى يقومان به. ولذا فإن اللغة التى يتعلمها الطفل فى طفولته الأولى، واللغة التى يشجع على التحدث بها، يمثلان أهمية قصوى لكل حياته ووجوده. فالطفل الذى يعانى من الحرمان العاطفى، يصبح عدوانيا، كما أن الطفل الذى لا يمتلك لغة محددة سيكون غير قادر على التفكير بصورة صحيحة، وعليه أن يقنع بدور أقل، ومكانة إجتماعية متدنية، وخلاصة القول أن ثراء لغة الطفل يرتكز مباشرة على بيئته الأسرية.

أسس ووسائل التربية اللغوية داخل الأسرة

إن فهم اللغة- كما نعلم- أمر سابق على التحدث بها. ولكن الفهم والتحدث يتفاعلان فيما بينهما، فالمولود الصغير يسمع صوت الناس، والضوضاء من حوله، ثم يحاول بعد ذلك تقليد هذه الأصوات، وهو فى ذلك متأثر بالبيئة الحية بالأصوات من حوله.

ومن الضرورى إذاً أن تتكلم الأم باستمرار وبود ولطف مع صغيرها. وياحبذا لو أسمعته بالطريقة الملائمة وفى الوقت المناسب، أصواتا مختلفة، ومن الأفضل أن تصحب ذلك بابتسامة ونظرة تجذب انتباه الطفل، ومن الأفضل كذلك أن تقود الأم صغيرها، عن طريق الكلمة- إلى إدراك الظواهر السمعية والصوتية المختلفة والتمييز بينها.

ولا نغفل هنا دور اللعب التى لها صوت إيقاعى، والأصوات والنغمات المتباينة فى أغانى الأطفال، وأدوات الطعام، والعبارات ذات النبرة المختلفة، فى زيادة قدرة الطفل السمعية. بل إن الطفل الأصم فى الشهور الأولى من حياته يسلى نفسه بإصدار أصوات غير محددة، ولكنه شيئاً فشيئاً يتخلى عن ذلك لأنه يفتقد الحافز الذى يكمن فى إدراكه المباشر للأصوات التى يصدرها، وكذلك لا يلقى تشجيعاً بالكلام ممَّن هم مثله، وعلى العكس تماماً فإن الطفل يستمتع بسماع نفسه وسماع الكبار الذين يقلدون مناغاته ويشجعونه على الكلام، ومن ثم فهو يمضى فى المناغاة محاولا أن يقلد الأصوات البسيطة والكلمات وبعض المقاطع وكذلك بعض الأصوات الصادرة عن البيئة حوله. ومن هنا فإن بإمكان أفراد العائلة أن يساعدوا وينموا ملكات الطفل اللفظية بتشجيعه على تقليد أصوات الحيوانات المعروفة لديه وعلى إصدار الأصوات المألوفة لديه (تك تاك) "تف تف"، وكذلك مساعدته على التعبير

عن الأشياء الرئيسية التى يلاحظها؛ وذلك عن طريق الكلمة مثل التعبير عن سقوط شئ بكلمة (بم) وكالتعبير عن ضرب الأشياء باليد أو بعصا أو نحو ذلك بكلمة(بَم. بَم) والتعبير عن الجهد المبذول للنهوض (أوبًا). ومن المهم كذلك والممتع أيضاً التعليق اللفظى الذى يقوم به الوالدان وبقية أفراد العائلة حول الخبرات التى يكتسبها الطفل بأن يكون مشاهداً لها ويكون طرفاً فيها «الشربه جاهزة» «الآن أمسك أنفك بالمنديل» «خذ العروسة اللعبة» «البس حذاءك لأننا سنخرج للتمشية» وبسماع الطفل لترجمة الألفاظ والمفردات اللغوية للأشياء التى يعيش بينها فإنه يكتشف بهذا الشكل العلاقة الموجودة بين الكلمة والحقيقة ويتعلم كيف يميز بين الأشياء المختلفة والتمييز بين دلالات الكلمات على أساس نغمتها، ويتم تشجيع الطفل ودفعه إلى تمييز أجزاء جسمه وملابسه، وكذلك التعرف على محتويات المنزل. ويوضح هذا الكلام ما قاله إيرا جوردن Ira Gorden بقوله تكلموا مع الأطفال بصوت مرتفع عن كل الأشياء التى يرونها أو تفعلونها. علموهم أن كل نشاط وكل شئ له مسمى، وإذا حاولتم أن تكلموهم بتمهل ووضوح فإن الفائدة التى يحصل عليها الطفل ستكون أكثر نفعاً وها هو مثال يبين أن الشئ الذى تفعلونه كل يوم يمكن أن يكون فرصة جيدة لمخاطبة الطفل. فمثلاً عند إعادة ترتيب حجرة ما اشرحوا له بوضوح كل ما تفعلونه وتأكدوا أن الطفل يهتم بما تقولون فإذا ما تحدثتم إلى الطفل فإنه سيهتم ولاشك بكم وبكلماتكم. فرددوا عبارات كهذه!

- انظر يا صغيرى إننى أضع قطعه الخشب فى الصندوق.
- هأنذا أضع واحدة حمراء والآن أضع إلى جوارها واحدة زرقاء.
- والآن أضع الصندوق على الرف.

وإذا رغب الطفل فى مساعدتكم فى العمل يكون أفضل وفى هذه الحالة يمكنكم أن تكلموه عما يفعله هو:

- أنت الآن تضع البلايات فى العلبة.
- أنت الآن تجمع الكتب.

وسيجد الطفل سعادة ولذة لكونكم تحدثونه عما يفعل عما تفعلون، وسرعان ما سيبدأ فى التجاوب معكم والرد عليكم. وأمر بدهى أن الطفل عندما يبدأ فى التعليق على عمله أو عمل الآخرين فإنه يحاول أن يصف الموقف فى بداية الأمر بعبارات موجزة خالية من أدوات التعريف وحروف الجر. «وصل الأب» «أكل تفاحة» «ماء على الأرضيه».

من المناسب هنا أن يكرر الوالدان العبارة مع إكمالها حسب ما يسميه روجر براون Roger Brown «البسط والزيادة» فمثلاً «وصل الأب مادام جرس الباب يدق» «واغسل التفاحة قبل أن تأكلها ولا تنس أن تلقى البذر فى سلة المهملات» «يوجد ماء على الأرضية لأن زجاجة المياه انسكبت». والحقيقة أن طريقة البسط هذه التى تكمن فى تكملة ما يقوله الطفل هى طريقة فعالة للتعجيل بانتقال الطفل من اللغة المرتجله إلى الكلمات المرتبة والجمل المفيدة.

وبالمثل عندما ينطق الطفل الكلمات بصورة خاطئه مثل مكسول بدلاً من مكسور أو مثلاً أشلب بدلا من أشرب عندئذ من الضرورى أن يبادر الكبار بأن يقدموا للطفل النموذج الأمثل للكلمة التى نطقها بصورة خاطئة وهو يظن أنها صحيحة.

وغالباً ما يكون التصويب وتصحيح الكلمة مؤدياً بالطفل إلى تعديل وتحسين لغته حتى وإن كان ذلك يتم بصورة تدريجيه. إن أغانى الأطفال التقليدية والأناشيد القصيرة والأغانى التى يصحبها لحن لا تساعد فقط على تقوية حبه للكلمة المنغمة التى تميز طفولته الأولى ولكن تساعد كذلك وبصورة تدريجية على تصحيح عيوب النطق عنده وعلى تخفيف حدة ظاهرة التلعثم عنده.

ولمساعدة الطفل على تمييز الاشياء والمسميات ولزيادة ثروته اللغوية ولتسهيل استخدامه للألفاظ بصورة ملائمة ولخلق ظروف مواتية للحوار يكون من الأفضل اللجوء إلى الصور المرسومة والمصورة: فإن طريقة الصور تخلق فى الطفل وتوقظ فيه خبراته المباشرة وتوسع أفقه، كما أنها توقظ فى الطفل ملكة التعليق على الأشياء وتساعده على القراءة كذلك. ورغم أن استخدام الأشياء المرئية يعد عاملاً هاماً لنمو تفكير الطفل القائم على الصورة، ولكن يجب أن يتكامل مع وسيلة الصور وسيلة أخرى هى الحكايات التى تبدأ قصيرة جداً ثم تطول شيئاً فشيئاً، وذلك إذا أردنا أن يكون لدى الطفل نضج فى مجال التفكير الرمزى.

وينصح بأن تكون وسيلة الحكاية فى فترة الطفولة الثانية ونظراً لأن الحكاية تتطلب استعداداً وقدرة لدى الكبار علاوة على المهارة الروائية فى الإلقاء أصبح الاتجاه القوى اليوم هو اللجوء إلى الأسطوانات والكتب المصورة المصاحبة لها.

كل هذه الوسائل الحديثة المتطورة صالحة من الناحية التربوية شريطة ألا تكون بديلاً عن الكلمة والحوار مع الطفل داخل الأسرة. وبعبارة أخرى، عندما يشعر الطفل بنشوة الاستماع للحكايات الموحية بصوت والديه ويلح فى إعادة سماعها مرات ومرات، يكون من المفيد هنا استخدام الأسطوانات والأجهزة.

وتعتبر كلمات إحدى الأمهات الفرنسيات معبرة وواقعية فى هذا الصدد حيث قالت: «إذا كانت الحدوتة تشكل دائما متعة للطفل فإنها ليست كذلك بالنسبة للكبار الذين تشغلهم متطلبات الحياة اليومية. فالاجداد غالبا ما يكونون مشغولين فلا يستطيعون الوفاء بذلك، اما الآباء فلكونهم متعبين، ينتهى بهم الأمر إلى اختيار أقصر الحواديت فى حين يكون الطفل مدركا لهذا تماماً...

وفى بعض الليالى يطلب منى صغيرى حدوتة من تأليفى وحينئذ أشعر بألفة بالغة وتقارب عظيم: «أعطنى شيئا منك ليكون لى تعويذة فى بلد الأحلام» وعندما تكون الحالة النفسية هادئة والظروف مواتية يكون ذلك غاية المنى. فلقد عشت مع أطفالى أجمل لحظات عمرى وخاصة فى أوقات الرضاعة حيث نكون كأننا فى حفلة أو وليمة».

وتعتبر أهمية الحوار الدائم والحكاية التى تهدف إلى تنمية لغة الطفل، دافعا قويا لتقييم دور الأجداد فى حياة الطفل؛ حيث إنهم لا يعتبرون مربى أطفال قليلى التكاليف يقومون بحراسة الحفيد، ولكنهم على عكس ذلك محدثون بارعون يتميزون بالخبرة والإلمام باللغة (العامية والفصحى).

وعندما يشعر الأجداد بمدى أهميتهم بالنسبة للطفل، يكون ذلك دافعاً لأن يجعلهم يرعون الطفل ويلبون احتياجاته، كما يداعبونه ويستمعون إليه ويتحادثون معه فى سرور، بل ويصطحبونه للنزهة فى بعض الأحيان حيث يشرحون له كل تساؤلاته، وغالبا ما يقصون له الحكايات أو مواقف حياتهم التى يجدونها شيقة. ويعتبر دور الإخوة مهما من ناحية أخرى فى حياة الطفل، فعندما يكونون أكبر منه سنا، يقدمون له صيغا لغوية قياسية بالإضافة إلى استعدادهم للعب معه والتحدث إليه، ولكن غالبا ما لا يتسع صبرهم لتفسير لغته الشخصية، وهنا يشعر الصغير بالعجز والقصور اللغوى وبالتالى يحفزه إخوته على النضج السريع. أما إذا كان الإخوة أصغر منه سنا فسيقوم هو بدور المعلم ملقنا إياهم أسماء جديدة وشروحاً مفيدة بالإضافة إلى تصحيح أخطائهم والتعليق على الصور.

فالوالدان والأجداد والإخوة وغيرهم من الأشخاص يعلمون الطفل اللغة بكفاءة أكثر من التلفزيون الذى يساء استخدامه الآن فى كثير من البيوت. فأحداثه وصوره تكون أسرع من اللازم فلا يستطيع الصغير متابعتها وفهمها. وبالإضافة إلى عدم ترابط برامجه، اصبح من السهل جدا الآن الانتقال من قناة إلى أخرى. ويلاحظ أن البرامج التلفزيونية تفرض اتصالاً من جانب واحد إلى حد أن عدداً من الحالات بين أطفال شمال أمريكا- كما يعلق بعض الخبراء- ولكونهم متروكين تماماً للتلفزيون كمربٍ لهم، يفهمون الانجليزية تماماً ولكنهم لا يستطيعون التحدث بها.

وقد يكون من المفيد فى سن ٥ أو ٦ سنوات مشاهدة بعض البرامج التلفزيونية القصيرة المخصصة للأطفال بشرط أن يقوم الكبار بالشرح الدقيق والتعليق عليها أثناء أو بعد العرض.

تأخر الكلام والإخطاء

سبق أن أشرنا إلى عدم النضج اللغوى الذى يميز الأطفال الصغار فى روضة الأطفال كنتيجة لقلة الدافع اللغوى الشخصى. هذه الظاهرة للأسف تظهر أحيانا لدى الأطفال الذين يقضون يومهم فى جو الأسرة، ولكنهم لا يلقون تشجيعا على الكلام وينقصهم الحافز على الاستخدام الحى للكلمة.

فعلى الرغم من أن الطفل يترك وحده إلا أنه يمارس تلقائياً بعض الألعاب التى تعتمد على الحركة والحواس معاً.

«التقلب فى الفراش، مص إصبع الإبهام، متابعته بنظره لحركات الأشخاص أو الحيوانات».

ولكنه لا يحاول بنفس التلقائية أن يحلل الأصوات المختلفة التى يدركها أو يقلد الألفاظ التى يستخدمها الأشخاص من حوله.

وفى هذا الصدد نذكر حالتين خاصتين من بين الحالات الكثيرة إذ أنه بسبب قلة الممارسة اللغوية داخل الأسرة نجد الطفل نادى له من العمر العقلى ثلاث سنوات رغم أنه أتم الخامسة من عمره، والطفل سامى يتكلم كطفل فى الرابعة من عمره رغم أنه أتم عامه العاشر مع أنهما فى حالة بدنية وصحية جيدة. وإذا ما كانت الأم مشغولة للغاية فى الأعمال

المنزلية أو فى عملها خارج الأسرة أو فيهما معاً يلزم أن يقوم أعضاء آخرون من الأسرة أن من الأقارب بدور تربية الطفل والاهتمام به، كما أنه من المفيد فى هذه السن أن يدخل الطفل فى علاقات مع أترابه من الجيران عن طريق اللعب الجماعى.

ويمكن إرجاع تأخر النضج اللفظى لدى الطفل إلى سذاجة الكبار الذين يريدون أن يضعوا أنفسهم بسذاجه فى مستوى فهم الطفل، بمعنى أنهم لا يريدون مخاطبته كإنسان ناضج بل يتحدثون معه بلغة الأطفال.

كما أن هذا الأمر يعود كذلك إلى تدليل الأقارب الزائد للطفل وإلى كسل الطفل نفسه.

ولعله من المناسب فى هذا المقام أن نذكر ما كتبه د. روزم بلاث D.Rosembluth الذى يقول: «إن الأطفال يفهمون اللغة قبل أن يتمكنوا من استخدامها بكثير، إذا أمرناهم بأشياء بسيطة، حيث إن طفلا عمره ١٨ شهراً يبدى فهمه لكثير من الكلمات حتى دون أن يكون قادرا على النطق بها، وكثير من الأطفال يشعرون بالإحباط وخيبة الأمل والقلق عندما لا يستطيعون التعبير عن أنفسهم بوضوح، ويوجد آخرون لا يلقون بالاً لهذا الأمر، ويقنعون بالتعبير عن أنفسهم بالحركات، وبالإشارة إلى الأشياء التى يريدونها، وهذا شأن سالى، التى كانت قد تجاوزت من عمرها السنتين بقليل، ولم تكن تستطيع النطق بكلمة واحدة. حيث كانت أصغر إخوتها الأربعة، وكانت لا تشير إلى شئ تريده إلا ولبى لها على الفور، وإلا استعانت على أخذه بالبكاء والصراخ.

وحضرت الجدة ذات يوم لزيارة الأسرة، وكان الوقت بعد الظهيرة، والحر لا فح بعض الشئ والجميع جلوس فى حديقة المنزل وأمامهم عصير البرتقال.

شربت سالى نصيبها وأشارت بأصبعها إلى الزجاجة ولسان حالها يقول أعطونى أخرى، فقالت لها الجدة:

– لن أعطيك أخرى. إلا إذا قلت «عصير برتقال»، فظلت سالى تنظر إلى الجدة، ونظرا لأنها وجدت على غير العادة أن طلبها لم ينظر إليه، وبعد دقائق قليلة من الصمت ووسط ذهول الجميع نطقت بوضوح وقوة كلمة «برتقال».

وطوال أيام زيارة الجدة، وبنفس الطريقة، تمكنت سالى من النطق بكلمات أخرى كثيرة، وانطلقت بذلك بدايتها نحو الكلام.

من هنا يتضح أن القصور فى الكلام والتأخر فى النضج اللفظى لدى الطفل يأتى نتيجة لضيق المساحة الكلامية مع الطفل داخل الأسرة، الأمر الذى تكلمنا عنه فى الفصل السابع، وقد يكون ذلك راجعا إلى ولادة التوائم.

فالأم عندما يكون لزاما عليها أن ترعى توأمين أو أكثر مع كثرة أعمالها المنزلية، فإنها لن تجد لديها الوقت والرغبة فى سماع أولادهاوتصحيح مخارج حروفهم ونطقهم، ولن تجد الفراغ للتحدث إليهم باستمرار، وأن تشرح لهم محتويات الصور، أو تسليتهم بحكاياتها عندئذ، يتم ملء «الفراغ اللغوى» الذى خلقته الأم والعائلة، عن طريق التصاق وتآلف التوائم، الأمر الذى يعد تعويضا عاطفيا إيجابيا من ناحية، بيد أنه يعتبر سببا لتأخر النضج الكلى الذى وصفه وعالجه باقتدار عالم النفس الروسى لوريجا Lurija الذى تكلمنا عنه فى الفصل السادس.

والأخطاء التى يقع فيها أفراد العائلة فيما يتعلق بالتربية اللغوية كثيرة متكررة حتى عندما يكونون مؤهلين لدورهم، ومزودين بثقافة لا بأس بها. فمثلا يوجهون إلى الطفل كلاما مجردا، دون تحديد للأشياء والأحداث الملموسة، الأمر الذى يؤدى بالطفل إلى عدم الفهم، ويعتاد تبعا لذلك على تكرار كلمات خاوية من المضمون. وفى أحايين أخرى يتكلمون مع الطفل بصورة خاطفة سريعة وبألفاظ غامضة، مستخدمين فى ذلك جملا مركبة، أو مفردات عامة وغير مناسبة.

خطأ آخر سبق أن ألمحنا إليه فى الفصل السابع، ألا وهو فرض أكثر من نظام لغوى على الطفل فى نفس الوقت بصورة متزامنة مثل اللهجة واللغة القومية، ولغة أجنبية.

ومما يجدر إعادته هنا، أن الطفل يجب أولا أن يلم إلماما جيدا بلغته الأصلية (موطنه)، التى تستخدمها أمه أو تكون سائدة فى بيئته الاجتماعية.

وإذا أردنا أن نعلمه نظاما لغويا آخر فعلينا أن نتبع المعيار الذى أوحى به الخبراء فى هذا المجال: «شخص، ثم لغة» أى الاهتمام أولاً بالشخص ثم بلغته.

الفصل الحادى عشر

التربية اللغوية فى رياض الأطفال

لقد أبرزنا فى الفصول السابقة الدور الفعال للغة على مدار المدة التى تشهد النمو التربوى للطفل. كما أبرزنا الصلة الوثيقة بين اللغة والتفكير، والأثر السلبى والإيجابى للبيئة العائلية أو الاجتماعية على النضج اللغوى للطفل. ولا يمكننا- فى هذا المقام- أن نغفل الدور الفعال والعظيم الأثر الذى ينتظر من رياض الأطفال الاضطلاع به لإعداد الطفل لغويا.

إمكانات وقدرات الطفل

إن عمل المعلم يكون ذا فعالية مؤكدة إذا ما كان دائبا ومصحيا من الناحية المنهجية، إذ أن دور المدرس يعطى الثقة للطفل، ويزيد من ميوله لتعلم اللغة. وكما هو معلوم، فإن الطفل الذى يبلغ من العمر ثلاث سنوات، يتحكم جيدا فى جهازه التنفسى والصوتى، وينطق الكلمات بصورة واضحة إلى حد كبير. كما أنه فى هذه السن يكون قادراً على التمييز بين الأشياء من خلال السمع والرؤية.

ويظهر الطفل رغبة قوية فى أن يسمع وأن يتكلم. ويحقق الطفل بذلك تقدما ونجاحا ملحوظين من الناحية اللغوية، سواء فيما يتعلق بالمفردات أو الصرف والدلالة، ويتطلع إلى توسعة دائرة علاقاته الاجتماعية خارج محيط الأسرة، مظهرا رغبة شديدة للمعرفة، والاكتشاف للأشياء.

ويوجد لدى الطفل الذى يدخل الروضة لأول مرة، الاستعداد لأن يستكمل وينمى نشاطاته الإبداعية عن طريق اللعب، وينمى النشاط القائم على الكلمة والفكرة، والحياة الاجتماعية، الأمر الذى سيعطي دفعة هائلة فى سبيل نضجه اللغوى.

ولكن ذلك لا يمكن أن ينسينا أو يجعلنا نغفل المعوقات والمشاكل التى تعود إلى المجتمع أو إلى الفرد نفسه أو هما معا، إذ أن هذه المعوقات تمثل حجر عثرة فى سبيل تعلم اللغة، وقد أوفينا هذا الموضوع حقه من التحليل فى الفصول السابقة.

والحدود الضيقة المفروضة على الطفل الذى يبلغ من العمر ثلاث سنوات تكمن فى فقر خبراته الشخصية، وفى عدم قدرته على التحليل والإيجاز، وكذلك سيادة وتفوق الذكاء

المرتكز على الحس الحركى، وعلى الابتكار والتعبير عن النفس، وكذلك عدم القدرة على الانتباه وانطوائه العاطفى والفكرى واللغوى.

يمكننا أن نجد صعوبات أكثر حدة من هذه، لدى نسبة كبيرة من الأطفال عند دخولهم إلى رياض الأطفال وتكمن هذه الصعوبات فى النمو النفسى البطئ نسبيا للطفل، والعيوب فى الحواس التى لن نتعرض تفصيليا لها، أو قد تعود هذه الصعوبات إلى قصور فى الجهاز الصوتى أو العصبى أو إلى الفراغ العاطفى، أو العكس، أى التدليل الزائد للطفل، وتعزى هذه المشاكل أو الصعوبات كذلك إلى التأخر اللغوى لدى الطفل، الذى يأتى نتيجة لقلة علاقات الطفل الآنية أى مع أترابه، أو لظروف البيئة الاجتماعية والأسرية.

السن الحاسمة :

إن إمكانات الطفل وقدراته أو على العكس القيود الصارمة التى لايستطيع منها فكاكا، والتى سبق ذكرها، تؤدى بالمعلمات إلى تقليل الجهد فى مجال التربية اللغوية للطفل، ويعود ذلك إما إلى التفاؤل الشديد، أى تأكد المعلم من أن الطفل العادى ينضج لغويا تلقائيا كما ينضج فى مجالات أخرى، أو إلى التشاؤم المطلق بمعنى اقتناع المعلم بأن الطفل غير الناضج لا يجدى معه علاج، أو على الأقل يمكن تقويمه لغويا على مستوى المدارس الإلزامية.

وكلا الأمرين فيه شطط وغلو. إذ أن غالبية الخبراء قد أكدوا أن العمر المثالى لتنمية قدرات الطفل اللغوية أو لتقويم نطق غير الناضجين من الأطفال، يقع فى الفترة من عامين حتى سبعة أعوام. وداخل هذه الخمس سنوات، تكون الفترة الحاسمة هى التى تقع بين ثلاثين شهرا وأربع سنوات.

ولذلك يجب على المعلمة أن تكتشف وتقيم- على الفور- القدرات اللغوية لدى كل تلميذ والتى تتوقف على ظروف العائلة وظروف البيئة، وكذلك على قدرات الطفل الفردية.

ويتعين على المعلمة أن تبادر- إذا ما وجدت طفلا متعثرا- إلى تقويمه وإصلاح أمره بتمهل وصبر، حتى لو تطلب ذلك منها جهدا أو مشقة. ويوجد بعض التلاميذ الذين تمثل لغة المعلمة بالنسبة لهم شيئا غريبا، ومن ثم لا يستمعون إليها ولا يحاولون التحدث معها كثيرا.

ويكون الأمر مقلقا أكثر فى حالة عدم خروج التلاميذ من هذا الوضع، ومن هذا الصمت ليسألوا عن الأشياء التى لا يفهمونها. ولحسن الحظ يوجد من التلاميذ من يعتبر

استخدام اللغة أمرا سهلا ولعبة جميلة، ومن ثم نجدهم مغرمين بالحوار والمحادثة. وبإثراء مفرداتهم. وتطبيق قواعد الصرف. وكذلك بتكوين عبارات وجمل، بل وأحاديث تتشعب وتنمو شيئا فشيئا.

ولاشك أن اختلاف القدرات اللغوية للأطفال، يجعل عمل المربية غاية فى المشقة، ويجب أن يراعى هذا الاختلاف عند وضع البرامج التعليمية إذا كنا نريد ألا تزداد الفجوة اتساعا بين الأطفال على مدى السنوات اللاحقة، وإذا وضعنا نصب أعيننا أن الروضة تقوم بإعداد الطفل للالتحاق بمدرسة التعليم الإلزامى. وكما هو واضح فإن طفلا له من العمر ست سنوات لا يمكنه حقيقة أن يقرأ ويكتب إلا إذا أجاد اللهجة أولا بفهمها والتحدث بها بدقة وطلاقة. وكما تقول روزا أجاتس Rosa Agazzi: «إن المدرسة الابتدائية ليست فى حاجة إلى أطفال أشبه بالببغاء لقلة تدريبهم على الكلام. ولا إلى أنصاف البكم من الأطفال الذين لم يتمرسوا على الكلام، فيكونون أشبه بالببغاء لقلة الكلمات والعبارات التى أجهدوا بها ذاكرتهم، ولا إلى أطفال متخلفين فى الإدراك أو توضيح فكرتهم وقد جاءوا من الروضات غير مؤهلين حيث كانت المعلمة تهتم بالتدريب على الكلام فقط وقد أهملت التدريب على الملاحظة والتفكير مع الكلام».

من هنا نرى أن تدريب الطفل على الكلام والتفكير والملاحظة لابد أن يمضى جنبا إلى جنب.

مواصلة دور الأسرة

إذا كانت الأسرة تحتفظ بالصدارة فى مجال تربية الطفل اللغوية، فإنه يتعين على مدرسة الروضة أن تجعل من نفسها امتدادا طبيعيا لدور الأسرة.

ففى المنزل يعيش الطفل فى كنف عائلته، ويتنفس جوا صحيا يسوده الود والثقة. كما أن تعبيره عن نفسه، يكون سلساً، إذ أن نشاطه الكلامى يكون متناميا بين أسرته أكثر من أى مكان آخر.

ويجب أن تكون الروضة بيئة وواحة سكينة وطمأنينة للطفل، حيث يجد متعته وهو يلعب مع زميل له أو مجموعة زملاء، ذلك اللعب الذى يصب فى محادثات وحوارات شيقة سواء مع أترابه أو مع الأطفال الذين يكبرونه سنا.

ونجد أن أى مجتمع يفتقر إلى العواطف من ثقة وود ووئام، يتميز بجفوة وغربة بين أفراده.

وتوظف الكلمة داخل الأسرة على أساس الأحداث اليومية، والمواقف والأشياء الخاصة بالحياة المنزلية، وكذلك بالمشاكل الواقعية، وذلك إلى جانب الأحاديث المجردة.

ومن الأفضل- لذلك- أن يكون ما يسمعه الطفل ويتكلمه فى الروضة مرتبطا بألعابه الفردية أو الجماعية، والأنشطة التى يؤديها، وكذلك بحياته العملية، ليكون هناك مماثلة بين ما كان عليه فى أسرته وما هو عليه فى الروضة.

وتنبه باولينا كيرجو مارد Paolina Kergomard- وهى أم ومسئولة يشار إليها بالبنان فى رياض الأطفال- إلى ذلك الأمر، إذ تقول: «إن ما يجب أن نفعله مع أطفالنا هو أن نظل إلى جوارهم، وأن نتفاعل معهم، ولكن يجب أن يتم ذلك ونحن نتحدث عن كل شئ نفعله، فعندما يصل الأطفال إلى المدرسة، يتخلصون من حقائبهم وملابسهم، فلا مانع أن نتكلم معهم مثلا، بمثل ذلك: «أعطنى حقيبتك»

«أتريد أن نذهب معاً لنضعها فى مكانها» «عندما تصير كبيرا مثل عادل وفتحى... ستضعها فى مكانها وحدك» هكذا بالنسبة للقبعة والزى (المريلة).

وهو موضوع محادثة بسيط، رغم أن المربيات يتكلفن البحث عن موضوعات رتيبة وتافهة متناسين أن المحادثة تتبع بصورة تلقائية عندما تعالج أمرا يتعلق بحياة الطفل الصغير».

ويُستخدم مع الطفل فى المنزل- بحكم العادة- إما اللهجة وإما اللغة القومية. وينظر بحب وود إلى طريقة كلامه، وتحترم طريقته للتعبير عن نفسه وإن كانت مضحكة وبدائية. ويتم كذلك النزول إلى مستوى اهتماماته الشخصية ووضع تفاوت نموه اللغوى موضع الاعتبار.

ومن هنا- يكون من الأفضل أن تراعى الروضة، وخاصة فى الأيام الأولى- هذا الأمر، فتظهر اهتماما بلهجة الطفل أو لغته، وكذلك يجب المسارعة إلى علاج أى قصور لدى الطفل.

ويمكن فى هذا الأمر فقط الاختلاف بين الأسرة والروضة ، بمعنى أنه لو كانت الروضة على مستوى الدور المنوطة به، فإنها ستتيح للأطفال مجالا واسعاً من الخبرات المتنوعة والمتعددة، وستضع بين يديه صورا من النشاطات التى تغرس فيه الحافز

الاجتماعي، وكذلك تعطيه جرعة ثقافية عن طريق المناظر المصورة، وعلاوة على ذلك ستقدم للأطفال وسائل تعليمية فعالة تساعد على نضجهم اللغوي، والتعبير عن أنفسهم، حتى عن طريق التانيب البسيط لمن يبدى سلبية منهم.

وهناك أمور إيجابية تتميز بها روضة الأطفال عن الأسرة. هذه الميزات تتلخص في تنوع وزيادة الخبرات، أو الكفاءة التعليمية المتوفرة لدى المعلمات، وكذلك الوسائل التعليمية المتطورة، والعلاقات، أقصد علاقات الطفل بأترابه، وأخيرا الاستخدام المنظم والمدروس للطرق التعليمية الملائمة.

ولكن الأمر لا يخلو من السلبيات التي يجب أن نضعها نصب أعيننا لتحسين ودفع العمل التربوي إلى الأمام، لنصل إلى النتائج المرجوة، ولتكمل بذلك روضة الأطفال دور الوالدين.

وها هي بعض النقاط السلبية التي يمكن أن نجدها في روضة الأطفال: فتكدس الفصول لا يدع مجالا للحوار بين الأطفال والمعلمة.

كما أن التفاوت بين الأطفال من الناحية اللغوية يحول دون القيام بتربية لغوية جماعية للأطفال. ومن ثم يتقلص دور المحادثة ليصبح سلسلة من أحاديث التلاميذ الثرثارين والمغرورين، الذين يقابلهم على الطرف الآخر صمت الخجولين غير الناضجين لغويا.

ومن المنطقي، أن يراعى في اختيار مناهج وطرق التربية اللغوية للطفل، الصلة الموجودة بين خبرة الطفل المنزلية وبين الواجبات التي تضطلع بها رياض الأطفال.

موضوعات وأساليب التربية اللغوية في رياض الأطفال

متى وكيف يمكن للمعلمة أن تسهم في النضج اللغوي للتلاميذ الصغار؟

هذا السؤال سنجيب عنه بإسهاب في الفصول القادمة، غير أننا الآن سنقتصر على استعراض موجز لموضوعات وأساليب التربية اللغوية الممكنة والنافعة، والتي تنجح في الروضة. يحدث كثيرا الاهتمام، والثناء على تعبيرات ولغة الأطفال الفصحاء، الناضجين لغويا، والاجتماعيين والظرفاء، بيد أنه قلما يكون هناك نفس الاهتمام بالأطفال الذين يميلون إلى الصمت، والقليلي الكلام.

ومن ثم ينطوى هؤلاء الأطفال، ويقع كل منهم على من هو على شاكلته، وبذلك يتحون جانبا وينعزلون ويشعرون بالنقص ونتيجة لذلك، نجد سلوكهم متميزا بالعدوانية.

ومن الضرورى أن تبادر المعلمة إلى إقامة علاقة لفظية ثنائية مع كل طفل من هؤلاء، على هيئة حوار ودى بسيط حول موضوعات حيوية تهم الطفل شخصيا، الأمر الذى سيأخذ بيد الطفل حتى يتخطى مرحلة الكلام والتفاهم مع الآخرين عن طريق حركة الجسم وحركات الوجه، والكلمات الموجزة والردود المختزلة، إلى أن يصل رويدا رويدا إلى القدرة على إنشاء حوارات قصيرة ليصف بها موقفا وقع له أو ليحكى ما يقع له ولغيره من أحداث يومية.

ويؤكد لورانس لنتين Laurence Lentin على هذا الأمر بقوله: «ستجد المعلمة لامحال، وعلى طول اليوم- دقيقة أو دقيقتين لهؤلاء الأطفال، بل أستطيع القول دقيقة أو دقيقتين لكل طفل، مثلا أثناء الفسحة، أو عندما يدخلون إلى الفصول، أو عندما يتهيئون للانصراف.

ومن الممكن- فى بداية الأمر- أن تقترب المعلمة من الطفل، كما لو كانت تعزله عن بقية الفصل، حتى يصبح لديه انطباع أنه يتكلم إلى المعلمة فقط وليس إلى الفصل كله، الأمر الذى كان يحدث تماما بينه وبين أمه حين كانت تأخذه فى كنفها، كما أنه يجب على المعلمة أن تلجأ فى حديثها مع الأطفال إلى ذكر أشياء ومواقف أو أشخاص لها وجود فى حياة الطفل الشخصية».

ورغم تخفيض عدد الأطفال فى كل فصل، إلا أن مسئوليات المعلمة ودورها الإنسانى، لا تترك لها إلا وقتا محدودا لتدخل فى حوار مع كل طفل، غير أنه من الممكن رغم ذلك أن تتخطى هذه العقبة الكئود بأن تعهد بالطفل غير الناضج لغويا إلى زميل له يستطيع أن يساعده فى هذا الأمر.

من اليسير أن نجد بعض الأطفال لديهم الميل والاستعداد للقيام بدور معلمى اللغة، بسعادة وفعالية كذلك، وخاصة بين الأطفال الذين تقع أعمارهم بين خمس وست سنين.

ومما لاشك فيه أن العلاقات الثنائية بين المعلمة والطفل، أو بين الطفل وزميله، لها أكبر الأثر فى النضج اللغوى والعقلى للطفل وخاصة إذا صحبها استخدام الأشكال المرسومة، والبطاقات المصورة، وكذلك الكتب المصورة، أو الصور المأخوذة من كتب المطالعة القديمة.

فعندما يكون الطفل مشغولا باللعب، من الصعب أن يلاحظ بعض الخصائص المعينة للشئ الذى يلعب به، وكذلك لا يطرح شيئا من الأسئلة، لأنه يكون فى هذه الحالة مستغرقا كليا فى اللعب، أما عندما يجلس الطفل هادئا إلى جوار الكبار أو زميل له ويتصفح كتابا مصورا أو ينظر إلى صورة باهتمام، عندئذ سيتفجر فضوله: «لماذا يملك القط شاربا؟»

إن للكلب بعض الأسنان الطويلة جدا كيف ذلك؟

ما فائدة الأنف الكبير؟ ويقصد الطفل الخرطوم للفيل.

كل هذه الأسئلة وإجابات المعلمة أو الزميل الأكبر سنا عليها، وتتابع الأسئلة مع إجاباتها، مع الكلمة والفكرة وتفاعلهما، وخبرة الطفل المبنية على الصور، كل هذه الأمور تتفاعل فيما بينها وتصبح سبيلا إلى تمييز الطفل بين الأشياء وخصائصها، وكذلك تصنيف الأشياء والأحداث، وأيضا سبيلا إلى الاستخدام الدقيق والمناسب للكلمة، يساعد على ذلك حب التنافس بين الأطفال.

كما أن الكلمة الإيقاعية التى جربت منذ الطفولة المبكرة فى أحضان الأسرة، لها دورها كذلك فى روضة الأطفال، فالأناشيد والأغانى، وهدهدات الأم (أغانى الأمهات للأطفال) كل ذلك يثير فى الطفل حب اللغة، ويقوم نطقه بسرعة كبيرة، كما أنه يساعد فى كثير من الأحيان على علاج التلعثم لدى الطفل.

ونعود لنبرز هنا قيدا شديدا على النمو اللغوى لدى الطفل، ألا وهو مركزية الذات الذى بسببه يتكلم الطفل دون أن يهتم بأن يفهمه أحد، ويسمع دون أن يهتم بفهم كلام الآخرين. ويمثل التمركز حول الذات مشكلة بيد إنها ليست صعبة العلاج فرياض الأطفال تشجع كل الوسائل الممكنة للعب الجماعى، ويتعلم فيها الطفل شيئا فشيئا أن يصغى السمع إلى المعلمة أو إلى الزملاء، ومعرفة ما إذا كان فهم أم لا، كما أنه سيتعلم فيما بعد أن يدخل فى حوار مع الآخرين، وأن ينتظر دوره فى الكلام، ليتكلم بطلاقة ووضوح.

والطريق من لغة مركزية الذات إلى اللغة الاجتماعية ليس سهلا ولا ممهدا، وعلى كل الأطفال أن يجتازوه وإن اختلفت نتيجة ذلك الاجتياز.

وتمثل المسرحيات التى يؤديها الأطفال وعروض العرائس المتكلمة (الأراجوز) خطوة فى هذا الطريق، لأنها تحوى أفكارا وأحداثا مرحية، ونكاء، قائما على الإحساس والحركة معا.

فهذه العروض إذاً، تتكامل فيها اللغات، اللفظية، ولغة الحركات البدنية، ولغة التعبير بحركات الوجه.

ومن ثم- يمثل الأطفال- فى هذه العروض- دور المشاهدين والممثلين، يسمعون ويتكلمون، يرون ويتحركون، أى أنهم يعيشون فى موقف يساعد على نموهم اللغوى.

وتمثل الأفلام التى تعرض لهذا الغرض- خطوة أخرى على هذا الطريق، عندما يصاحب عرض الأفلام، تعليق للمربية، أو لكل تلميذ على حدة، على أن يراعى فى سرعة الفيلم نفسه ظروف الأطفال الصغار جدا أو أصحاب الاستعداد الأقل.

وإذا كنا نريد حقيقة أن يصل كل الأطفال إلى مستوى التفكير الرمزى المبنى على الصور، فيلزم أن ننتبه إلى القضاء على صمت الأطفال الصغار وغيرهم ممن يشعرون بالخجل، ومن ناحية أخرى ننتبه إلى الثرثرة المفرطة من يميلون إلى كثرة الكلام.

ولعله من المناسب هنا أن نشير مرة أخرى إلى ما كتبته Rosa Agazzi إذ تقول: «يوجد بعض الأطفال الذين يؤهلهم ذكاؤهم وسرعة بديهتهم لأن يفوقوا أقرانهم فى التفكير وفى الكلام، وفى اكتشاف الأشياء، وبطبيعة الحال يكون لهم قصب السبق على زملائهم الأقل ذكاء.

وتحذر المربية أن تؤثر سرعة الأذكياء على الآخرين إذ أن الأمر ليس مباراة رياضية يتفوق فيها الأفضل والأحسن- بل إن الأمر هو إشراك كل الأطفال فى اللعبة، ولو بجهد ذهنى ضئيل ليبحث كل منهم مع زملائه عن المطلوب.

وحتى لا يركن بعض الأطفال إلى السلبية والكسل، على المربية أن توجه الكلمة باستمرار إلى الأطفال الأقل ذكاء، والذين يحاولون إخفاء أنفسهم»

ولن ينمو التفكير الرمزى ولن يمثل إعدادا جاداً وتمهيداللالتحاق بالمدرسة الابتدائية، إلى الحكايات والمطالعات القصيرة.

فالطفل الذى لا يفهم ولا يتذوق الكلمة إذا لم تكن متصلة مباشرة بشئ محسوس أو حدث قائم، يكون فى واقع الأمر، غير ناضج.

ويكون عدم اكتمال النضج هذا أمرا سائغا فى الأعوام الأولى من الحياة، بيد أنه لا يكون كذلك فى الطفولة الثانية[1].

(١) الطفولة الثانية ما بين ٢ - ١٢ سنة.

إن الحكاية القصيرة التى تتحدث عن مشاهد ومواقف مستوحاة من واقع الحياة اليومية، أو تنهل من عالم الخيال، تروق للأطفال الصغار بشرط أن تتقن المعلمة القيام بدور الراوى، بمعنى أن تستخدم لغة سهلة وواضحة، مع إجادتها للوقفات وتعديل نبرة الصوت تبعا للأحداث، وأن تضم إلى الكلمة، بلاغة وفصاحة النظرة والحركات.

وتتطلب الحكاية (الحدوتة) والمطالعة القصيرة، التى تقدمها المربية، نوعا من النضج والتذوق الفنى لدى السامع، الأمر الذى يتميز به الكبار فقط، ولكن هاتين الوسيلتين يمنحان الطفل سعادة متابعته لأحداث متنوعة ومتشابكة، أو على الأقل استماعه من جديد وبالتفصيل لحكاية يعرفها ويحبها، كما أنهما يثريان معجم الطفل اللغوى، ويساعدانه على النضج من ناحية النحو والصرف، وأن يعد نفسه لفهم مطالعات أطول، وأيضا لتعلم الكتابة بالمدرسة الابتدائية.

الفصل الثانى عشر

المنولوج[1]، والحوار، والمحادثة

إن التربية اللغوية للطفل تعتبر فردية ومتميزة وخاصة فى فترة طفولته الأولى.

ولهذا يجب أن نتكلم مع الطفل مع دوام النظر فى عينيه لنظهر له اهتمامنا الصادق به، ولنفهم ردود أفعاله جيدا، ولا ننسى أن تكون ألفاظنا سهلة وواضحة، بعيدة عن التعقيد.

ومن الضرورى كذلك أن نترك الطفل يتكلم بتلقائية، وأن نستمع إليه باهتمام ومشاركة، متحاشين أن نقاطعه فى وقت غير مناسب، وفى حالة خجل الطفل أو عدم نضجه، يجب حمله على الكلام، بتشجيعه وإظهار الاهتمام بأحاديثه البسيطة، وإبداء السعادة والانشراح إذا ما حقق تقدما ولو بسيطا.

إن الطفل عندما يكون صغيرا جدا، أو غير ناضج الفهم، أو بطئ النمو النفسى، فلن يسير نضجه اللغوى على ما يرام، إذا لم تتم تربيته عن طريق الحوار بصبر وتؤدة، بدلا من تركه، تائها وسط أترابه.

إن ملاجئ الأيتام، وبعض العائلات غير المؤهلة تربويا، وكثيرا من رياض الأطفال، وأيضا بعض الحضانات غير المنظمة، يسودها سلبيات كثيرة عيوب جمة فى هذا الصدد، نظرا لقلة الحوار مع الأطفال، الأمر الذى يؤثر بالسلب على نضج الطفل اللغوى، والنمو العقلى والاجتماعى.

الحوار أم المنولوج؟

إن أهمية الحوار لا يمكن تجاهلها، ولكن الحوار ينشأ عندما تكون هناك علاقات بين الطفل والكبار أو بين الطفل وأترابه.

ولكن المنولوج يحل محل الحوار بسبب مركزية الذات الموجودة عند الطفل أو بسبب أنانية الكبار وأحيانا أخرى يرجع ذلك إلى عدم كفاءة المربين.

وكما نلحظ من اشتقاق الكلمة، فهى تعنى «الحوار بين اثنين» أو «الحديث بين اثنين» ولذا فالحوار يتطلبى مشاركة أكثر من طرف لكى يتحقق.

---

(١) المونولوج المقصود به حديث الطفل لنفسه عند اللعب.

وفى واقع الأمر، يتحاور الشخصان عندما تجمعهما نفس اللغة، وعندما يكون لهما نفس الاهتمامات، ولا يستمران فى الكلام عادة إذا لم يكن لهما نفس الأسلوب ونفس المستوى اللغوى الذى يتيح لهما الفائدة المتبادلة.

أما إذا فرض أحد المتحاورين على صاحبه اهتماماته الثقافية ولغته، أو إذا شرع فى الكلام مجبرا الآخر على متابعته سلبيا، أو على الأكثر الرد بردود مقتضبة، فعندئذ يتحول الحوار إلى منولوج. فإذا لم يكن لدى المتحادثين ملكة إيجاد موضوعات ذات اهتمام مشترك، وإذا لم يتحادث الطرفان بوضوح وطلاقة فسيبقى كل منهما غريبا عن الآخر. وسنجد أن الأمر لم يخرج عن كونه مونولوجا (كما لو كان كل منهما يتحدث إلى نفسه) ومن يراقب بدقة الحوار بين الأطفال وهم يلعبون، أو حتى الحوار الذى يتم بين الأطفال والكبار، فسيتولد عنده شعور أكيد بأنه يشاهد أناسا من العصر الحجرى، أو ما يشبه حواراً بين مجموعة من الصم، ومن العجب أن المتحاورين فى الظاهر لا يفهم أحدهم صاحبه فقط، بل الأدهى من ذلك أنهم لا يدركون ذلك، وبذلك يعود الطفل إلى مركزية الذات، وكأنهم يعتبرون هذا الحوار الظاهرى فقط فرصة للثرثرة لا أكثر.

وكما توضح أنجولا ماسوكّو Angiola Massucco وآدا فونسى Ada Fonzi فإن «لغة مركزية الذات هى لغة تعبر عن الحقيقة التى لا يمكن تمييزها ولا تحديدها، إذ أنها لاتحوى أى وجهة نظر سواء بالنسبة للمتكلم أو للسامع. وتتميز لغة مركزية الذات بأنها لغة أنانية، إذ أن المتحدث فيها لا يسعى إلى إفهام ما يقوله للآخرين أو إلى توجيه أسئلة معينة، بل يسعى فى المقام الأول إلى جذب انتباه الآخرين ليكون هو فى بؤرة اهتمامهم.

أما لغة الحوار فهى على العكس من ذلك، إذ أنها صدى ونتاج لوجهات نظر، وهى ليست لغة أنانية، بل لغة ذات مغزى وهدف نبيل، وتهدف كلمات الحوار إلى شرح الحقيقة وعرضها، وليس عرضها فى عبارات طنانة ومؤثرة ومثقلة بالبديع.

المنولوج حديث الطفل لنفسه

يسبق المنولوج الحوار فى مرحلة الطفولة، بل ويمهد له بيد أن المنولوج يحل محل الحوار فى السنوات اللاحقة من عمر الطفل، ويكون ذلك نتيجة للعيوب الشخصية لدى الطفل، ولقصور أو لأخطاء التربية اللغوية والعقلية والاجتماعية.

إن الطفل فى سنى عمره الأولى- كما أوضحنا- يصدر أصواتا متعددة ومتباينة- حتى ولو كان أصم-، وإذا ما كان جيد السمع فإنه يسلى نفسه بسماع ما يقول، وبسماع الأصوات والضوضاء الموجودة فى بيئته، بل وبتقليد هذه الأصوات عن طريق مناغاته. ويمضى الطفل- فيما بعد- شطرا كبيرا من وقته فى سلسلة من المنولوجات، إذ يتكلم بكلمات وبعبارات، ويسمع نفسه، ويحاول كذلك أن يقلد أحاديث الآخرين.

ويتم المنولوج لدى الطفل ويتطور على ثلاث مراحل غير مرسومة الحدود، ففى المرحلة الأولى، يعلق الطفل على نشاطه الإبداعى والألعاب التى يقوم بها، بأن يصف ما يقوم به، وتفسيره لمعالم الأشياء التى يلعب بها.

ويصر الطفل فى كثير من الأحيان على تكرار كلمات معينة، أو بعض الجمل وخاصة التى لها معنى ليجدد بذلك طاقته، وليجتاز ما يواجهه من صعوبات، وذلك ربما لقناعته- بأن هذه الكلمات تشعره بذاته ووجوده أمام الأشياء.

أما فى المرحلة الثانية، فإن الطفل يتحدث مع نفسه أو مع الأشياء كاللعب وأثاث المنزل مثلا، أو الحيوانات، والنباتات. فالطفل فى محيط الأسرة دائما يطلب أشياء معينة، وعونا معينا من الوالدين أو الأجداد أو إخوته، فتلبى غالبا كل حاجاته، وإن لم يطلب هو يطلب منه الآخرون أن يفعل كذا أولا يفعل، أو يتوجهون إليه بالنصح.

فلا عجب إذًا أن يتخيل الطفل هذه المواقف- إذا ما شعر أنه وحده. فنجده يقوم بالدورين معا، إذ يتخيل نفسه الشخص الذى ينصح ويأمر، وفى نفس الوقت يتخيل نفسه الطرف الآخر، أو نجده يقف بكبرياء بين الأشياء ليثبت أنه سيداً لها.

أما فى المرحلة الثالثة فإن الطفل يقيم حوارا مع الآخرين، وإذا لم تكن علاقته بالآخرين وطيدة، فإنهفى مرحلة الحديث المنفرد مع النفس (المنولوج)، أو حديثه مع نفسه وإن كان فى الظاهر يتحدث مع الآخرين.

وبسبب مركزية الذات، نجد أن الطفل عندما يسمع حديث الآخرين، يكون مقتنعا- لسذاجته- أنه يفهم كل شئ، ولذا لا يطلب شرحاً، أو تفسيراً، وكذلك عندما يتكلم يكون مقتنعا أن السامع يفهمه تماما؛ لذلك لا يهتم ولا يلقى بالاً للتعبير عن نفسه بوضوح وبساطة، فهو لا يتخيل مثلا أن كلمة ما أو جملة ما، قد يكون لها معان كثيرة مختلفة أو متعارضة فيما بينها لدى المتكلم والسامع كذلك. وخلاصة القول ومجمله، أن حديث الطفل

إلى نفسه والمتواجد يمثل معبرا هاما بين مركزية الذات التى تميز طفولته الأولى وبين اتصاله وإطلالته على لغة الكبار.

ينفتح الطفل على الآخرين، عن طريق هذا النوع من حديثه لنفسه، محاولا بذلك التعبير عن نفسه وفهم ما يحيط به، ورغم أنه غالبا ما يدرك وهو يعتصره الألم- فشله وإخفاقه فى التحدث مع الآخرين. ولكن حالة خيبة الأمل هذه والإحساس بالفشل قد يكون حافزا له على الانطلاق إلى مزيد من النضج اللغوى.

ومن هنا يجب تشجيع الطفل على ممارسة الألعاب الفردية التى تقوده إلى مثل هذه الأحاديث مع النفس ومع الأشياء.

غير أنه قد تقع الأسرة وروضة الأطفال فى خطأ جسيم، إذا ما تركت الطفل فى هذه الوحدة والعزلة اللغوية مع لعبه، أو مع أقرانه. فالصغار قد يتبادلون الضرب، رغم أنهم يلعبون معا، وذلك بسبب عدم إحساسهم بروح الجماعة، ورغم وجود بعض السلبيات فى حديث الطفل مع نفسه إلا أن حواره مع نفسه يمثل دفعة تساعده على الانتقال من مرحلة الصمت واللغة المختزلة إلى مرحلة الكلمات المرتبة والعبارات الكاملة والجمل المفيدة، وإلى الاتصال الفعلى بالآخرين أى إلى الحوار.

الحوار

لقد بينّا منذ قليل كيف أنه من العسير على الطفل أن يفهم حديث الآخرين بدقة، وأن يعبر عن نفسه بالصوت (بالكلام) بدقة وطلاقة لسان.

وهذا لا يعنى تركه فى عزلته «اللغوية»[1] ، بل يعنى بالأحرى بدء حوارات فورية معه، تلك الحوارات التى يجب أن تتميز بدفء العاطفة، وأن تكون مشجعة له على الكلام، ونظرا لعدم نضج الفهم لدى الطفل، فإن المبادرة والتحكم فى سير الحوار يجب أن تكون من جانب الكبار (الوالدين أو الجد أو المعلمة). وسيكون الحوار فى مراحله الأولى غير مرتب بطبيعة الحال، إلا أنه سيشجع الطفل على التحادث وعلى السؤال وعلى الدخول فى علاقة مع الآخرين.

فالطفل- على سبيل المثال- فى سنى عمره الأولى يستمع إلى الأم باهتمام شديد

---

(١) عزلته اللغوية: أى عدم التحدث إليه وتركه مع لعبه.

مستقرئا ومستشعرا أحاسيسها من نبرة صوتها، ويحدق فيها ليترجم كلماتها، ثم يبدأ بعد ذلك فى الإجابة والرد على طريقته الخاصة، سواء بالحركات أو المقاطع أو العبارات الشديدة الإيجاز، أى أنه يمكننا القول أنه يوجد حوار حتى وإن كان غير منظم.

ويجب بالمثل- المبادرة بالحوار الودى المفعم بالثقة مع الأطفال غير الناضجين الفهم والخجولين، والذين يميلون إلى الصمت، أو الذين ينتمون إلى عائلات ذات لهجة غير سائدة، ويتم ذلك فى مراحل عمر الطفل المختلفة، مع تكرار هذا النوع من الحوار بصبر ولباقة.

ولكى نضمن مشاركة الطفل العقلية فى الحوار، يجب أن ينصب موضوع الحوار على الأشياء التى يدركها الطفل بصورة مباشرة فى عالم الحقيقة، مثل اللعب والملبس أو الغذاء والحيوانات المنزلية (الأليفة) أو على الأشخاص القريبين منه أو المحببين إليه. ويجب كذلك أن يكون الحوار بسيطا وواضحا. إذ أن الكبار ولا سيما المعلمة بالروضة- إذا لم يتحدثوا بطريقة تقلل من أخطاء الأطفال، فإن حديثهم يوشك أن يذهب أدراج الرياح، وإذا لم يتناول أخطاءهم ليعالجها، فإن الأطفال سيشعرون- وهم يسمعون- كما لو كان الحديث يتم بلغة أجنبية.

والجدير بالذكر أن ننبه إلى أمر خطير هو أنه عندما يتكلم الكبار دائما، أو عندما تطرح على الطفل أسئلة تحتاج غالبا إلى إجابة مقتضبة (موجزة) مثل نعم، لا، أنا، هو، أو على العكس استخدام كلمات التصغير والمفردات العامة والأحاديث غير الكاملة، والعبارات المبتورة، يريدون بذلك أن يكونوا على مستوى الطفل، فيما يسمى باستخدام اللغة الطفلية فيجب مراعاة هذه الأمور التى قد تقع كثيرا. ويكون من الصعب بمكان- فى أوقات كثيرة- أن يدخل الطفل فى حوار مع الكبار (الوالدين، المعلمات)، وذلك لأنه يشعر بأنهما كبر منه، ويبعدون عنه نفسيا، بينما يكون حواره مع أترابه وإخوته أو أصدقائه أكثر فعالية وأوفر نفعاً.

وها هو مثال على ذلك. دخل باسم الروضة وهو يناهز من العمر ثلاث سنوات، وظل لشهور طويلة يرفض الكلام بعناد منقطع النظير، لخجله، ولأنه كان يميل إلى الصمت، ولكن عندما انضمت ليلى إلى فصلها الدراسى أصبح صديقا حميما لها، وبالتالى أصبح توأم حديثها.

ولما بدأت ليلى- التى كانت تترك دورها جيدا- تسئ معاملته عن قصد بدأ باسم الذى كان قد فطم، فى البحث عن أصدقاء آخرين يلعب معهم ويتحدث معهم، وبالفعل قد وجدهم.

وغالبا لا يكون لدى الطفل- الشجاعة والاستعداد لأن يخضع لوصاية من أحد، رغم أن هذه الوصاية لصاحبه- كما رأينا وصاية ليلى على باسم- ومن ثم يجب على المعلمة أن تتدخل فى بعض الحالات حتى لا تتحول العلاقة بين الصديقين إلى سلسلة من المونولوجات التى تساعد على النمو اللغوى لمن يتكلم أكثر منهما، وتؤثر سلبا على الآخر.

وتوجد أوقات، يكون فيها حوار المعلمة مع الطفل، أو حوار الأصدقاء طبيعيا وسويا، عند الدخول إلى الفصل، وعندما يتلقون أخباراً سارة أو أثناء وبعد وجبة الغداء، أى عندما توجد الفرص المواتية للتحدث فيما بينهم، فمثلا عند نهاية عمل كل بالنجاح كالرسم مثلا.

وكم يكون جميلا ورائعا أن تنادى المعلمة أحد الأتراب أو حتى أحد الكبار ليرى «العمل العظيم» أو الرسم الرائع الذى نفذه... أو على العكس من ذلك تساعده على إصلاح ما لم يفلح فى عمله، وها هو مثل بسيط ولكنه معبر.

«عادل يلعب بسيارته البلاستيكية، وفجأة خرجت العجلتان الأماميتان من مكانهما (على المحور). فبالنسبة للطفل تحطمت السيارة، فيقف حائرا قلقا، فتقطن المعلمة- وهى تمر بين المقاعد- إلى الأمر، فتقترب من الطفل الذى ظل ساكتا ولم ينطق بكلمة، منتظرا رد فعل المعلمة، يمكن للمعلمة أن تقول له: «لا عليك، إن العجلة لم تتكسر بل خرجت من مكانها فقط، وسترى الآن كيف تصلحها».

فهى بهذه الكلمات «لا عليك...» قد أشعرت الطفل بمشاركتها الوجدانية له، وعلاوة على ذلك فهى تزوده بالمعلومة الصحيحة «بل خرجت من مكانها فقط»، ثم تتحرك بإيجابية لحل المشكلة، فيساعد الطفل المعلمة بحماس شديد فى إصلاح السيارة.

يمكن كذلك أن نعطى دفعة للحوار عن طريق لعبة التليفون فنحضر علبتى جبن فارغتين وخيطا، ثم يجلس طفلان كل منهما على مسافة من الآخر ثم يشرعان فى إنشاء مكالمة تليفونية، ويفضل فى هذه الحالة أن يكون أحد الطفلين طلق اللسان والآخر ممن يميلون إلى الصمت.

المحادثة

إن للمحادثة دورها المؤثر فى التربية اللغوية للطفل وإن كانت أكثر صعوبة، فهى تعنى حديث مجموعة من الأشخاص حول موضوع ما أو أكثر من موضوع على أن تحظى هذه الموضوعات باهتمام المجموعة المشتركة، بحيث يشارك الجميع كلٌ حسب دوره، بالاستماع أولا وبالكلام وبالسؤال والإجابة.

وتؤتى المحادثة ثمارها إذا ما كانت معدة مسبقا، وإذا ما تمت إدارتها بذكاء، على عكس ما إذا جاءت تلقائية وحرة، تنطلق من أى موضوع أو حديث جانبى.

ويمكن كذلك أن نجد فى المحادثة طرفى النقيض بمعنى أنها إما أن تكون معدة إعدادا جيدا لدرجة أنها تصبح حديثا من طرف واحد، أقصد من طرف من يديرها. وإما أن يكون العكس، بأن تكون غير معدة وتترك مجال التحدث فيها مفتوحا لمن يريد، مما يجعلها حديثا مبتورا وغير جاد ولابناء.

ومن المسلم به، أنه من العسير ان يشارك الطفل فى مرحلة الطفولة فى المحادثة، إذ أنه لا يملك القدرة على المشاركة فيها وعلى لعب دور نشط ومسئول داخل جماعة منظمة، ومع ذلك كله، فمن الممكن فى الروضة- كما كان فى الأسرة- بل ومن الواجب كذلك توجيه الطفل تدريجيا إلى المحادثة، وبذلك كما لو كنا نعده لأن يكون له دور بين أترابه.

وإذا كانت المحادثة بين الكبار- نادرا ما تؤتى ثمارها، ولا تدوم إذا غاب من يديرها، فكذلك ولنفس السبب، يجب أن تقوم معلمة الروضة بهذا الدور حتى يكون للمحادثة دورها الفعال فى النمو اللغوى للطفل. ويمكن للمعلمة مثلا أن تبنى بيتا من الكارتون، وأثناء العمل وخلال مراحله المختلفة، ومن خلال شرح كل جزء من البيت، تتاح ألف فرصة وفرصة- بطبيعة الحال- للمحادثة الشيقة والمجدية فى الوقت ذاته.

وإذا أردنا أن ينصب جهد الأطفال على المحادثة فقط، يمكننا إعداد مائدة وعليها أكواب الماء والأطباق، وزجاجات المياه، والملاعق والشوك والسكاكين البلاستيكية والمفارش الورقية، باختصار ما يلزم لإدارة محادثة غنية حول الأطعمة والأشخاص الذين يتناولون الطعام، وحول الغذاء والأصول العامة لحفظ الصحة.

ويمكن للمحادثة أن تنمى التربية اللغوية إلى جانب التنمية العقلية للطفل. فإذا ما قدمت المعلمة- مثلا- إناء مملوءً بالماء إلى الأطفال يمكنها أن تطرح عليهم سؤالا : «ما خصائص الماء، وما النفع والضرر الذى يسببه أو يجره الماء على الإنسان والحيوان والنبات والجماد كذلك ؟»

بطبيعة الحال، يعرف الأطفال أشياء كثيرة حول الماء، وهو عصب الحياة اليومية، وبذا يتكامل كم المعلومات الذى فجره هذا السؤال مع التربية اللغوية للطفل.

ويقدم إعداد الغداء، وتربية الحيوان، والعمل فى الحديقة، فرصا لا تعوض للمحادثة.

ونسوق هنا التجربة الموحية التى قامت بها Rosa Agazzi «هنا سنجمع الفاصوليا والبازلاء للغداء، وسنغنى أغنية جميلة ونحن نزيل القشر، بينما يقوم الصغار بعمل أكاليل من الحشائش، وأشكال بقرون الفاصوليا والبازلاء الفارغة. هل وجدت يرقة الفراشة التى تحط على زهرة البازلاء؟ آه، من يدرى ربما نجد منها الكثير! هل تتذكرون قصة الفراشة؟ لقد تركت الفراشة بيضة فى زهرة البازلاء، لا تكسرها. هل ترون معى أبا القصاد هناك فوق السطح؟ أعطونى الآن كل الحبات لنضعها فى الماء ونغسلها. انظروا! هذه الحبات لم تستقر فى القاع هل تعرفون لماذا؟ فلنر بعضها. هل هى سليمة؟ هل هى كاملة؟ لا، إنها فارغة لذلك فهى خفيفة مقارنة بالحبات الأخرى، ومن ثم فقد طفت على السطح».

وتتم المحادثة- فى كثير من الأحيان- بين الأطفال حتى دون تدخل المعلمة. فعندما يحفرون الحفر الصغيرة والأنفاق فى الرمال، وعندما يعدون المائدة معا، أو عندما يرفعون المائدة بعد الطعام، وكذلك عندما يكتشفون حيوانا صغيرا فى الفناء.

وعندما تصحب المعلمة الأطفال ليشاهدوا حقلاً أو حظيرة، أو واجهة أحد المحلات أو ورشة مثلا، يمكن فى هذه الحالة أن يدير الكبار (المزارع، أو التاجر أو الحرفى) محادثة ثرية بالمعلومات والأشياء الملموسة، الأمر الذى يكون له دوره وأثره لغويا وعقليا.

إن الثمرة التربوية للمحادثة لا يمكن إغفالها أو التقليل من شأنها؛ إذ أنها تتيح تبادل الأفكار والخبرات النافعة للنمو الذهنى لدى الطفل. كما أنها تثرى قاموس الطفل وتضع بين يديه نماذج لغوية من شأنها أن تعجل نضجه حرفيا ودلاليا. كما أنها تعمل على نمو الطفل الاجتماعى، إذ أنها تطلعه على لذة الحياة داخل الجماعة وتدربه على انتظار دوره فى الحديث بأدب وصبر.

ومن هنا يتضح- كما يقول ماسوكو كوستا Massucco costa وادا فونتسى Ada Fonzi إن: «الاتصال بالآخرين يمثل وسيلة لا غنى عنها للتنمية العقلية لدى الطفل، إذ أن الذكاء ليس ثمرة للنمو البيولوجى فحسب، كما أنه ليس أمرا مكتسبا فقط».

الفصل الثالث عشر

دور الصور والتمثيل فى التربية اللغوية للطفل

لاشك أن اللغة التى يتكلمها الطفل تنمو وتتطور تدريجيا من خلال أشكالها الرئيسية (المنولوج، الحوار، المحادثة) وخاصة إذا كانت نابعة من النشاط الذى يقوم به الطفل من لعب ونحوه، أو من الحياة داخل بيئة هادئة مشجعة وأعنى هنا الأسرة أو الحضانة أو الروضة إذا ما كانوا على مستوى الدور التربوى الذى يقومون به.

فخبرة مباشرة ومتنامية كهذه، ومعيشته داخل مجتمع يتسع شيئا فشيئا، يهيئان ولاشك الظروف الملائمة لنضج الطفل اللغوى.

بيد أنه نظرا لأن خبرة الطفل، وحياته الاجتماعية محدودتان إلى حد ما، فمن الأفضل أن يجتاز هذه العقبة عن طريق الأدوات والوسائل المتاحة حاليا وبوفرة، فإلى جانب اتصال الطفل المباشر بالأشخاص والأشياء، يوجد كذلك وسائل أخرى مثل المناظر المرئية، (أفلام تسجيلية، أشكال مرسومة، الصور الموجودة بكتب المطالعة).

ويوجد كذلك- إلى جانب لغة الكلام- الكلمة المطبوعة التى يتوصل الإنسان إلى قراءتها جيدا، إذا ما طلب منه قراءة هذه المناظر المرئية فى سنى عمره الأولى، أقصد عمر ما قبل المدرسة. وبقراءة المناظر أعنى بها التعرف عليها وتمييزها، وكذلك تسميتها وتصنيفها وأيضا التعليق عليها بالكلام.

معبر هام بين الخبرة المباشرة والكتاب

تمثل لغة الصور حلقة وصل بين خبرة الطفل اليومية والفعلية وبين قراءة الكتب. فكما أن الكبار يتميزون بحاسة بصرية متميزة، فإن الطفل كذلك له اهتمام خاص بالصور، فكما أن استخدام الوسائل السمعية والبصرية الحديثة يمكن أن يساعد على الاستخدام الشخصى للكتب، فكذلك الملاحظة الدقيقة والمتكررة للصور، تأخذ بيد الطفل نحو تعلم القراءة والكتابة. وتشهد اكتشافات الحفريات الصخرية فى كثير من بقاع العالم، على أن لغة الصور كانت وستظل بالنسبة لكل طفل أول أشكال «الكتابة»، ويجد الطفل متعته الحقيقية فى مشاهدة الصور- رغم أنها تعكس الحقيقة- إذا ما كانت متصلة ببيئته النفسية. وعلى الرغم من أن صورة لكلب صغير أو لسيارة، مثلا تمثل فقط بعض الخصائص المتميزة لوسيلة

المواصلات أو الحيوان، إلا أن هذه الصور تدفع بالطفل إلى ملاحظتها ووصفها، والتعليق عليها، أى أن هذه الصور تكون وسيلة لخلق منولوجات طويلة أو حوارات مليئة بالحياة، ولاسترجاع الخبرات الحياتية للطفل.

وتوضح باولينا كرجومارد هذا الأمر بقولها: «إن الصور هى الأخرى تساعدنا على أن نأخذ بيد الطفل نحو الكلام. من منا لم يسمع النبرة المقنعة الهادئة التى يطلب بها الطفل من أمه كتابا مصورا؟ من منا لم ير السعادة الغامرة التى تملأ الطفل إذا ما حصل على الكتاب الذى رغب فيه؟ إن خبرتنا قد زادتنا اقتناعا، بأن الصورة يجب أن تكون فى متناول الطفل يراها جيدا، وليلمسها وليقلبها بين يديه».

– لقد كان الأطفال دائما يعايشون الصورة من قريب، أما اليوم فقد أصبحوا يعايشونها– إلى حد كبير– من بعيد، وهم مبهورون بالصور التى تتحرك على الشاشة الصغيرة.

وتتابع الصور التليفزيونية (المرئية من بعد) لا يعطى فرصة للطفل غير الناضج ليفهم بدقة ما يدور أمامه، وليحلل كل صورة على حدة، الأمر الذى يجعل مشاهدته للعرض مشوشة ومبتورة وناقصة.

وعلى العكس من ذلك، فإن شكلا ما من الأشكال، أو كتابا مصورا، أو سلسلة من الصور، كلها تتيح للطفل فسحة للملاحظة الهادئة المتأنية، ولإدراك التفاصيل الشيقة التى تروقه، وكذلك ليسأل ويحصل على التفسير المناسب والشرح الوافى لأسئلته.

فالطفل يظل طيلة البث التليفزيونى سلبيا تماما ولا سيما إذا ما كان وحده، حيث تأسره وتجذبه الصور والمشاهد بدلا من تحكمه هو فيها، ومن ثم لا نعجب حين نسمع الناس يتحدثون عما أسموه «التلفيزيون المرعب».

أما عندما يختار ويرى ويتأمل فى صور أحد الكروت أو أحد الكتب أو المجلات، ويعلق على هذه الصور، فإنه بذلك يكون إيجابيا، إذ يلاحظ ويفكر، ويتكلم ويسمع نفسه أو يسمع الآخرين.

ولاشك أن قراءة الصور مختلفة تماما عن استخدام اللغة، وإذا فهى تسمح بتكامل اللغتين معا: لغة الصور ولغة الكلام، فإن الصورة تقدم إلى من يراها بكل تفاصيلها،

وألوانها، ومن ثم فهى تسمح بتأمل هذا الشكل أو ذلك، بل وفهم ما يراد من الصورة واستيعاب الرسالة (المعنى) الذى تتضمنه.

أما الحديث فما هو إلا مجموعة كلمات قصرت أم طالت، هذه الكلمات المرتبة بصورة منطقية، لتحمل رسالة معينة إلى السامع الذى يشعر فى الغالب بأنها مفروضة عليه. فالطفل عندما يكون صغيرا جدا يكون غير عابئ بالصور ذات التفاصيل الكثيرة، ومن هنا يكون من الأفضل عرض صور بسيطة عليه، والأخذ بيده إلى ملاحظة، وتحليل أجزائها ومكوناتها بادئا بالأجزاء الرئيسية. وكما أننا نجد أن الكتب المصورة ذات المضمون السياحى، أو الجريدة الأسبوعية المصورة تكون مليئة بالتعليمات الإيضاحية على كل صورة إلا أنه يجب أن يصحب الصورة المقدمة للطفل تعليق من الكبار، أو من زميل الطفل، أو أخيه الأكبر، ولا مانع أن يكون التعليق من القارئ الصغير الطفل نفسه.

ويلزم قبل شرح موضوع ما، أو سرد حدوتة، أو قراءة موضوع ما على الطفل، أن توضع بين يديه صور تتيح له أن يعايش مضمون الشرح أو السرد أو ما شابه ذلك.

ونشير إلى ما قالته كرجو مارد P.Kergomard حيث تقول: «يجب أن تكون الصورة المعروضة على الطفل غاية فى البساطة، ويجب أن يكون مضمونها شيئا أو حيوانا يراه كل يوم . كأثاث البيت، أو الأوانى أو محتويات المطبخ مثلا، ويضاف لها فيما بعد، وإثراء المحادثة كلب أو قط أو طائر أو حمار، وما أكثر المفاجآت التى يخبئها لنا الأطفال حيث إن جهلهم بالأشياء التى نتصور أنها مألوفة لديهم شئ لا يصدقه عقل».

أنواع مختلفة من الصور

لاشك أن تصنيف الصور وتقسيمها فى وقتنا الحاضر سواء فى المنزل أو فى الروضة، قد أصبح ميسرا عن ذى قبل، ويمثل الرسم كذلك وسيلة هامة لتربية الطفل اللغوية، علاوة على كونها أسلوبا تلقائيا للتعبير عن الحقيقة وتمثيلها بالرمز.

والطفل إذا ما رسم ولوّن وحده أو وسط مجموعة، معتمداً على نفسه أم تحت إشراف المعلمة- فإنه يستشعر الحاجة إلى تجاوز حدود التعبير بالرسم عن طريق التعليق بالكلام. وهنا يتولد المنولوج والحوار والمحادثة التى تصُب فى أسئلة أو إجابات أو شرح أو تعليق شخصى. والرسم يتميز عن أنواع الصور الأخرى بحرية التعبير عن الحقيقة، وبترجمة ذاتية بالرسم، لشئ سمعه الطفل. ومن هنا فإن الرسم يقدم فرصة كبيرة للكلام، وخاصة إذا ما

كانت المعلمة واعية فى استخدام الكلام وحث الأطفال على التحدث والاستماع بدلا من تركهم يشاهدون الصور فى صمت، وتمثل البطاقات (الكروت) والكتب المصورة، وصور الحائط ، والصور المأخوذة من مجلات الأطفال أوالكبار، وكذلك الصور الشمسية، أشكالا أكثر واقعية من الرسم، حيث إنها تساعد على خلق مواقف، وعلى تذكر البيئة وما بها، وكذا تساعد على التعليق على كل صورة على حدة، وعلى إثراء القاموس اللفظى للطفل، وأخيرا على تولد الحوار أو المحادثة. ولاشك أن مجموعة من هذا النوع من الصور- وخاصة إذا شارك فى جمعها الأطفال وأسرهم- توفر إمكانية عمل تصنيفات بسيطة (وأشخاص، حيوانات، أشجار، زهور، وسائل مواصلات...) وكذا عمل تصنيفات فرعية (أطفال وكبار، حيوانات أليفة- متوحشة، سيارات نقل أشخاص وعربات نقل). كما أنها تسمح وتعطى دفعة للتربية العقلية واللغوية للطفل. وتمثل كذلك الأفلام المصورة ولا سيما إذا تم اختيارها واستخدامها بطريقة ملائمة، إسهاما كبيرا فى تربية الطفل لغويا. فهى عبارة عن كلمات مصحوبة بصور مرئية، ومن ثم فهى شبيهة بحديث ما، إذ تمثل حافزا للنشاط العقلى واللغوى لدى الطفل، وهو عن طريق هذا الحافز يرى ويحلل ويفكر ويعلق على ما يراه حتى وإن كان أحيانا بصورة كوالية-جماعية آلية).

ويمكن أن يثير- فيلم قصير لبضع دقائق- الأطفال الأصغر سنا بيد أنه يفيد بالأحرى فى حالة الأكبر سنا الذين يتمتعون بقدرة أكبر على الانتباه لفترة طويلة، وعلى الفهم كذلك. ولا شك أن طرق التدريس الحديثة، مثل السبورة المونيتور وغيرها تتيح الفرصة لعرض الصورة الصغيرة، أو الرسم الذى نفذه أحد الأطفال- على جدار أبيض أو على شاشة كبيرة، وبهذه الطريقة يمكن الإفادة من هذه الأشكال المختلفة للصور التى أسلفنا ذكرها.

التمثيل

يعتبر اللعب التلقائى- كما هو معلوم- النشاط النمطى للطفل، فمن خلاله تنمو أبعاد شخصية الطفل، ويعبر عن ذاته بدقة، يمثل اللعب فى الواقع أولى خطوات لغة الطفل؛ تلك اللغة التى تترجم لها الحركات، وتعبيرات الوجه، والأصوات والضوضاء وصيحات التعجب. ويكون للعب قيمة «اللعب التمثيلى» الذى غالبا ما يصحبه حديث الطفل لنفسه (المنولوج). ومن ثم فإن الطفل بطبيعة الحال يميل إلى الطريقة التمثيلية والتى من خلالها يكشف عن عالمه الخاص ومكنون نفسه، وغالبا ما ينطلق إلى الاتصال بالآخرين.

ويكون الطفل السليم والطبيعي (عاشقا) للتمثيل لأسباب عدة. إما لأنه إيجابي وليس سلبيا، وإما لأنه ممثل أكثر من كونه مشاهداً، ولأنه يروقه تذكر تجاربه الشخصية وبيئته الحقيقية أو لأنه شغوف باختراع مواقف وشخوص معينة. وينطلق الطفل في- طريقته التمثيلية- مقلدا أعمال الأم المنزلية أو مهنة الأب، أو مقلدا نباح الكلب أو مواء القط، أو بقيامه بتمثيل دور رجل الشرطة. ورغم أن عالم الأسرة والبيئة يروقان للطفل، إلا أنه يحلو له غالبا تجاوز هذه الحدود الضيقة، ويتخيل نفسه طيارا، أو ساحرا، أو إنسانا آليا، أو أسدا أو عصفورا، مع تقليده للأحاديث والأصوات والحركات التي تصدر عنهم.

إن الإبداع (التمثيلي) لدى الأطفال، وهو قريب جدا من الإبداع الأدبي، يمثلان معا أكثر مظاهر الإبداع انتشارا وتكرارا عند الأطفال. إذ أن الإبداع المسرحي يلائم طبيعة الأطفال وميولهم، يرجع ذلك إلى عاملين أساسيين؛ إذ أن التمثيل مبني- في المقام الأول على الحدث وعلى فعل آخر يقوم به الطفل ذاته، ومن ثم فهو يربط بصورة واقعية ومباشرة بين الإبداع الفني والتجربة الشخصية. وكذلك فإن انطباعات الطفل التي يستقيها من الواقع المحيط به، تجد لها متنفسا عن طريق التقليد. أما فيما يتعلق بالتجارب التي لم يخضها الطفل مثل البطولة والشجاعة والتضحية، فإنه يبتكرها، ويخترعها من خلال فطرته وخياله الجامح.

إن الطفل يجنح دائما إلى ترجمة انطباعاته وتجاربه إلى واقع محسوس على عكس الكبار الذين يقتصر خيالهم على مجال أحلام اليقظة فحسب، أما السبب الثاني الذي يحبب التمثيل إلى نفس وقلب الطفل، فهو العلاقة الموجودة بين أي عمل تمثيلي وبين اللعب الذي يعد أساس كل إبداع لدى الصغار. فعندما يكون الطفل صغيرا جدا، تكون ألعابه المفضلة، قائمة على الحركة وتتميز بطغيان الجهد البدني على النشاط الذهني ، وبنشوة سماع أو إحداث الضوضاء. ومثل هذه الألعاب نجدها أيضا في مراحل لاحقة من عمر الطفل إذا ماكان غير مكتمل النضج.

أما إذا كان الطفل عاديا (ناضجا) فإن لعبه يتحول شيئا فشيئا إلى لعب تمثيلي، بمعنى أنه يعبر عن حياته الخاصة ودخيلة نفسه عن طريق لغات متعددة وغير مضبوطة مثل الحركات، وتعبيرات الوجه والبانتومايم، والكلمات والعبارات.

ويتميز النشاط التمثيلي لدى الطفل في سني عمره الأولى بالانعزالية، ويكون مصحوبا بحديث الطفل لنفسه، وخاصة إذا ما كان غير مراقب، أو شعر بأن عين الآخرين لاتلاحقه.

وعندما نضع بين يدى الطفل الصغير «المؤلف الممثل» المواد المناسبة (قطع من القماش، قبعات، علب ورقية، قطع خشبية طولية، مكعبات قوالب صغيرة) فإن لعبه التمثيلى سيستمر وسيصبح حافزا مؤثرا و دفعة للنضج اللغوى في شتى مظاهره وتقويما لنطق الطفل، وطلاقة للسانه ومقدرة على صياغة الجمل الطويلة والربط بينها.

وإذا كان التمثيل الفردى جديراً بالتشجيع وإتاحة الفرصة له، فلا يجب أن ننسى أن له بعض السلبيات من ناحية تكرار موضوعاته ونمطيتها ورتابتها وقلة لغة الطفل مركزية الذات اللغوية ومن ثم فمن الأفضل أن يتكامل ذلك مع التمثيل الجماعى الذى يتعدد فيه «الممثلون والمشاهدون» أقصد الأطفال، وهذا النوع لايتوافر بسهولة داخل الأسرة، بينما تعد روضة الأطفال مكانا مثاليا له بشرط أن تتبنى لذلك وسائل ملائمة.

وعلمنا فيما سبق أن الطفل لا يصل إلى مستوى الحوار والمحادثة - فعليا- إلا إذا أخذ الكبار بالمبادرة من جانبهم، ولذا يجب على المعلمة بالمثل أن تساعد الأطفال وتقودهم إلى تشكيل مجموعات والعمل بروح جماعية، كممثلين مبتدئين بوسعهم جذب انتباه المشاهدين الصغار من خلال استخدام لغة واضحة وإيقاعية، وكذلك من خلال الحركات .

وقد كتبت ماريا سنيوريللى Maria Signorelli تقول : «لقد أظهرت الأبحاث بشأن أطفال ماقبل المدرسة أن الحكايات التى تصف الأحداث اليومية وترتكز عليها، تعدّ ملائمة أكثر من غيرها، أعنى الخرافة والحكايات على ألسنة الحيوان. إذ أن أحداث الحياة التى يعيشها الطفل فى أحضان أسرته أو خارجها هى التى تروق للطفل أكثر بكذلك يسره دائما تذكرها، وهذا يعنى أننا نستطيع أن نجزم بفائدة الخرافة، وحكايات الحيوانات والنباتات، وكذا القصص الشعبى الذى غالبا مايعرضه التلفزيون.

وتمثل اللعب وغيرها من مكونات البيئة، عنصرا ضروريا للسرد مثل الدب الصغير اللعبة، والدمى، والقطار اللعبة وعربة النقل الصغيرة والوردة المزروعة بالحديقة أو العصا أو نحو ذلك.

وتكون الحكايات (الحدوتة) شيقة بالنسبة للطفل، وغير مستعصية الفهم إذا كان السرد بسيطا ومرتبا. وتساعد الوقفات القصيرة الطفل على تقليل حدة انفعاله مع الحدوتة، وعلى فهم خيوطها بدقة، وكذلك على الإلمام وملاحقة التتابع المنطقى للأحداث.

ويحقق التمثيل الجماعى الذى يعكس حياة الطفل اليومية، وكذلك مسرح الأطفال نوعا من «الاجتماعية» بين الممثلين، بعضهم بعضا والمشاهدين أنفسهم، كما أنهما يتيحان للطفل فرصة طيبة تثرى تجاربه، وليصبح أكثر وعيا، وفوق ذلك فإنهما يسهلان ويعجلان انتقال الطفل من حيز لغة مركزية الذات إلى آفاق اللغة «الاجتماعية» أى من المنولوج (حديث النفس) إلى الحوار و المحادثة.

العرائس المتكلمة (الأراجوز)

شكل آخر من أشكال التمثيل التى تستهوى الأطفال- والتى تمثل تقريبا الأشخاص- الممثلين- هو الأراجوز الذى يمثل بالنسبة للأطفال شخوصا لها وجه، وحركات، وصوت، وسلوك، وأدوار خاصة يؤدونها، ويسعد الأطفال بها، وإن كانوا يلجأون إلى خيالهم ليكملوا صورة هذه الشخوص فيتخيلون وجود الساقين والأقدام، وعندما يتجاوب الأطفال مع العرض يبدءون فى مشاركة البطل (الأراجوز) الدور الذى يلعبه. ويستهوى الأراجوز الأطفال الصغار لأنه أشبه ما يكون بلعبة من لعبهم، ولأنه يجد الأفكار، ويترجم الأحداث بالحركات مع استخدام واع للكلمة (تنوع نبرة الصوت، الوقفات المناسبة، التكرار للإيضاح). ويمكن للمعلمة أن تقوم بدور المخرج (الأراجوز)، وهى إن فعلت ذلك، تجنب انتباه الطفل إليها، مما يثرى لغته، ويصحح بطريقة غير مباشرة وبفعالية الأخطاء اللغوية الأكثر شيوعا. ويؤكد جينودى روزا Gino di Rasa أنه: «يجب أن تكون الأولوية فى الروضة للغة الأراجوز كوسيلة للاتصال بين المربية والأطفال. إذ فى هذه الحالة تكون المعلمة هى التى تروى للأطفال وإن كان من خلال العرائس (الأراجوز)، وهى التى تبتكر الشخوص وتجسدها، وكذلك المشاهد ، وهى بذلك تدعو الأطفال إلى المشاركة عن طريق الحوار مع الأبطال ذوى الرءوس الخشبية (الأراجوز) ، ويمكن أن تتطور مشاركة الأطفال لتصل إلى إعداد المادة التى يصنع بها الأراجوز الذى يمكن عمله بسهولة حتى عن طريق قطعة الحديد المعقوفة والسدادات الفلينية أو الخشبية، بينما تكفى قطع القماش الملونة والعصى الصغيرة للملابس الفاخرة والأسلحة المدمرة للأراجوز . ويمكن أن تكون المشاركة عن طريق اقتراح موضوعات عائلية على المعلمة ، أو عن طريق مساعدة المعلمة عن طريق نطق بعض العبارات السهلة ، بل إن المشاركة يمكن أن تصل إلى أعلى مستوى لها ألا وهو قيام الأطفال أنفسهم بتقديم العروض ، إما كمؤلفين وإما كممثلين. وكلما كانت مشاركة الأطفال على نطاق واسع ، كانت هناك فعالية وأثر ايجابى فى طريق التربية اللغوية للطفل . ولقد كتبت ماريا سنيوريلى

Maria Sighorelli تقول: «إن الطفل يتعلم- من خلال لعبة الأراجوز- التعبير عن نفسه بصورة واضحة وطبيعية، إذ أنه فى مسرح العرائس يجد نفسه وقد اندمج مع الشخوص التى تتحرك- فى بوتقة واحدة، الأمر الذى لا يحدث فى حالة التمثيل، حيث يتكلم الطفل بوضوح وطلاقة لأنه يعلم أن من يسمعه يفهم كل ما يقول، وغالبا ما يكتسب الأطفال الذين لديهم بعض الصعوبات فى الكلام ، أول تجربتهم فى التحدث بطلاقة، وهم يحركون الأراجوز.

وقد يكون هناك بعض الصعوبات فى هذه المرحلة من العمل التربوى، تلك الصعوبات التى ترجع إلى الخجل المبدئى للطفل، وإلى إخفاقه فى التعبير عن نفسه بدقة، وإلى فقر قاموسه اللغوى، وكذلك إلى إدراكه لعيوب نطقه. وإن كانت هذه الصعوبات قد تثير المخاوف فى بداية الأمر، إلا أنه سرعان ما تتلاشى، ويحل محلها الرغبة الأكيدة لدى الطفل فى تحسين نفسه، وفى التغلب على شعوره بالخجل، وكذا على عيوبه فى النطق».

الفصل الرابع عشر

قصص ومطالعات

أوضحنا فيما سبق أن أحاديث الطفل لنفسه، والحوار والمحادثة، تتكامل بقوة مع اللعب والخبرات الحياتية الموجودة فى بيئته.

وتسهم لغة الصور وأشكال التمثيل المختلفة كذلك فى إثراء مجال معرفة الطفل وتوسعة مداركه، وتوضح بعض جوانب حياته اليومية بل وتشبع كثيراً من حاجات الطفل النفسية، بيد أن كل هذا لايعنى استحالة أو خطورة أن نقدم لأطفالنا «الكلمة البكر» النقية بشتى أشكالها من حكاية (حدوتة) وأغنية وأنشودة.

استعادة الكلمة المسموعة لمكانتها

من المعلوم، أنه عبر آلاف السنين، نقلت البشرية إلى الأجيال الجديدة صفوة خبراتها وأفكارها عن طريق الكلمة المنطوقة، فالآباء والأجداد والشعراء والقصاصون وشعراء الربابة (المتجولون) قد ألقوا بأصواتهم - على مسامع الصبية أو الجمهرة التى لم تكن تعرف القراءة أو الكتابة - الأحداث المعبرة، والأمثلة التى يجب أن تحتذى، كما أنهم لخصوا صفوة تجاربهم فى أمثال شعبية، كما شنفوا آذان الناس بالقصص الخيالى، ولقد أعطى اكتشاف واستخدام الكتابة قديما، علاوة على اختراع الطباعة فى بدايات العصر الحديث، السيادة والمكانة للكلمة المكتوبة على حساب الكلمة المنطوقة، بل أستطيع القول بأن الطباعة قد جعلت من الكتاب الذى كان يكتبه النساخون قديما بصبر جميل، الوسيلة المثالية للثقافة، وحجر الزاوية فى طرق التدريس التى تتبناها المدارس مما أدى إلى وصفها بالمدارس الكتبية (القائمة على الكتب).

وبينما كانت المدارس الإلزامية، والمجانية تهتم - فى القرن الماضى وبداية القرن الحالى - بتعليم القراءة والكتابة وبالتالى بنشر الكلمة المكتوبة (مطبوعة أو بخط اليد) كانت الكلمة المصورة تكشف عن نفسها، أقصد «لغة الصور» التى تمثلت فى التصوير الشمسى وفى كثرة الصور المرسومة والمطبوعة وتجريدها، علاوة على السينما ومجلات الأطفال المصورة والدوريات وبالإضافة إلى كل ذلك كان التليفزيون قد بدأ فى الظهور.

رغم ذلك لم يؤد انتشار لغة الصور إلى أفول نجم الكلمة المنطوقة (اللغة الدارجة)، التى ظلت صاحبة السيادة فى الحياة اليومية وفى مجال الثقافة (الحضارة) كما يشهد بذلك التليفون (المسرة) والراديو والمسرح.

ولقد بدأ الدور التربوى للنص المكتوب فى التقلص حتى فى المدارس الإلزامية، كما يتضح ذلك من واقع التعليم الابتدائى بإيطاليا لعام ١٩٧٩.

إن تدريس اللغة فى المدارس التقليدية قائم على أنه «يجب أن نتكلم كما نكتب» بمعنى أن تكون الأولوية، للبلاغة والبديع، أما التوجيهات الحالية، فعلى العكس من ذلك – تنادى بتغيير هذه القاعدة، وقلبها إلى «يجب أن نكتب كما نتكلم» أى ببساطة وطلاقة لسان.

وإذا كانت المدارس الإلزامية وكذلك رياض الأطفال، تهتم بتعليم الأطفال القراءة والكتابة، فإنها تولى اللغة الشفهية أهمية ورعاية خاصة. ويقول ماوريستيو دلاكازا فى كتابه «تعليم الإيطالية» إن الكلمة المنطوقة (الشفهية) ظلت الوسيلة الفعالة والرئيسية للاتصال بين الناس ولحفظ الموروث الحضارى، وذلك حتى بداية انتشار الطباعة، ويضيف هذا الخبير التربوى : «إن لغة الطفل – فى سنى عمره الأولى – تتجسد من خلال الحركة وتتخذ شكلاً حسيا حركيا، وعند ما يكبر الطفل فإنه يتمكن من اللغة ويظل ملتصقا بعالم الواقع، وتتميز لغة الطفل بعناصرها الصوتية والتعبيرية القوية، وإن ظل القاموس اللفظى للطفل محدوداً، وكذلك مقدرته على صياغة الجمل، تظل بسيطة وبدائية.

القصائد والأغانى والأناشيد

تمثل أغانى الأطفال جزءا حيويا من اللغة الدارجة (لهجة الطفل) فالطفل يسمعها للمرة الأولى عندما يكون صغيرا جداً على لسان الأم أو الجدة، ويتكامل إحساس الطفل بالدفء العاطفى لذة الاستماع لتلك الكلمات «ذات الجرس» والتفعيلة والقافية، علاوة على أحتوائها على مواقف من البيئة أو العائلة.

ومن ثم فإنه من المناسب أن يسمعها الطفل ويرددها من جديد فى الروضة حيث يجد فيها التجارب العائلية، والدفء العاطفى الذى استشعره ذات يوم فى كنف العائلة، وكذا التقاليد البيئية وها هى أغنية أطفال إيطالية :

«أيتها النجمة الصغيرة / الليل يقترب واللهب يخبو/ البقرة في الحظيرة/ ومعها ولدها/ والماعز معها الحمل/ والدجاجة معها صغيرها (الكتكوت)/ الأم وصغيرها/ والطفل وأمه/ هيا بنا لننام».

ونظرا لأن الأغاني تتكرر باستمرار، فإنها تفيد في تحسين النطق وتساعد على اجتياز الطفل لعقبة الخجل، ولاسيما الأطفال غير الناضجين أو ذوى الميول الانعزالية، كما أنها تعمل على علاج التلعثم لدى الطفل ولو بصورة جزئية.

ويمكن أن تكون الأغنية عاملا على تكوين الطفل اجتماعيا وأخلاقيا إذا ما اختارتها المعلمة وألقتها بطريقة تربوية سليمة. ويبدو لنا أنه من المناسب في هذا المقام أن نستأنس بما قاله تشارلز ديكنز في تعليقه على الإنجليزية إذ يقول :

«لعله من الصعب بمكان أن نحصي الكم الهائل ومدى النفع العميم الذى اكتسبناه من خلال هذه الأغنية البسيطة، فكم من أخلاق غرستها فينا، الصبر والأدب، واحترام الفقراء والكبار، والإحسان إلى الحيوان، وحب الطبيعة، وبغض التسلط والقوة الغاشمة وغيرها من الخصال والسجايا الحميدة التي غرست في قلوب الأطفال».

ويكتسب الشعر نفس الأهمية، وهذا أمر منطقي، إذ أن الطفل يجد فيه المضمون «مشاعر وأفكار» ذلك المضمون يكون مساويا من حيث الأهمية للشكل (موسيقية الأبيات والصور البلاغية).

ويتطلب استخدام الشعر في الحضانة وروضة الأطفال نضجا معينا لدى الأطفال، واختياراً دقيقا للقصائد من جانب المعلمة.

وتلعب الأغنية كذلك دورا كبيرا في النضج اللغوى للطفل، إذ فيها نجد التقاء الكلمة المغناة، مع الفكرة التي تثيرها هذه الكلمة في الطفل.

وحبذا لو أجادت المعلمة (المربية) الغناء والعزف على آلة موسيقية، ويجب على المربية أن تقود الأطفال أثناء الغناء، مستعينة بالأسطوانات وشرائط الكاسيت والمونوغراف، وإن أدى الأمر إلى تعاونها مع زميلاتها الخبيرات في هذه النقطة، أو بالأطفال ذوى المواهب الخاصة في هذا المجال.

أوضحنا فيما سبق أن تفكير الطفل يكون مرتبطا – فى مراحله الأولى باللعب، ويتم ترجمة هذا التفكير إلى كلمات من خلال حديث الطفل لنفسه، ومن خلال الحوار. كما أن لغة الصور تعطى دفعة إلى نشاط الطفل العقلى، وذلك فى مرحلة ثانية ومن ثم يوصى باستخدام الصور والرسم منذ الطفولة الأولى، وكذا التمثيل.

ومن الضرورى فى مراحل تالية – أن يتكامل التفكير الرمزى فيعتمد فى ظهوره ونموه على الكلمة.

ولاشك أن اللعب خاصة إذا ماصحبه حديث الطفل لنفسه يساعد على نمو ذكاء الطفل، وكذا التقليد الذى يتخذ شكل التمثيل المرتبط عادة بالكلمة، ومن ثم فلن تستطيع معلمة الروضة أن تقوم بتربية الطفل لغويا وعقليا – بالدرجة الكافية والمرجوة – إلا إذا استخدمت أسلوب الحكاية والمطالعة.

وتساعد الحكاية والمطالعة – من جانب الكبار – على تقوية الملاحظة لدى الطفل، وكذلك على إثراء لغته، بل وعلى التغلب على سطحية وضحالة تفكيره وخبراته، ولاسيما إذا كان موضوعهما مرتبطا بواقع الطفل وتجاربه، وعلى العكس من ذلك، إن كان مضمونهما قائماً على الخيال أو بعيداً عن واقع الطفل، فإنهما يفتحان بابا على عالم الخيال، ولاشك أن مثل وميزات الحكاية والمطالعة، واضحة وسافرة لكل ذى عينين وخاصة من الناحية اللغوية، فهما يثريان قاموس الطفل ويصححان نطقه، ويعلمانه استخدام الألفاظ والمفردات ويقدمان له نماذج لغوية فى سياق حى وشيق، والأكثر من ذلك يتيحان فرصا للحوار والمحادثة وللتعبير بالرسم وبأشكال التمثيل المختلفة.

كما أنهما – فى نهاية الأمر، يعدان الطفل لتعلم القراءة الشخصية أى قراءته بمفرده معتمدا على ذاته.

وفى واقع الأمر، أن فهم الحروف الأبجدية المطبوعة وتمييزها أو الربط بينها لتكوين كلمة أو مجموعة كلمات مفيدة المعنى، وكذلك فهم وتذوق صفحة صغيرة من كتاب المطالعة، ليس أمرا سهلا دائما بالنسبة لطفل له من العمر ست أو سبع سنوات، إذ أن الطفل يدخل المدرسة الابتدائية ومعه غالبا مشاكله الاجتماعية والنفسية .

وقد يحدث فى كثير من الأحيان أن يسبب الكتاب كثيراً من المشاكل بالنسبة للطفل مما يحيل حبه الكبير للكلمة المطبوعة كرها ونفورا. ومن ثم فإن مهارة الطفل فى استخدام الكتاب بصورة مباشرة ودون وساطة المعلمة أو أحد الأقارب، تتوقف على الكبار عندما ينهلون من الكتاب ويحكون على مسامع الأطفال القصص والحكايات. ولقد اعترف كثير من الكتاب صراحة – أن الجذور البعيدة التى أثمرت حبهم الجم للكلمة المطبوعة هى السعادة الغامرة التى كانت تملأ جوانحهم فى طفولتهم، وهم يسمعون ويقرأون القصص والحكايات. ويكفى أن نذكر هنا أبيات قصيدة جوزيه كاردوش التى يقول فيها : «آه ياجدتى كم كانت جميلة ورائعة/ كنت لا أزال طفلا صغيرا – قوليها لى ثانية/ قصيها على ذلك الرجل اليافع، قصى عليه الحكاية/ حكايتها وهى تبحث عن حبها الضائع / سبعة أحذية اهلكتها جميعاً/ أحذية فى متانة الحديد، أهلكتها لأعثر عليك/ سبعة قضبان حديدية أهلكتها متوكئا عليها/ فى مشوارى الطويل/. سبع زجاجات ملأتها بالدموع/ سبع سنوات طويلة من الدموع...».

قد يبدو هذا الكلام – عتيقا – لأنه مضى على طفولة كاردوتش قرن ونصف القرن، وعندنا الآن السينما والتلفاز والفيديو كاسيت وغيرها من الوسائل التى تجمع بين الصوت والصورة.

بيد أنه لايزال لاستخدام الكلمة المجردة (الحكاية أو المطالعة) الثقل الكبير والفعالية التى لاتضارع فى مجال التربية العقلية واللغوية حتى فى رياض الأطفال.

ويجدر بالذكر هنا التجربة التى جرت منذ عدة أعوام فى روضة الأطفال بيارما par-ma (مدينة إيطالية) ، والتى أشارت إليها رافائيلا ميليولى R. Milioli فى مقالها «الأطفال والحكاية» والذى نشر فى مجلة «أبحاث تربوية» ، ومفاده أنه يتم تقسيم أطفال أعمارهم خمس سنوات، إلى ثلاث مجموعات، كل مجموعة تضم عشرة أطفال، ثم قدم لهم نص روائى قصير بثلاث طرق مختلفة، أولها بالحكاية للمجموعة –أ – ، وثانيها بالصور للمجموعة –ب– وثالثها من خلال الحكاية والصور معا، وكان للمجموعة – جـ – وكانت النتيجة على عكس كل التوقعات المبدئية، فلم تشحذ لغة الصور خيال الطفل بدرجة كبيرة، اللهم إلا فى بعض الحالات القليلة ولم يكن للحكاية مع الصورة الثمرة المرجوة كذلك، أما السرد بالكلمة المجردة – الحكاية المجردة – فقد أثبت جدواه وأثبتت الحكاية بالكلمة وجودها وكيانها

وهاهو تقييم الكاتبة رانيلا النهائي إذ تقول «لقد أصبح لدينا انطباع أن الصورة بدلا من تيسير فهم واستيعاب الحكاية، قد تتسبب في تشتيت تركيز الطفل على أحداث وتتابع الحكاية (السرد) وتظهر نتائج التجربة الأثر الكبير للرواية الكلامية حيازتها قصب السبق على الشكلين الآخرين.

الحكاية:

يلح سؤال مبدئي على معلمي رياض الأطفال وعلى أولياء الأمور أنفسهم ألا وهو: هل من الأفضل استخدام الحكاية أم المطالعة مع الطفل؟ وهل يتوقف نضجهم على اختيار شكل الحكاية ونتائجه؟

إن من يثور في ذهنه هذا التساؤل، غالبا لايجد في نفسه حرجا أن يميل إلى الحكاية، وخاصة إذا ما كانت الحكاية موجهة إلى التلاميذ أو الأولاد الصغار.

تخطى الحكاية في واقع الأمر بالقبول لدى الأطفال مقارنة بالمطالعة، إذ أن الحدوتة المحكية يسمعها كل من الراوي والمستمع، ويمكن لمن يقوم بالحكاية الاستعانة بالحركات وتبادل النظر مع السامعين (الأطفال).

وكما أنه من الصعب على الطفل الحوار والمحادثة مع الآخرين، فإنه ليس من السهل حتى على المعلمة، أن تقوم بدور الراوي، رغم معايشتها الطويلة للأطفال، حيث إن هناك فناً عرفته البشرية ويجب على المربين خاصة أن يحيطوا به، ألا وهو فن الحكاية.

فمن يجيد فن الرواية للأطفال فعلاً يتعايش مع الحكاية التي يحكيها - في كل مرة - مبهجة كانت أم محزنة، ويمكنه فوق ذلك أن يسبر أغوار نفسية الطفل الفاضة.

ويجب على الحاكي أن يتكلم بطريقة واضحة، وبسيطة وطبيعية، دون اللجوء إلى المحسنات البديعية، أو التقعر في الكلام، وعليه كذلك أن يغير من نبرة صوته ومن طريقة إلقائه حتى لايسأم السامعون، كما يتعين عليه أن يحسن الوقفات حتى يخفف من التوتر الانفعالي لدى الطفل، وكذلك ليلتقط الطفل أنفاسه ويستعيد نشاطه وانتباهه.

ومن المفضل أن يلجأ الحاكي إلى استخدام الحوارات والتكرار لكي يسهل على السامعين استيعاب الحكاية، وحتى تزداد غبطتهم بالاستماع.

إن للصوت في فن الحكاية الأهمية الكبرى إلى حد أن طريقة العرض السيئة قد تشوه تماما، حكاية جميلة إلى حد كبير.

وأصوات النساء - عموما - حانية، وذات نبرة هادئة وغالبا ما تكون مصحوبة بالحركات، وإن وجد منهن ذوات الصوت الأجش الفج والمعل الأمر الذى يعود بالسلب على الحكاية. كما يجب على من يحكى أن يراعى أنه لايلقى درسا، بل عليه أن يضع فى حسبانه أن الأطفال ليسوا هنا (أمامه) لسماع دروس ما، بل ليكونوا على اتصال مع كائنات تعيش وتتحرك وتتصرف وتبصرهم، هذه الكائنات هى أشخاص وأشياء أبطال حكايته.

كما يجب كذلك اختيار الوقت المناسب للحكاية، بحيث يكون الأطفال فيه مستعدين لأن يسحروا ويبهروا، لا أن يكونوا متعبين وفى حاجة إلى الراحة.

ويجب أن يكون صوتنا موسيقيا دافئا ونحن نحكى لأطفالنا حتى نغرس فيهم دون أن يشعروا القيم والمعانى النبيلة والخلال الحميدة حتى يشبوا عليها ويصبحوا رجالا صالحين فى مجتمعهم.

وإذا ما قدمت الحدوتة بطريقة جذابة وملائمة، فإن معينها لن ينضب ولن تنتهى بمجرد حكايتها، لأن الأطفال يكررونها، ويرددونها، ويعدلون فى كلماتها بل ويمثلونها بالحركة أو بالرسم.

إذ أنه من الممكن على سبيل المثال وبعد حدوتة ما، تصميم قلعة حربية بسورها وأبراجها ويكون ذلك تحت إشراف المعلمة.

ويحاول الطفل - أياماً كثيرة - أن يقص على والديه الحكاية الجميلة التى سمعها فى الروضة بيد أنه لايجد فيهما آذانا صاغية، ومن ثم يتجه وخيبة الأمل تملؤه - إلى أخيه الأصغر أو إلى القط أو الكلب الصغير أو الدب اللعبة أو إلى طفل «من صنع خياله» فى محاولة ساذجة لإشراك الآخرين معه فى جو الحكاية الساحر.

مطالعة

لاشك أن قراءة قصة ما، على لسان الكبار بها بعض السلبيات التى لاتوجد فى الحكاية، فالقراءة تكون باردة وأقل حيوية من الحكاية، حيث يصعب معها استخدام الحركات وتقل معها فعالية الاتصال بين الأشخاص (الحاضرين) ذلك الاتصال الذى يتم عن طريق الأعين، بتبادل النظرات.

غير أن المطالعة - مع ذلك - لها ميزات أخرى مقارنة بالحكاية، وعلى أية حال فإن دور المطالعة مكمل ومتمم لدور الحكاية وخاصة فيما يتعلق بالتربية اللغوية لدى الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين خمس وست سنوات.

وها هى بعض السلبيات التى تظهر فى الحكاية على عكس المطالعة محدودة، ومن ثم يلجئون إلى التكرار مستغلين حب الأولاد وشغفهم بسماع نفس الحكايات التى سمعوها من قبل.

وعلاوة على ذلك، فإن من يحكى بحرص أشد ما يحرص عليه أن يكون كلامه مفهوما، ومن ثم فإنه يجنح إلى استخدام مفردات ركيكة ولايلقى بالا إلى قواعد النحو والصرف.

وفوق ذلك كله، فإن المستمعين الأشبال يتمتعون بحافظة واعية، وذاكرة فولانية تختزن التفاصيل الدقيقة جدا، ويحب الأطفال سماع هذه الجزئية من تلك الحكاية وهكذا، ومن ثم يعترضون ويثورون إذا ماعدل الكبار فى لفظة ما، أو عبارة أو جزئية من الحكاية.

وبناء على ما تقدم، فإن المعلمة والكبار إذا ماتوافر بحوزتهم وطوع أيديهم. مجموعة كافية من الحكايات والأساطير ، والقصص على لسان الحيوان أو من كتب الحيوانات، يمكنهم بذلك أن يؤثروا على قطاع كبير من المستمعين، ويكون بوسعهم كذلك أن يقرءوا على الصغار بعض الصفحات ذاتها عدة مرات ، ويكسبونهم بعض المهارات اللغوية الصحيحة، ويثرى كذلك قاموسهم الخاص.

وإذا كان فن الحكاية (الرواية) هاماً فى الروضة وداخل والأسرة على السواء، فإن ممارسة فن القراءة ضرورية بالمثل، وذلك يرجع إلى تأخر نضج بعض الأطفال.

ويجب علينا ونحن نلقى على مسامع الأطفال الحكايات والقصص المقروءة، أن نتجنب السرعة فى القراءة حتى نجنب المستمعين جهد ملاحقتنا فمن يحاول متابعة محادثة ما بلغه أجنبية لايجيدها، يمكنه أن يعرف مدى المشقة والعناء الذى يكابده الطفل لفهم القراءة السريعة وهو لايزال يحبو فى تعلم اللغة.

ومن ثم يجب علينا- أثناء القراءة- أن نعبر عن أنفسنا ببطء مع تغيير وتلوين نغمة الصوت. حقا إن الحكاية والقراءة تتطلبان جهدا كبيرا من جانب المعلمة مما يبلغ بهما إلى أن يصبحا فنا من الفنون.

ومن اللافت للنظر أن معظم الروايات والقصص التي تنتمي إلى ما يسمى بأدب الأطفال، لم تكتب خصيصا للأطفال بل للكبار، ومن ثم فهي تتضمن غالبا أشخاصا شريرين الطباع، وأحداثاً مرعبة، وأشياء لايفهمها الأطفال، وألفاظاً مبهجة، وتراكيب لغوية ودلالية معقدة، ولذا فمن الضروري قبل حكاية أو قراءة أي شئ للأطفال الصغار أن يكون هناك اختيار دقيق يراعى فيه المعايير الجمالية ،القيم الأخلاقية، وكذا مبادئ وأسس تربية الطفل.

وإذا ما أردنا قراءة شئ على الأطفال، يكون لزاما علينا أن نمحو بالقلم الرصاص الفقرات غير الملائمة، والحشو، وأن نختصر ونبسط الجمل الطويلة، وأن نستبدل الكلمات الصعبة غير المعروفة بكلمات أخرى أكثر سهولة وسلاسة، عندئذ يمكن للقراءة أن تقدم شيئا تتميز به الرواية (الحكاية).

ومما يجدر ذكره والتركيز عليه، أن القراءة – إذا ما اختيرت بعناية – فإنها تفتح آفاقا للحوار والمحادثة والتمثيل، وكذلك أشكال الإبداع الأخرى، شأنها في ذلك شأن الحكاية (الرواية).

الفصل الخامس عشر

التربية اللغوية وأدب الأطفال

إن الطفل فى شهور حياته الأولى يلتقى بالكلمة المنغمة، عندما يسمع ويميز صوت الأقارب، وعندما يستمتع عند النوم بهدهدات الأم، أو عندما يسلى نفسه بسماع الأصوات التى يصدرها.

ويبدأ الطفل – قريبا من عامه الأول – فى لقائه مع الكلمة والفكرة عندما يتعلم ويفهم وينطق بكلمات وعبارات ذات معنى محدد، مشاركا فى الحوارات والمحادثات.

وينمو هذا الاتصال وذاك – كما سبق أن ذكرنا فى الفصل السابق – من خلال الأغانى والأناشيد و الحكايات والقراءة التى يقدمها له الكبار، وهذا النمو يكون فى مرحلة الطفولة الثانية.

ومع ذلك يقتصر الوالدان والمعلمات – غالبا – على القليل الذى يقدمونه للأطفال مع افتقادهم للقدرة أو للشجاعة على اختراع الخرافات وقصص الحيوان وتأليف الأغانى لزيادة تراثهم الأدبى المتواضع.

إن الطفل – غالبا – مايرضى بالقليل ويستهويه سماع ما عرفه مرات ومرات، بيد أن ذلك لايكفى، ولايكون ذريعة لتبرير عدم كفاءة الكبار، وتكاسلهم.

ولذلك – تم اللجوء إلى البدائل المريحة كالتلفاز أو الأسطوانات إلى حد كبير، وهذه البدائل هى نتاج صناعة وتجارة تهتمان بالكسب المادى والربح أكثر من اهتمامهما بحاجات الأطفال.

ولقد أشرنا فى الفصل العاشر، إلى أم فرنسية أفلحت فى تأليف القصص المثالية لأطفالها، فالأمر ليس نادر الحدوث أو فريداً فى طرازه، إذ أن كثيراً من الآباء والأمهات والأجداد والمعلمات يمكنهم – بعد محاولات قد تفشل فى بداياتها – ابتكار وتأليف حكايات مرحية معبرة، مستوحاة من خبراتهم، ومشاعرهم العميقة، ومن واقع حياتهم داخل المجتمع.

وكون الرواية تنطلق من أحداث ذائعة ومشهورة، فليس ذلك عيبا بل هو أمر إيجابى، كما تقول جان كابى Jeanne coppe «لايجب على الراوى أن يجهل الأدب ويظن أنه بمفرده

قادر على إثراء ماعنده، فيجب عليه أكثر من غيره – أن يكون مطلعا وملما بالأعمال الشيقة الخاصة بالشباب، فهى التى ستساعده على التحرك بحرية أكثر فى عالم الطفولة ومعرفة احتياجات عالم الأطفال.

إذ أنه من غير المعقول أن يجهل موسيقىٌ ما أساطين الموسيقى، والأعمال الموسيقية البارزة، أو أن يظن أحد فى نفسه أنه مؤلف دون أن يطل إطلالة على كنوز الأقدمين ويترسم خطاهم.

وكذلك – الراوى – يجب عليه أن يعرف الأدب الشعبى، وليس فقط تلك القصص القديمة البالية، بل قصص الفولكلور التى حفظتها لنا الرواية أكثر من الكتب».

أدب الأطفال

يفهم من كلام «كاب» أنها تعتقد فى وجود أدب للأطفال، وإن كان يوجد من الآباء الذين يشار إليهم بالبنان من ينكر ذلك، مثل بنيدتو كروتشه Benedett Croce

فإن الكتابة للأطفال تعنى فى رأيهم – الاضطرار إلى النزول إلى مستوى عدم النضج البشرى بصورة غير طبيعية، وإلى مراعاة أصول التربية الحديثة مما قد يؤثر على الإبداع الأدبى الذى يتطلب حرية أكثر فى الشكل والمضمون، وعلاوة على ذلك –حسب قولهم– فإن الصبية ليسوا على درجة تؤهلهم من فهم وتذوق عمل فنى، ومن ثم فمن العسير أن يوجد أدب الطفل فى وقت لايوجد فيه الجمهور القادر على الإفادة من هذا النوع من الأدب.

وإن كان من الصعب كتابة أعمال أدبية للأطفال، إلا أن الأمر ليس مستحيلا، فهو صعب لأنه يتطلب من الكاتب مواصفات خاصة من حب للأطفال وحس تربوى، وبساطة فى العرض، وإدراك واع لعالم الطفل.

ولقد أثبت أدب الأطفال وجوده على الساحة لدى كثير من الكتاب، وسنقتصر على ذكر ثلاثة منهم – بغية الاختصار.

فأولهم إل كولودى il collodi الايطالى، الذى كان صحفياً يشار إليه بالبنان، بيد أنه بعد ترجمته لمجموعة من القصص والحكايات من اللغة الفرنسية، اكتشف عالم الطفولة العجيب، وعندما طلب منه بعد ذلك المشاركة، فى «صحيفة الطفل» قام بنشر سلسلة

«مغامرات بينوكيو» وهو عمل كبير ورائد فى مجال أدب الطفل، إذ تتحد فيه المواصفات التى يتميز بها من يكتب للطفل والتى سبق أن ذكرناها.

وثانى كتابنا هو كريستيان أندرين الروائى الدانمركى البارز، الذى كان يجد متعة فى تمضية جل وقته مع أطفال وصبية كوبنهاجن يحكى لهم الحكايات القديمة ويبتكر من الجديدة مثلها.

ولقد دفعه الاهتمام الكبير لدى السامعين إلى نشر مجموعة قصص كل عام، وقد لاقت هذه المجموعات قبولا لدى الشباب، فوق مالها من مكانة أدبية.

أما ثالث الكتاب فهو الإنجليزى كارل دوجسون "C. Dodgson" وهو أستاذ جامعى للرياضيات، وهو ليس شغوفا فقط بالأعداد، بل يجد متعته فى التحدث مع الأطفال وتسليتهم بالحكايات الشيقة، وقد اصطحب دوجسون ذات يوم؛ ثلاث شقيقات فى رحلة نهرية، وكانت أكثرهن خوفا وقلقا أليس وهى أصغر أخواتها، وبناء على طلب الشقيقات شرع البروفسيور كارل فى إمتاع الصغيرات الثلاث بالحكايات التى أدخلت على قلوبهن البهجة والسرور، ومن هنا ومن هذا الموقف خرج كتاب «مغامرات أليس فى بلد العجائب» الذى وقعه الكاتب باسم لويس كارول، وأغلب الظن أنه وقع هذا الاسم ليفرق بين أستاذ الرياضيات وبين كاتب الأطفال؛ وليؤكد حرية الخيال أمام قوانين المنطق الصارمة.

وتمثل أعمال هؤلاء الكتاب الثلاثة وغيرهم مثل «القلب» لدى أميتشس E . DeAmicis وقصص «كيلنج» جزءاً رئيسيا من أدب الطفل وأدب الشباب.

ويوجد كذلك أعمال لم تكتب خصيصا للأطفال ولكنها تُعْجب الصغار لصورها الموحية والمعبرة، ولمضمونها الشيق، ولأسلوبها الرائع الأخاذ، مثل «رحلات جاليفر»، و«أساطير» بيرالت ومن ثم فهى تعد جزءا من أدب الطفل وأدب «الشباب» على سبيل المجاز بمعنى أنه لايعتبر الأدب الذى يخاطب الطفل والصبى بصفة خاصة حيث إنه لم يكتب خصيصا للصغار.

ولكى يكتمل الدور الفعال لأدب الأطفال، يجب أن نستبعد أو نقلص دور الأعمال التى لم يفهمها ولم يتقبلها الصغار بعد طبعتها الأولى، أو إذا كانت هذه الأعمال تحوى بين طياتها أشخاصا غير مناسبين من الناحية التربوية، بمعنى أن أبطال هذه الأعمال يقدمون إلى الأطفال القدوة السيئة.

فعلى سبيل المثال، كتب جامباتيستا بازيلة، فى بدايات القرن السابع عشر وبلهجة مدينة نابولى ما أطلق عليه أسطورة الأساطير التى جمع فيها بين الغث والسمين، مما حدا بدراجو Ignozio Drago إلى تنقيحها حديثاً، وحذف ماغث منها، الأمر الذى جعلها قابلة لأن تقدم مادة صالحة لقصص الأطفال.

ولايكون الحذف مستهدفا للأجزاء الصعبة أو القليلة الأهمية، وإثبات ماتبقى بصورة آلية، لأن ذلك سيترتب عليه تفكك العمل الأدبى وتقريغه من محتواه، وتفكك أجزائه.

بل إن التنقيح يعنى تهذيب الأسلوب قدر الإمكان، والنزول به إلى مستوى الصغار، مع الاحتفاظ بالحساسية الفنية، والقدرة التعبيرية له.

بهذا يكون المحقق (المنقح) «مترجما» لا «خائنا» لرسالة الكاتب.

ومن ثم يمكننا القول بأن الأعمال الكبيرة التى تتعلق بمجال أدب الأطفال، والأخرى التى نعتبرها كذلك على سبيل المجاز لكونها لم توجه خصيصا للطفل، بل للكبار، تتفاعل فيما بينها بإتساق وانسجام، ولها دورها الكبير جنبا إلى جنب، فى السنين الأولى من عمر الطفل، ذلك الدور الذى تضعه نظريات التربية الحديثة للطفل، موضع الاعتبار.

موضوعات وشكل أدب الأطفال

إن عالم الطفل النفسى، قاصر - كما نعلم - على آفاق البيئة والخبرة اليومية له، ومن ثم يكون من المناسب اختيار وتأليف حكايات أبطالها معروفون لدى الطفل (الوالدين، الإخوة، الأتراب) أو يكون الحديث فيها متناولا للحيوانات المألوفة لديه (قط، كلب، عصفور، حصان وهكذا)، أو للعب، ولمحتويات المنزل ولأزهار الحديقة.

عندئذ يجد الطفل بين يديه عالمه الصغير يراه بعينى رأسه، ويعيشه وتكون تجربته أكثر وعيا وأكثر صدقا.

وعند اختيار كتب الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث وأربع سنوات، علينا أن نضع نصب أعيننا أن مهمة هذه الكتب هى تقوية فهم الطفل وإدراكه وتقديم عالمه المحسوس بين يديه ولم تكن مهمتها أبدا حشور رأسه بمعلومات جديدة عليه.

فمعرفة الطفل للأشياء تأتى من تجاربه المحدودة وليس من خلال الصفحات المطبوعة لأن كثيرا من الأطفال الذين يعيشون فى المدن، يظنون أن اللبن يأتى من الزجاجة حتى لو

سمعوا الحكايات التى تدور حول البقرة وفوائدها إلا أن هذه الحكايات يكون لها معنى مختلف بعد زيارة ولو قصيرة لمزارع الأبقار.

إن دور الكتب فى الحضانة ورياض الأطفال هو إثراء التجارب الحقيقية لدى الطفل وتوسيع أفقه بالنسبة للأشياء التى عايشها فى واقع حياته.

ورغم ذلك، فإن الطفل يجنح إلى التحرر من قيود المعرفة المباشرة ويريد الانطلاق إلى عالم الخيال، ومن ثم نجده شغوفا بالأحداث العجيبة أو الحكايات المثيرة، وبوصف الأشخاص والبيئات التى تسحر الألباب لغرابتها، ويرجع ذلك إلى أن ذكاء الطفل لايميز بدقة بين حدود الواقع والخيال، فقصة الأراجوز الذى يتكلم، والذى يتحول إلى حمار ويصيح فى النهاية صبيا من لحم وعظم. تبدو للطفل شبه واقعية بل وساحرة.

ولايهم أن تكون الأشخاص والأحداث حقيقية أو من صنع الخيال، بل المهم أن يكون جو الحكاية هادئا، والمشاعر فيها مسيطرة مع اشتمالها على روح الفكاهة التى يحبها الطفل.

ويجب تجنب الموضوعات التى تكون أحداثها معقدة ومتداخلة والوصف مسيطراً عليها، الأمر الذى يفتت إيقاع وتتابع الأحداث، وكذلك تجنب التحليلات النفسية الدقيقة، والتشاؤم القاتم أو العكسى أيضاً، وهو التفاؤل المفرط والساذج لمن يجهل الشر أو يخشى أن يقدمه.

أما من ناحية الشكل، فليس هناك من شك -فى أن الأسلوب البسيط المنطلق الغنى بالصور الموحية، والملئ بالحوار، هو الذى يلائم الطفل، والأطفال أنفسهم وردود أفعالهم هى التى تساعدنا على اختيار أفضل الحكايات والمطالعات، بمعنى أننا نكون على الطريق الصحيح، ونكون قد أحسنّا الاختيار إذا ما أنسنا فى «القصاة الصغار» المتابعة والاهتمام، وإذا وجدنا فضولهم وحبهم لأدب الطفل يزداد، وإذا لمسنا أن لغتهم تتحسن ويتسع قاموسها، عندئذ نستطيع أن نقر عيناً ونطمئن إلى أننا على الطريق.

وهذا الأمر كان يعرفه جيدا الكاتب بيير بارجيليني piere Bargellini الذى كان يستشير أولاده الصغار فى أعماله قبل نشرها.

القصص الخرافية :-

يمكن أن نفهم بسهولة خصائص وميزات والقيمة التربوية للقصص الخرافية إذا ما تذكرنا قصتى «سندريلا» و «ذات الرداء الأبيض» الشهيرتين، فالخرافة فى المقام الأول هى بمثابة اعتراض وتمرد مكبوت على الضعف الإنسانى، وفى الوقت ذاته تمثل ميلا وارتياحا للقوة الخارقة، لأن النسج الخيالى الخرافى يأتى بأشخاص لهم قوى فوق قوى البشر ليساعدوا الضعيف ويدافعوا عنه، ومن ثم لم تظهر الخرافة «فى فجر التاريخ الإنسانى و فى حياة الأشخاص» بمحض الصدفة، وتعبر الخرافة عن الطموحات الجامحة للإنسان الذى يولد مملوءا بالخوف من الأشياء التى تبدو غريبة عليه، ولكنه شغوف لمعرفة ماوراء حجاب المجهول لتخطى حدود عالمه الخاص مهما كلفه ذلك.

والخرافة جذورها فى بيئة الانسان النفسية، وتغذيها اعتقاداته وأفكاره الساذجة ومن ثم فقد احتفظت الخرافة بأشخاصها وقصصها عبر القرون، فهى غالبا ما تجمع بين الأضداد: الملك والرعية، الأقوياء والضعفاء، الجميل والدميم، الكرماء والبخلاء، وتمثل المناظر والمشاهد داخل نسج الخرافة – إطارا فقط، ولاتؤثر على السير الطبيعى للأحداث، اللهم إلا نادرا، عندما تختفى وتتوى الغابة الضعيف المطارد.

وتتميز الخرافة بسمة أساسية ألا وهى الصراع الذى لاتخبو له نار بين الخير والشر، بين الساحرة الشريرة والمخلوق الطيب، بين العملاق الشرير والعملاق الطيب، بين القوة الغاشمة القاسية وبين الطيبة المغلوبة على أمرها.

وهذا الازدواج يعطى لعالم الخرافة الخيالى، أساساً واقعياً، إذ أن الحياة اليومية ماهى إلا سلسلة متصلة من الأفراح والأتراح، كما أن حياة الانسان بها السلب والإيجاب، وهذا مايعرفه الكبار، وإن كان الطفل لايدرك ذلك بصورة كاملة، بيد أن أمل الكبار هو مايرجوه الصغار أقصد أنهم جميعا يتمنون من سويداء قلوبهم أن ينتصر الخير على الشر.

ومن ثم تروق القصة الخيالية (الخرافية) للطفل كثيراً، إذ أنها بالنسبة له «مغامرة خيالية وساحرة لها نهاية سعيدة» فالطفل غالبا ما يشعر بالخوف، ولكنه يريد التخلص منه فيجد نفسه أعزل من الوسيلة، فيبادر بالبحث عن الأمن والأمان، وكلما ذاق الطفل طعم الألم أكثر ازداد شوقه إلى السعادة والهناء، ولكنه يدرك سريعا ضعفه المتأصل فيه فيتمنى أن

يصبح قويا بأن يركن إلى شخص قوى، ومن ثم فهو يجد فى الخرافة انعكاسا خياليا لعالمه الداخلى ولوجدانه.

والطفل بطبيعته مستعد لسماع وتلقى الرسالة التى تبثها إليه الخرافة، فمثلا من بين هذه الرسائل وأهمها أن «مكافحة مصاعب الحياة ومواجهتها أمر لامفر منه، وهو جزء لايتجزأ من الوجود الإنسانى فمن لايجبن بل يواجه بعناد وجسارة، هو فقط الذى يستطيع التغلب على هذه العقبات ويظفر بالنصر فى النهاية.

وتأسر الخرافة الطفل لأنها تمثل العالم كما يراه هو، مزيج من الحقيقة والخيال، كما أنها تساعده على تمييز الخبيث من الطيب والحق من الباطل، وتغرس فيه حب الفضيلة، عندما يكون سعى الأبطال لتحقيق غاية سامية، وكذا بغض الرذيلة، إذا ما كان أبطالها من الأشرار الذين يقدمون له بصورة منفّرة وكريهة، ومن ثم فهى تأخذ بيد الطفل إلى عالم الواقع، وأيضا تفتح شهيته على ما هو غامض وعجيب.

وتؤكد اريكليا بيكو "Iclea picco ." بحماس نابع من تجربتها الشخصية أن القصص الخرافية هى الخيط الذهبى والرباط القوى الذى يربط الصغار بالكبار: الجدة بالحفيد، ففى الخرافة يلتقى المستقبل مجسداً فى الطفل الذى يسمع، مع الماضى الذى تمثله الجدة وهى تحكى الخرافة على مسامع حفيدها الصغير».

وتمثل الخرافة - ولاريب - أكثر أنواع الأدب ملاءمة للطفل، وأوفر ثمرة لتربيته اللغوية، وذلك عندما تنقى من العناصر التى لاتلائم حب وبراءة الطفل.

قصص الحيوان

لا يخفى على أحد اهتمام الأطفال الشديد بالحيوانات، وحبهم الشديد لها، وذلك يرجع إلى ذكريات طفولتهم المحببة إليهم عندما يقص عليهم الوالدان والمربيان حكايات الحيوانات وقصصها.

فالحيوان بالنسبه للطفل هو رفيق لعبه الصبور، الذى كان أول شئ لاحظه وهو ملئ بالدهشة.

وقد تمثل الحيوانات بالنسبة للطفل الخوف والذعر، وذلك مرده - تقريبا - إلى أحاديث الكبار الخاطئة عن الحيوانات.

ومع ذلك فإن الحيوانات تمثل عنصرا هاما فى عالم الطفل المليء بالحركة والحيوية والمشاهد.

إذ يمثل الحيوان بالنسبة للطفل حلقة الوصل بين الجمادات الصادقة، وبين الأشخاص الناطقين، الأذكياء، كما أنه أول (عنصر) يستخدمه الطفل فى (ألعابه).

وحب السيطرة لدى الطفل يدفعه إلى امتلاك الأشياء الصغيرة ليسخرها لمتعته ومن ثم نجده يحب بشدة، أو على العكس يتعامل بقسوة مع الحيوانات الصغيرة، كالفراخ الصغيرة، والطيور، صغار القطط، والحشرات.

وتدفعه رغبته فى أن يكون كبيرا، إلى التقرب من كل ما هو كبير، مثل الحصان، البغل، الثور، الزرافة.

والحيوانات التى يستطيع الطفل الاقتراب منها ولمسها بيده قليلة، وخاصة إذا كان الطفل يعيش فى المدينة، وهذا مما يؤسف له، وكذلك الزيارات لحديقة الحيوان قليلة أو نادرة، والوقت الذى يتم قضاؤه فى أحضان الريف قليل هو الآخر أو منعدم.

إذاً كيف يمكن إشباع حب الطفل للحيوان واهتمامه الشديد بحديقة الحيوان ؟

يكون ذلك بتقديم الكتب المصورة له، وكذلك قصص الحيوان بحيث تتكامل الكلمة مع لغة الصور.

ولقد ظهرت فى القرن الأخير كتب كثيرة فى مجال أدب الأطفال، تلك الكتب التى يمكن للوالدين، والمعلمات الاستفادة بها لتسهيل التقاء الطفل مع عالم الحيوان.

وسنذكر على عجالة ثلاثة من هذه الكتب.

ففى نهاية القرن التاسع عشر ظهر كتاب لايخفى هدفه التربوى على أحد وهو كتاب «مذكرات كتكوت» لمؤلفته إيدا باتشينى Ida Baccini وبطل الكتاب فرخ صغير كسائر الفراخ الموجودة فى العالم غير أنه يفكر ويتكلم ويتصرف كطفل نشيط صاحب فضول شديد، هذا الفرخ يقبل على مضض حركات وتصرفات صاحبته رغم رعايتها وحبها له، ويصاحب بعد ذلك ديكا صغيرا، ويعانى عندما يعيش فى عزلة داخل المدينة، إلى أن يصير فرخا ناضجا وواعيا.

ويأتى الكتاب الثانى وهو للكاتب R. Kipling مزيجا من الحقيقة والخيال، ويحمل الكتاب اسم «وهكذا تكون القصص» وينكر فيه كاتبه القصص التى سمعها فى طفولته التى أمضاها فى الهند بلد العجائب، ويبرز الكاتب هذه الحكايات بالصور التى رسمها بيده وأعقبها بشروح إيضاحية.

ولكى يجيب على الأسئلة التى غالبا ماتردد على شفاه الأطفال، نجده يروى كيف أصبح الكلب والحصان والقط حيوانات أليفة، ويشرح لماذا يكون لوحيد القرن جلد مجعد، ولماذا يحمل الجمل هذين التلين الصغيرين على ظهره ؟

ولماذا يتغذى الحوت على الأسماك الصغيرة رغم أن له فما كبيرا، وهكذا. فنجد الواقعية والخيال الجامح والفكاهة تتصهر معانى هذه الحكايات.

أما الكتاب الثالث فيلتقى فيه الفن والعلم والنبض الإنسانى وكاتبنا هذه المرة هو لويجى برتيللى L. Bertelli وكتابنا هو «التميمة» وبطلنا هو ولد صغير تحول بمعجزة إلى نملة صغيرة – بناء على طلبه، فاكتشف بذلك التنظيم الدقيق لمملكة النمل ومملكة النحل، وتأكد لديه قناعة تامة بأنه يجب على البشر أن يستفيدوا من حياة الحيوان.

قيمة الكتاب وخلاصته تكمن فى هذه الكلمات القليلة للمؤلف إذ يقول : «أردت أطفالى الصغار، أن أريكم أشياء عظيمة جدا فى هذه الكائنات الصغيرة ... لأنكم سترون عما قريب فى عالمكم، أشياء صغيرة جدا فى الكائنات الكبيرة».

ويؤكد حب الأطفال (الغريزى) للحيوان، النجاح الهائل الذى لاقته سلسلة «والت ديزنى» من قصص الأطفال المعبرة، ونجاح هذه السلسلة لايرجع إلى إخراجها إخراجا جيدا فحسب بل أيضا إلى اختيار الأبطال : فرفور وخطيبته، وكلبوط و بطوط وكثيرين غيرهم.

الحكاية على لسان الحيوان

ينتمى فرفور وبطوط إلى عالم الحيوان، بيدانهم يتصرفون كالبشر ولهم فضائلهم ورذائلهم، فالأول يتميز بالدهاء والشجاعة، ولاتفارقه الابتسامة، وهو رمز أمريكا المتفائلة فى الثلاثينيات ويرمز الآخر للرجل الأمريكى، رجل الثورة الصناعية بآماله، وقلقه، وعزلته، واعتماده الشديد على زوجته.

ومن هذا المنطلق تعتبر الرسوم المتحركة والقصص المصورة للأطفال، والتى تصدر عن استوديوهات «والت ديزنى» الوسيلة المثلى المعاصرة للقصص على لسان الحيوان .

وأبطال هذا القصص – فى غالبهم – حيوانات تتكلم وتتصرف كاشخاص، وترمز هذه الحيوانات إلى طباع الناس.

فالذئب يرمز للقسوة، والحمل للضعف وقلة الحيلة، والطاووس للتيه والعجب، ويجسد الثعلب الدهاء والخديعة التى يقوم عليها النجاح الاقتصادى والسياسى، ويرمز الأسد للقوة والقهر.

وهذا النوع من القصص لايقتصر على تقديم سلوك البشر تحت عباءة حيوانية، بل يعقد مقارنة بين الحيوان والإنسان الذى يظهر بعيوبه وآفاته . الكسل (صرصار الليل) البخل (النملة) ، العنف (الأسد) النفاق (الثعلب)، القسوة (الذئب)، الحماقة والسذاجة (الغراب).

من هذه المقارنة يتكون لدينا رأى فى الإنسان، هذا الرأى يعبر عن نفسه بسخرية لاذعة هدفها إصلاح الانسان، والقضاء على رذائله وآفاته.

وكما هو معلوم، فإن الخيال وذكاء الكاتب ومهارته، لهما دور كبير فى استخلاص الدروس المستفادة من القصص، وتلك الدروس لها قيمة عالمية، وليست قاصرة على مكان ما فمثلا قصة الكلب النهم الذى يفقد قطعة اللحم، وهو يحاول أن يلتهم صورتها المعكوسة على صفحة ماء النهر، تعلمنا أن الطمع والشر عاقبته دائما وخيمة.

ويستمتع الطفل بالحكاية على لسان الحيوان، لأن الحيوانات تتصرف كالأشخاص الأمر الذى يلائم عقلية الطفل التى تميل إلى الخرافة، علاوة على أن النسج القصصى قصير، والحوار هادف، والمشاهد الوصفية تكون دقيقة وسريعة.

وعلى الكبار أن يوفقوا فى اختيار هذه القصص وأن يحكوها بطريقة تتفق ومستوى الفهم والنضج لدى السامع الصغير.

الفصل السادس عشر

مثال للتربية اللغوية المنظمة

إن هذا الكتاب، كما أشرنا في المقدمة، نقدمه – لمن يهتم بتكوين الطفل، كأداة للعمل التربوى اليومى الواعى.

واهتمامنا بهذا الكتاب كوسيلة تربوية، أكثر من كونه عرضا لنتائج الأبحاث فى مجال التربية، ومجال اللغة وعلاقتها بالمجتمع، وفى مجال علم النفس اللغوى.

ومن ثم ولهذا الغرض، أشرنا فى الجزء الثانى من الكتاب إلى دور الأسرة ورياض الأطفال فى زيادة النضج اللغوى للصغار والتعجيل به، وقدمنا النصائح والإرشادات العملية حول المونولوج (حديث الطفل لنفسه) والحوار والمحادثة والقراءة والصور، والتمثيل والحكاية.

ولكى تكون هذه الإرشادات أكثر نفعا، وجدنا زيادة للفائدة أن نقدم فى هذا الفصل الأخير، مثالا للتربية اللغوية المنهجية والمنظمة بروضة الأطفال، ويفيد هذا المثل المعلمات وأولياء الأمور الذين يحرصون على الإحاطة بمستويات النضج اللفظى لدى أطفالهم.

التخطيط التربوى فى رياض الأطفال

يقول كثير من الخبراء أن السن المثالى للنمو اللغوى يقع ما بين سنتين وسبع سنوات، ومن ثم فإن الحضانة وروضة الأطفال تتلقى الصغار وهم فى منتصف هذه المرحلة القابلة للنمو.

ويكون لدى كثير من الأطفال فقر فى قاموسهم اللغوى وذلك لأسباب كثيرة (ضعف المستوى الثقافى، عدم كفاءة القائمين على التربية، الصراعات النفسية، انشغال الوالدين) ومن ثم يتعين على مؤسسات ما قبل المدرسة أن تبادر بعلاج فورى لهؤلاء الأطفال، بالاستعانة بخبرة المربيات إلى أقصى مدى ممكن، وبالوسائل التربوية المناسبة، وكذلك المواقف التى توفرها حياة الأطفال فى جماعة، من لعب وأنشطة إبداعية ونحوه.

والوالدان عادة لاينظمان العمل التربوى، ولكنهما يتصرفان حسب التجربة، الأمر الذى يصيب نمو الطفل بالقصور.

ولأجل هذا السبب يجب على الحضانة ورياض الأطفال أن تضع الخطط التربوية على أساس علمي راسخ، مع وضع قواعد علم النفس وعلم التربية وإمكانات الطفل وقدراته، وأيضا بيئته في الاعتبار ويتطلب التخطيط التربوي أربعة أمور: أولها معرفة ظروف الطفل البيئية بصورة كافية ودقيقة.

وثانيها أن يتم تحديد الأهداف بوضوح وواقعية، على المدى القريب وعلى المدى المتوسط.

وثالثها أن يتم وضع المناهج، والوسائل التربوية الأكثر ملاءمة وفعالية.

وآخر هذه الأمور هو التقييم الموضوعي للنتائج، ولكي تتحقق هذه الأمور الأربعة، يكون من الأفضل أن تتضافر جهود المعلمة مع جهود من يعملون معها أو على الأقل من يعملون في ظروف مماثلة (زميلاتها في المدرسة، أو في المنطقة، الوالدين، خبراء التربية، خبراء علم النفس).

إذ أن العمل الجماعي يساعد على تحليل المشاكل من شتى جوانبها وعلى وضع الحلول الممكنة لها واختيار أنسب الحلول، وكذلك على وضع الطرق الأكثر فعالية لتقدير وتقييم جدواها بصورة دورية.

كما يساعد العمل في جماعة، على الثبات والصمود عند الفشل والإخفاق، وكذلك على التغيير كما وجب التغيير .

كما يجب أن نوضح، أن قرارات وعمل المسئولين لايجب أن تعوق حركة المعلمات ومسئوليتهن التربوية، وإلاّ فستصبح المعلمة مقيدة، ولن تستطيع تنفيذ الخطط التربوية ولاعلاج مايعرض لها من أمور، بمعنى أنه يجب على المعلمة أن يكون لها شخصيتها هي الأخرى ولتوضيح الأمر نسوق المثل التالي.

قد يحدث في مدرسة من مدارس الحضانة، أن يكون أطفال حي شعبي أو بلد جبلي، معتادين على اللعب مع أترابهم في الميادين أو في الحقول، أو على مساعدة والديهم في أعمال المنزل، ومن ثم يكون هؤلاء الأطفال قد بلغوا درجة مرضية من النضج النفسي والحركي، وفي نفس الوقت يكون قاموسهم اللغوي فقيرا خاويا، لأنه قاصر على البيئة التي يعيشون فيها.

ففى مثل هذا الموقف، يجب على المربيات وضع خطة لعلاج هذا الأمر بالتركيز على التربية اللغوية، وتقليل المساحة المتاحة للتربية الحركية.

وعلى العكس من ذلك، ففى المدن تكون العائلات مرتفعة المستوى الثقافى والاجتماعى، ويتيحون للطفل ممارسة لغوية أكثر، ولايكون متوفرا لدى الطفل إمكانية اللعب القائم على الحركة.

ففى هذه الحالة يمكن للمربيات إعداد برنامج لتنمية النشاط الحركى لدى الطفل.

وفى كلتا الحالتين، يمكن وجود تفاوت فى الميول والقدرات والقصور لدى الأطفال وهنا يكون دور المربية لتحديد جانب القصور وعلاجه.

فمثلا، إذا كانت قدرات الطفل التعبيرية ضعيفة إلى حد ما، يلزم أن نضع له أهدافا على المدى القريب (تشجيعه على اللعب والرسم، أى على استخدام لغات غير لفظية)، وأهدافا على المدى المتوسط (أن نثير فيه الاهتمام بحديث الآخرين وننمى عنده القدرة على الكلام حتى وإن كان بلهجته وبعبارات غير كاملة المعنى).

ويجب على كل من يقوم بوضع خطة تربوية، ألا يضع فى اعتباره التأثير الفورى للموضوع فقط، بل عليه أن يضع نصب عينه إمكانات التطور المستقبلية، أى عليه أن يكون بعيد النظر.

تحليل ظروف الطفل البيئية

إن الطفل يتأثر لامحالة – ببيئته التى نشأ فيها، حتى من الناحية اللغوية، ومن ثم يكون من الأفضل أن تجتهد المعلمة فى معرفة ظروف الطفل البيئية، بمساعدة زميلاتها أو آخرين من ذوى الخبرة.

ولاتتأثر التربية اللغوية للطفل بكون المدرسة تقع فى مدينة أو فى قرية، فى وسط المدينة أو فى أطرافها، وإن كان لايجب إهمال مستوى التعليم، ونوع المهن والحرف السائدة، وكذلك الهجرة من وإلى البيئة التى كان الطفل يعيش فيها، وأخيرا متوسط عمر الأشخاص الذين يستوطنون هذا المكان (يوجد مثلا، بلاد فى جنوب إيطاليا، يعيش فيها الأطفال مع الأجداد الذين يتكلمون اللهجة فقط).

إن معرفة وتحليل ظروف الطفل البيئية أمر غاية فى الأهمية. فبدونها يصبح علاج الطفل لغوياً، شيئاً عديم النفع، قليل الفعالية.

يجب على المعلمة بعد الأسابيع الأولى من كل عام دراسى، أن تكون قادرة على الإجابة على هذه الأسئلة أو أسئلة أخرى مشابهة بخصوص كل تلميذ.

هل يتكلم مرة أو مرتين ؟ هل عنده عيوب فى النطق ؟ هل يتكلم بضيق أم بارتياح ؟ هل يتلعثم ؟ مع من يتحاور بصورة أفضل ؟ هل يتكلم باللغة الفصحى أم باللغة (الدارجة) ؟ هل قاموسه اللغوى ثرى بالمفردات ؟ هل يتحدث بوضوح وطلاقة عن الأشخاص الذين يحبهم والحيوانات التى يفضلها، وعن ألعابه ؟ إلى أى مدى وصل فى تكوين الجمل ؟ هل يستخدم أدوات التعريف وحروف الجر ؟

إلى أى مدى أثر المستوى الاجتماعى والثقافى للعائلة على نضجه اللغوى ؟

بهذا الشكل وبمثل هذه الأسئلة المنظمة، وإن تطلبت مشقة يمكن إعداد مسجل للتطور اللغوى لكل طفل، وخاصة إذا كان هذا الطفل يدخل الحضانة والروضة لأول مرة.

وهذا النظام له ميزتان، أولاهما أنه سيسمح بتقييم مبدئى للتلاميذ المتخلفين لغويا.

والبطاقة التى سأقدم لها مثلا هنا، هى عبارة عن سلسلة من الأسئلة التى ستكون الاجابة عليها بنعم أولا، مما يسهل ملء البطاقة.

بيد أن هناك بعض الأسئلة قد تحتاج إلى إجابة دقيقة بعض الشئ مثل «إلى حد ما» «غالبا» «بحذر» «أحيانا» أو إلى شرح مختصر، ومن ثم سيكون من الأفضل فى هذه الملحوظات، وإن كانت البطاقة مرتبة بطريقة تتطلب إجابات مختزلة.

بطاقة تقييم مبدئى

هل يستمع باهتمام إلى أحاديث المعلمة أو الزملاء ؟

هل يفهم الجمل كاملة أم يفهم جزءاً منها فقط ؟ هل يركن إلى الصمت مع من يتكلم بصورة أفضل ؟ هل نطقه صحيح ؟

هل هو ألدغ ؟ ما هى الحروف التى لايجيد نطقها؟

هل يحب الغناء ويسمع أغانى الآخرين ؟ هل سمعه صحيح ؟ هل هناك عيوب فى

جهازه الصوتي ؟ هل يعاني من مشاكل عاطفية أو انفعالية ؟ هل يتعلم بسهولة أسماء الأشخاص المقربين إليه، وكذلك الأشياء المعروفة ؟

هل يجيد استخدام ظرف المكان (فوق، تحت، داخل، خارج) ؟ هل يجيد استخدام ظرف الزمان بصورة، صحيحة (الآن ، قبل، بعد) ؟ هل يراعي تبعية الصفة للموصوف والتبعية بين الاسم والفعل ؟ هل يجيد استخدام أدوات التعريف والتنكير وأزمنة الفعل ؟ هل قاموسه اللغوي ثري؟

ما هي الكلمات التي يخطئ فيها بصورة متكررة ؟

إلى أي مدى وصل مستواه في تكوين الجمل (جمل مقتضبة، جمل مفيدة من مبتدأ وخبر، جمل معطوفة، جمل تابعة)؟

أ لايزال في مرحلة المناوج ؟

أم نجح في أولى تجارب الحوار، وتجاوز فترة مركزية الذات اللفظية ؟ هل يلاحظ الصور باهتمام ؟ هل يستطيع تمييزها ؟

هل يتعرف على الأسماء الشهيرة منها ؟ هل بدأ في التعليق عليها ؟

هل القاموس اللغوي لعائلته محدود ؟ هل يتكلمون في العائلة اللغة أم اللهجة ؟ هل أم الطفل عاملة؟

هل أحد الوالدين على الأقل ذو مؤهل متوسط أو عال ؟ هل له أشقاء ؟ هل له أجداد أو أعمام ؟

اختيار الأهداف والمناهج والوسائل

إن أهداف التربية أهداف طويلة المدى، ومن ثم هناك خطر اعتبارها نظرية وخيالية صعبة المنال.

ومن الأفضل تحديد أهداف قصيرة أو متوسطة المدى، بمعنى أهداف يمكن تحقيقها في غضون أشهر قليلة أو في خلال عام، من خلال استخدام الموارد والإمكانات المتاحة.

فإذا كنا نريد أن نتجنب تثبيط المتخلفين، وكذلك تساهل الكسالى وتقاعسهم المفرط، علينا أن نحدد ونختار أهدافا واقعية يراعى فيها عمر الطفل، وبيئته المحلية، وعائلته، وخبرته السابقة.

فبالنسبة للطفل المتخلف (غير الناضج) لغويا، يمكن تحديد أهداف قصيرة المدى مثل: تشجيعه على سماع كلمات المعلمة او الآخرين (زميله المفضل) باهتمام كاف، محاولة فهم الحوار بين اثنين، التعبير عن نفسه حتى ولو باستخدام لغة غير لفظية، تشجيعه على حديثه لنفسه، وعلى الحوار بعد ذلك، سواء باللغة الفصحى أو اللهجة (الدارجة) حتى ولو كان باستخدام الكلمات القليلة أو الإجابات المقتضبة، في بادئ الأمر.

ويمكن تحديد أهداف متوسطة المدى (سنوية) مثل : معرفة كيف يصغي بانتباه شديد إلى أحاديث كل المعلمات وكل الزملاء أترابه الموجودين بالمدرسة، متابعة محادثة، تذوق حكاية (حدوتة) صغيرة أو مطالعة قصيرة لأحد الكبار، استيعاب شرح قصير لشئ ما، تفضيل الكلام على الحركات، التعليق بالكلام على مايفعله أو مايفعله غيره، تجاوز مركزية الذات في الحوار والمحادثة، التعليق بوضوح وبدرجة كافية على إحدى الصور المتصلة بواقعه وحياته، إجابته للغة الأولى واجتهاده كذلك في استخدام اللهجة (الدارجة).

ويجب أن تكون حياة الأطفال وترجمتها فورا إلى كلمات وحوارات، الموضوع الرئيسي والثابت، فاليوم الدراسي ملئ بالألعاب الفردية والجماعية سواء داخل الفصول أو خارجها، وهناك وسائل التعبير الحر بالرسم، وهناك التعليمات الخاصة بدخول الفصل والخروج منه، وبنظافة المكان، وهناك زراعة الزهور في الحديقة والعناية بها.

كل هذه الأمور، يمكن أن تصبح عاملا لنضج الطفل اللغوي، إذا كان استمع جيدا إلى تعليق المعلمة أو الزملاء، وحبذا لو علق هو بالقول على مايراه أو يفعله في شكل حديثه لنفسه أو في شكل محادثة أو حوار.

ومن ثم يلزم تشجيع كل الأطفال على الخروج من عزلتهم وصمتهم، وعلى الاندماج مع الزملاء في ثنائيات أو في مجموعات ونظراً لوجود بعض الأطفال المتأخرين لغويا إلى حد ما يجب على المعلمة المبادرة إلى علاج سريع لكل منهم بالحوار معه بلغته الأم وإن كانت اللهجة، ويمكن أن يساعد المعلمة في ذلك العلاج أطفال آخرون اجتماعيون وظرفاء، تكون لديهم الرغبة في الإشراف على زملائهم المتأخرين لغويا الذين يميلون إلى الصمت ومساعدتهم على التخلص من هذين العيبين.

وحياة الأطفال، منحصرة داخل القاعات، والممرات، وفناء المدرسة، ومن ثم يجب إن تتكامل اللغة مع التفكير والأنشطة الجماعية، عن طريق الاتصال المباشر مع الواقع

الاجتماعى والاقتصادى للبلدة أو الحى من خلال الجولات والنزهات الخلوية التى تهدف إلى اكتشاف البيئة المحيطة.

من الموضوعات والوسائل الأخرى فى مجال التربية الفنية بالحضانة والروضة، نركز على الاستخدام المنظم وليس وليد الصدفة، للصور سواء كانت مرسومة، أو شمسية، أو فى كتب الأشقاء الكبار، أو الكروت، أو الصور الفيلمية.

وكذا لاننسى الحكايات، والمطالعة من جانب المعلمة، والأشكال المختلفة من التمثيل أى - وباختصار - جميع الوسائل الملائمة لتشجيع الطفل على الاستماع، وعلى تحسين نطقه، وإثراء قاموسه اللغوى، وعلى اكتسابه للمهارات اللغوية الصحيحة.

تقييم النتائج

إن معرفة الظروف البيئية للطفل، والاختيار الواعى للموضوعات والوسائل التربوية، وتبنى الخطط المنهجية، لاتكفى جميعها لتحقيق الأهداف، وذلك لأسباب عدة، إذ أن الطفل ليس آلة صماء وجدت لتعمل بطريقة ميكانيكية محددة، بل هو كائن حى وحر طليق، لايقبل إن يوضع فى قوالب صارمة محددة.

فتحديد الأهداف واستخدام الوسائل، كل ذلك معرض للقصور البشرى ولخطأ القائمين عليه مهما بلغوا من الذكاء والدقة.

إن أى تخطيط تربوى ما هو إلا «توقع شئ ما».

وهو توقع جاد لأنه ليس عشوائيا، بل ثمرة قدرات خاصة وتصورات واعية، وهو فى ذات الوقت تكهن وأمر ظنى لأنه لايضمن تحقيق الأهداف، ولافعالية الوسائل المستخدمة فى سبيل ذلك، بل هو توقع نتائج إيجابية من خلال أساليب ووسائل يجب أن تمضى فى مسارها الطبيعى ودون عوائق.

وتقويم المسار هو ما يتم كل مساء عن طريق تقييم سريع للعمل الدراسى اليومى، لإن ذلك هو ما يضمن تحقيق الأهداف، وتظهر فائدته جلية.

هناك مع ذلك نوع آخر من التقييم، ذلك الذى يتم عند نهاية كل عام أو كل عامين أو كل ثلاثة، بمقارنة الظروف الأولية مع الأهداف المحددة.

قد يحدث أن تتحقق بعض الأهداف، أولا يتحقق شئ وأن تخفق الوسائل فى تحقيق الغاية، أو أن يتسبب قصور الأشخاص وأخطاء العمل فى تأخر العمل.

عندئذ يلزم استعراض النتائج السلبية، ويكون لزاما على المشتركين فى العمل أن يغيروا الوسائل التى تعرقل الوصول إلى الغاية.

وهذا يتضمن استعدادا أو شجاعة فى الاعتراف بالخطأ والتهاون وإصلاح مافسد.

وكما أن البطاقة ضرورية فى معرفة الموقف الأولى (المبدئى) فإنها تفيد فى التقييم الموضوعى للوضع النهائى.

وما احتوته بطاقة التقييم الأولى يمكن أن تصلح للتقييم النهائى بعد إضافة بعض الأسئلة الخاصة، إذ أن تقييم نتائج طفل عمرة ست سنوات وبوشك أن يدخل المدرسة الابتدائية لابد أن تكون مختلفة فى شكلها عن التقييم الأولى للطفل عند دخوله الحضانة وها هو تصور لما يمكن أن تكون عليه هذه البطاقة.

بطاقة تقييم نهائى لطفل بعد ثلاث سنوات من الحضانة

هل يتابع باهتمام أحاديث الآخرين ؟ هل يفهم تماما العبارات التى يسمعها ؟ هل يستفسر عن الأشياء والجمل والكلمات التى لايفهمها؟ هل يجتهد فى أن يتكلم بوضوح ودقة ليفهمه الآخرون ؟

هل ينطق كل الحروف صحيحة ؟ أى الحروف الساكنة لايجيد نطقها ؟ هل تغلب على التلعثم الذى كان عنده ؟ هل يجيد ترديد بعض الأغانى البسيطة ؟

هل قاموسه اللغوى غنى إلى حد نتوقع منه معه أن يستفيد الطفل لغويا فى الصف الأول الابتدائى ؟

هل معرفته واستخدامه لظرف المكان ملائمة لمرحلة ما قبل تعلم الكتابة ؟

هل يراعى التبعية بين الصفة والموصوف، وأدوات التنكير والتعريف، والجمل ؟

هل يحسن استخدام أزمنة الأفعال ؟

هل يحسن تكوين جمل مفيدة ؟

هل ينجح فى تكوين الجمل المعتمدة (الثانوية) (جمل صلة، جمل زمنية، جمل هدفية)؟

هل يجيد ملء الفراغات وتكملة الناقص من الجمل ؟

هل يجيد وصف شخص او حيوان أو شئ مألوف لديه بصورة كافية ؟

هل يجيد تذكر شيئ أثار اهتمامه ؟

هل يجيد التحاور والمشاركة فى المحادثة ؟

هل يفهم ويتذوق الحكايات والقصص ؟

هل يتابع باهتمام مطالعة تلائم عمره وخبرته ؟

هل يستطيع تكرار أو تلخيص ماسمعه ؟

هل يستطيع تكملة حدوتة صغيرة ؟

هل يستطيع اختراع قصة صغيرة ؟

هل بوسعه تمييز وتسمية الصور التى يراها بدقة، على صفحات الكتب التى تقدم إليه فى المنزل وفى المدرسة ؟

هل يعلق عن طيب خاطر وبصورة كافية على ما يراه من صور ؟

هل يروى ما رآه فى التليفزيون ؟

هل يبدى فهمه لما رآه فى عروض التلفزيون.

ويجدر هنا أن نوضح، أن بطاقة التقييم النهائى بالنسبة للأطفال الذين يتمون عامهم الأول أو الثانى بالحضانة أو كانوا يبلغون من العمر أربع أو خمس سنوات، يجب أن تكون أبسط من (بطاقة طفل الست سنوات) وأن تركز على القدرات اللغوية (اللفظية) الأقل مستوى.

هذا الكلام ينطبق بالمثل، على حالة الأطفال المتأخرين لغويا، لأسباب ترجع إلى البيئة، أو لأسباب خلقية موروثة.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
- مقدمة	٥
الفصل الأول	
دور الكلمة فى تطور الإنسان	٧
- لغة الكلام ذات أهمية قصوى	٧
- التقدم عن طريق الكلمة	٨
- خطورة التخلف اللغوى	١٠
الفصل الثانى	
لغة الكلام	١٥
- ماهى الكلمة ؟	١٥
- شمولية وفردية اللغة	١٧
- وظائف الكلمة	١٩
الفصل الثالث	
اللغة والكلمة	٢٣
- أبعاد الكلمة	٢٣
- المقارنة بين الكلمة واللغات غير اللفظية	٢٥
- بعض اللغات غير اللفظية	٢٧
- حصيلة محدودة أم حصيلة ثرية	٢٨
الفصل الرابع	
الكلمة والتفكير	٣١
- علاقة تفاعل	٣٢
- تفاعل وليس تطابقا	٣٥
- الكلمة والتفكير فى مرحلة الطفولة	٣٧
- اللغة والتفكير فى تربية الطفل	٣٨

الفصل الخامس

التطور اللغوى فى مرحلة الطفولة الأولى ٣٩

- الالتقاء بعالم الأصوات ٣٩

- مرحلة ماقبل اللغة ٤٣

- استخدام الكلمات ٤٥

الفصل السادس

النمو اللغوى فى مرحلة الطفولة الثانية ٤٩

- الاشتياق إلى الكلمات ٤٩

- الاختراع اللغوى والنحو ٥٣

- مركزية الذات اللفظية ٥٥

الفصل السابع

القصور والتأخر والإضطراب فى نمو اللغة اللفظية ٥٩

- القصور اللغوى ٦٠

- التأخر فى النمو اللفظى. ٦١

- اضطرابات اللغة اللفظية. ٦٤

- نصائح للوالدين والمعلمات. ٦٦

الفصل الثامن

الكلمة والبيئة الإجتماعية والثقافية والإعداد اللغوى ٦٩

- الكلمة واللغة ٦٩

- الأفراد والبيئة فى اللغة اللفظية. ٧١

- اللغة المحدودة واللغة الراقية. ٧٤

- الإعداد اللغوى ٧٦

الفصل التاسع

اللهجة - اللغة القومية. الجمع بين العامية والفصحى ٧٩

- الطفل واللهجة ٨٠

- التعددية اللغوية والجمع بين اللغة القومية واللهجة ٨٥
- التعددية المبكرة ٨٦
- اللغة الواحدة والتعددية، والجمع بين اللغة القومية واللهجة ٨٨

الفصل العاشر

التربية اللغوية داخل الأسرة ٩١
- وسائل التربية اللغوية داخل الأسرة. ٩٤
- تأخر الكلام والأخطاء. ٩٨

الفصل الحادي عشر

التربية اللغوية في رياض الأطفال ١٠١
- إمكانات وقدرات الطفل. ١٠١
- السن الحاسمة. ١٠٢
- مواصلة دور الأسرة. ١٠٣
- موضوعات وأساليب التربية اللغوية في رياض الأطفال. ١٠٥

الفصل الثاني عشر

المنولوج والحوار والمحادثة ١١١
- الحوار ام المونولوج. ١١١
- المنولوج (حديث الطفل لنفسه). ١١٢
- الحوار ١١٤
- المحادثة ١١٧

الفصل الثالث عشر

دور الصور والتمثيل في التربية اللغوية للطفل ١١٩
- معبر هام بين الخبرة المباشرة والكتاب. ١١٩
- أنواع مختلفة من الصور. ١٢١
- التمثيل. ١٢٢
- العرائس المتكلمة (الأراجوز) ١٢٥

الفصل الرابع عشر

قصص ومطالعات ١٢٧

- استعادة الكلمة المكتوبة لمكانتها. ١٢٧
- القصائد والأغانى والأناشيد. ١٢٨
- الحكايات والمطالعة. ١٣٠
- الحكاية. ١٣٢
- المطالعة. ١٣٣

الفصل الخامس عشر

التربية اللغوية وأدب الأطفال ١٣٧

- أدب الأطفال. ١٣٨
- موضوعات وشكل أدب الأطفال. ١٤٠
- القصص الخرافية. ١٤٢
- قصص الحيوان. ١٤٣
- الحكاية على لسان الحيوان. ١٤٥

الفصل السادس عشر

مثال للتربية اللغوية المنطقية ١٤٧

- التخطيط التربوى فى رياض الأطفال. ١٤٧
- تحليل ظروف الطفل البيئية. ١٤٩
- بطاقة تقييم مبدئى. ١٥٠
- اختيار الأهداف والمناهج والوسائل. ١٥١
- تقييم النتائج. ١٥٣
- بطاقة تقييم نهائى لطفل بعد ثلاث سنوات من الحضانة. ١٥٤

رقم الإيداع	١٩٩١/٣٢٨٧
I.S.B.N	977-10-0464-6